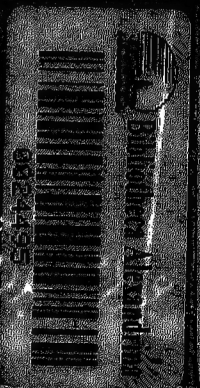


سلسلة آفاق البحث في التربية الإسلامية
الكتاب الرابع

الابعد والتربوي والمهني للطبيب عند المسلمين

محمّد النقيب

دار الفكر العربي



سلسلة من آفاق البحث في التربية الإسلامية
الكتاب الرابع

الإعداد التربوي والمهني للطبيب عند المسلمين

دكتور
عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب
كلية التربية - جامعة المنصورة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
11 شارع جواد مسعود / القاهرة
ص ١٣٠ - ت ٧٦٠٩٣



مقدمة البحث

ينخل اهتمام الباحث بموضوع تلك الدراسة ضمن اهتمامه الفصام بدراسة تاريخ التربية عند المسلمين - وهو اهتمام قديم يرجع الى سنوات دراسته لدبلومات التربية ، ثم يمتد الى مرحلة الماجستير التي كانت حول « الآراء التربوية في كتابات ابن سينا » * . فالى مرحلة الدكتوراه عن « الاصلاح التعليمي للأزهر في الفترة من عام ١٨٧٢ م - ١٩٧٢ م » ** . ولقد تضاعف اهتمام الباحث بهذا الاتجاه في الفترة الأخيرة كرد فعل لهذا التجاهل الطويل لدراسة تراثنا التربوي والنفسى والذي وصل أحيانا الى درجة الازدراء والتحقير وعدم الاعتراف . ورقم إيمان الباحث المطلق أن الفكر التربوي والنفسى المعاصر قد حقق تقدما هائلا مما يحتم على الدارسين أن يواكبوا هذا الفكر المعاصر ويدرسوه بعمق ، الا أن معرفة الباحث الأولية بتراثنا التربوي والنفسى قد أكدت له الكثير من الجوانب المشرقة التي تستحق الدراسة والتأمل . وعلى سبيل المثال فإن سريان روح الخير العام في النظام التربوي الاسلامى ما زال معلما هاما من معالم هذا النظام تحاول البشرية بنظمها التربوية المختلفة أن تتلمس الطريق اليه بلا تكاد تصله الا قليلا . ولا شك أننا كلما ازدادنا اطلاعا على هذا التراث ودراسة لاعلامه وامكاره ومنجزاته التربوية والحضارية كلما ازداد تقديرنا لهذا الجهد ، ومعرفة بالطرق التي سلكها سلفنا في تدرجهم الى اكتشاف حقائق الاشياء وارساء قواعد الترقى العلمى والتربوى . ولسنا نرى أن مثل هذه الدراسات خوض في فضول وتماد في « علم لا ينفع

* الباحث : الآراء التربوية في كتابات ابن سينا ، رسالة ماجستير ، كلية التربية جامعة عين شمس ، ١٩٦٩ .

** The Educational Reform of AlAZhar, 1872 — 1972, Ph, D. Thesis Exeter University, 1980.

وجهل لا يضر » بل نعتقد أنها سبيلنا الوحيد لتأصيل فكرنا التربوي والنفسى ، وتحديد هويتنا الثقافية والحضارية التى ما زالت تسبح فى غيوم الضياع حتى اليوم .

ودراستنا الحالية عن الاعداد التربوي والمهنى للطبيب عند المسلمين تقتصر على اعداد الطبيب البشرى Medical Doctor ولا تتعرض للعلاج النفسى او « الطب الروحى » كما سماه العلماء المسلمون * . كذلك فان دراستنا الحالية تركز على الاعداد التربوي المهنى لهذا الطبيب دون أن تناقش منجزات الطب الاسلامى ، او اسهامات الأطباء المسلمين فى تطور الطب العالمى ** اذ أن مثل هذه الدراسات تحتاج الى اخصائيين

* هناك دراسات تراثية يمكن الرجوع إليها فى هذا الموضوع مثل :
الطب الروحانى : للإمام الشيرازى ، مطبعة المقيد ، القاهرة ١٣٩٩ هـ ،
رسالة فى مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد فى الرذائل : لابن حزم ، مطبعة النيل ، القاهرة ، ١٣٢٣ هـ ، **الطب الروحانى** : للحافظ بن الجوزى ، مكتبة القدس ، القاهرة ١٩٨١ ، **الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى** ، **المسمى الداء والدواء** ، لابن قيم الجوزية ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، ١٩٧٢ ، **واحياء علوم الدين للغزالى** ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، (بدون تاريخ) .. وغيرها .
** هناك دراسات عدة ظهرت فى هذا الميدان مثل :

بول غليونجى : **أبن النفيس** ، اعلام العرب ٥٧ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، (بدون تاريخ) ، محمود الحاج قاسم محمد : **الموجز لما أضافه العرب فى الطب والعلوم المتعلقة به** ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٧٤ ، مرسى محمد عرب : **لمحات من التراث الطبى العربى** ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ١٩٧٥ ، أحمد حسنين القرنى : **قصة الطب عند العرب** ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة (بدون تاريخ) ... الخ ، وإلى جانب هذه الجهود الفردية هناك جهود جماعية ومؤتمرات عقدت لهذا الغرض مثل :

إبحاث وأعمال المؤتمر العالمى الأول ، والثانى ، عن الطب الاسلامى =

فى الطب النفسى وفى علم النفس ، وفى الطب البشرى ، كما انها تخرج عن حدود مجال البحث والباحث . ان اهتمام الدراسة الحالية هو ابراز الجانب التربوى والمهنى من اعداد الطبيب عند المسلمين : كيف تربى هذا الطبيب ؟ وكيف اعد مهنيًا ؟ وكيف تم انتقاؤه ؟ وما هى حقوقه وواجباته ؟ مع تقييم هذا الأسلوب فى الاعداد ، وابرار بعض الدروس المستفادة من تلك التجربة التربوية الاسلامية فى ميدان التعليم والتمهين الطبيين .

ولقد قسم الباحث دراسته الى أربعة فصول : **الفصل الأول :** بعنوان « دور الاسلام وتعاليمه فى ازدهار الطب الاسلامى » . وفى هذا الفصل عالج الباحث كيف كانت تعاليم الاسلام هى الدافع القوى لاقبال المسلمين على العلم والتعليم ومنها التعليم الطبى . فقد حثت تلك التعاليم على طلب العلم والحفاظة على صحة الانسان وطلب الدواء لكل داء . ولقد وضع الباحث اثر هذه التعاليم منذ عهد الرسول والخلفاء الراشدين ، وفند تاريخيا دعوى ان عصر الرسول والخلفاء الراشدين وصدر الدولة الاموية لم يختلف عن عصر الجاهلية فيها يتعلق بالعلم والتعليم ، لانه كان زمان الفتن الاهلية والحروب الداخلية وفتوح البلدان والجهاد لنشر الاسلام ، وبين كيف ان تعاليم الاسلام منذ البداية كانت دافع المسلمين الاكبر للاقبال على العلم ومنه « التعليم الطبى » .

الفصل الثانى : بعنوان : الاعداد التربوى للطبيب عند المسلمين ،

سلسلة مطبوعات منظمة الطب الاسلامى ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى ، الكويت ، ١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، مهرجان اسبوع العلم الثامن : المجلس الاعلى للعلوم ، الجمهورية العربية السورية ، دمشق ١٩٦٧ ، المؤتمر العلمى العربى الخامس ، ٥ مارس ١٩٦٦ : الاتحاد العلمى العربى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ . ولا شك أن هذا المجال يحتاج الى مزيد من الجهود الجامعية ولفترة طويلة حتى يمكن خدمة هذا الميدان .

المرحلة الأولى (التعليم الابتدائي) . وفي هذا الفصل عالجت الدراسة المرحلة الأولى من تعليم الطب وهي المرحلة الابتدائية Primary Education وناقشت أهداف تلك المرحلة ، ومناهجها ، وطرق التدريس المتبعة فيها ، مع تقييم تلك المرحلة من حيث المزايا والعيوب ، وكيف أثر هذا التعليم الابتدائي على شخصية الطبيب فيها بعد .

الفصل الثالث : بعنوان « الاعداد التربوي والمهني للطبيب ، المرحلة الثانية المتخصصة Further Education . وقد فضل الباحث اطلاق هذا المصطلح على تلك المرحلة لأنه لا يوجد مقابل معاصر لها ، اذ تشمل التعليم الثانوي والجامعي وما بعده . ولقد تناول الباحث في هذا الفصل الدوافع المادية والمعنوية التي دفعت المسلمين الى الاهتمام « بالتعليم الطبي » ، وكيف اتجه هذا التعليم الى التخصص العميق الواسع وليس مجرد التخصص الضيق ، ثم تناول مؤسسات التعليم الطبي المختلفة ومناهج التعليم النظري وطرق الاعداد التربوي والمهني وعدد سنوات التعليم الطبي ، ونظام الامتحانات المتبع ، ووضع أساتذة الطب المشتغلين بتدريسه ، وحظ المرأة المسلمة من هذا التعليم .

الفصل الرابع : بعنوان « صفات الطبيب وحقوقه وواجباته » وفيها مرّض الباحث لأهم الصفات الحسية والطبيعية والعقلية والأخلاقية التي راعاها المسلمون في اختيار الطبيب ، وكذا أهم الحقوق التي تمتع بها ، والواجبات والمسئوليات التي كلف بها .

ولقد راعى الباحث خلال معالجته لهذه الفصول الأربعة أن يرجع الي كتب التراث ، وأن يناقش آراء الباحثين المحدثين في تلك الموضوعات المثارة . ثم خاتمة الدراسة ، والتي تحتوي على بعض الدروس المستفادة من تلك التجربة الاسلامية في ميدان التعليم الطبي . ولقد رأى الباحث أن يضم الى الدراسة بعض « الملاحق » التي رأى أهمية ضمها ، وان كان قد اقتصر على أربعة منها ، مراعاة لحجم البحث وظروف الدراسة .

وأخيرا فإن الباحث يشعر أن تلك الدراسة ما هي إلا نقطة بداية ،
وأنها إذا كانت قد ألفت بعض الضوء على قليل من الجوانب فقد أثارت
في نفس الوقت العديد من علامات الاستفهام حول الكثير من الموضوعات
التي تستحق الدراسة . وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن قضية التعليم
في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، وقضية تعليم المرأة ، وقضية
الاتجاهات التربوية المختلفة في العصر الاسلامي وقضية المحتوى الدراسي ،
وقضية الطب الروحي أو النفسى ، وقضية التراث الطبى الاسلامي ،
وقضية أسلمة التعليم الطبى وتعريبه ... الخ . . . كلها قضايا كانت تطل
برأسها وتفرض نفسها على الدراسة ، مما يشعر الباحث بأهمية التصدى
لها في المستقبل .

كلمة أخيرة ينبغى أن يذكرها الباحث هنا وهي أن يشكر مؤسسة
الكويت للتقدم العلمى ، ومنظمة الطب الاسلامي بالكويت لتقديهما منحة
له لدراسة هذا الموضوع . لقد كان لهذه المنحة المتواضعة وما ارتبط بها
من متابعة علمية مستمرة فضل الاسراع في بروز هذا البحث الى الوجود .
كما هو عليه الحال ، والا فلربما ظل فكرة كفيه من الأفكار الكثيرة لدى
الباحث ، أو لربما تأخر على الأقل عن الظهور فترة قد تطول أو قد
تتصر .

هذا وبالله وحده التوفيق .

مكتور

عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب

الفصل الأول

دور الإسلام وتعاليمه
في ازدهار الطب الإسلامي

دور الاسلام وتعاليمه في ازدهار الطب الاسلامي

تتبنى الدراسة الحالية وجهة النظر التي تذهب الى أن ازدهار الطب الاسلامي لا يمكن فهمه الا على ضوء توضيح أمرين هما : موقف الاسلام من العلم والتعليم بصفة عامة ، وكيف أن الاسلام قد دفع المسلمين الى طلب العلم وحثهم عليه ، وموقف الاسلام من « التعليم الصحى » بصفة خاصة وكيف وجه الاسلام نظر أتباعه الى كثير من التعليم الصحى وابقظ لديهم الوعى الصحى والشعور بأهمية « الصحة ١ » وهذا ما سيحاول هذا الفصل التمهيدى أن يوضحه بصورة سريعة موجزة .

أولا : موقف الاسلام وتعاليمه من العلم والتعليم بصفة عامة :

تكاد أكثر الدراسات التي تناولت الحياة العلمية والتعليمية عند المسلمين أن تجمع على اتخاذ قيام دار الحكمة في بغداد عام ٢١٧ هـ / ٨٣٢ م بداية لانطلاق النهضة العلمية والتعليمية عند المسلمين . وسواء كانت تلك الدراسات دراسات أجنبية أو دراسات عربية فإنها ترى أن المرحلة السابقة لهذا التاريخ ، وبالأذات مرحلة الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، أنها كانت مرحلة انشغال بالجهاد الاسلامى وانكفاء على النص القرآنى وما اتصل به من علوم الدين . يقول بوتنى : « أنه يبدو من الصعب أن لم يكن محالا أن نجد أى معلومات تتصل بالتعليم في العصور الاسلامية الاولى ، اذ من الواضح أن اتباع محمد كانوا أكثر انشغالا بالجهاد في سبيل نشر دينهم عن تعليم أولادهم » (١) وحتى عندما اراد المسلمون أن يعلموا أولادهم فقد اقتصر هذا التعليم على « اكتساب المبرمة بدين محمد ، اذ أن أى شىء وراء ذلك إنما هو خرافة وخطر ، ولما كان دين محمد يحتوى على مجموعة من التعاليم وضمت في الماضى فان المنهج والطريقة ينبغى أن يكونا ثابتين ، والحفظ لا التفكير هو الشىء المطلوب في هذا التعليم » (٢) .

وإذا جاز للدارسين الأجانب أن يأخذوا هذا الموقف غير العلمى من الحياة التعليمية والعقلية في صدر الإسلام قصدا أو غفلة وعفوا لمن الغريب أن أكثر الدراسات العربية راحت تردد هذا الزعم وتسميم القرون الإسلامية الأولى بميسم « الجهاد المسلح » من ناحية والضحالة العملية والفكرية من ناحية ثانية دون محاولة منهم لاعادة النظر في هذا الحكم وتمحيصه ، حتى لقد وقر في الأذهان أن عصر الرسول والخلفاء الراشدين وصدر الدولة الأموية إنما هي عصور فجاجة العقل العربى وعدم حيوية الفكر الإسلامى ، وحتى أن تريبويا معاصرا عندما تناول الفكر التربوى الإسلامى فانه يقسمه الى ثلاث مراحل : المرحلة الأولى منه تبدأ من هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام حتى قيام دار الحكمة في بغداد ، واهم ما يميز هذه المرحلة في نظره من الناحية الفكرية والتربوية « هو هيمنة الفكر الدينى المطلقة وشيوع التقليد الذى كان نوعا من انواع الاستمرارية من عهد الرسول ومحاولة للثبات عليه » (٢) ، ثم يضى فيؤكد « نحن في الواقع لا نجد فكرا تربويا متميزا في هذه المرحلة (هكذا !!) خلاف ما شاع فيها من الأحاديث عن شرف العلم وكرامة السعى في طلبه ، ويبدو أن غياب مثل هذا الفكر يعود الى بساطة النظام التعليمى الذى عرف في هذه الحقبة وافتقاره الى النظرية التربوية المتكاملة » (٤) .

ولسنا نريد أن نستطرد في اعطاء المزيد من الشواهد التى تؤكد على سيطرة هذا الاتجاه في تناول الحياة العقلية والتعليمية في القرون الإسلامية الأولى — كذلك فلن نحاول في تلك الدراسة أن نفند هذا الراى ونثبت بالأدلة التاريخية القاطعة أن بذور النهضة العملية والتعليمية في العالم الإسلامى إنما وضعت بذورها بنزول الوحى ، ومنذ عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، وأن العرب قد ظلوا قرونا قبل الإسلام دون أن ينتجوا لنا علوما ذات بال ، وحتى تلك الدراسات التى تؤكد على الطابع العضائى للعرب في الجاهلية — وخاصة عرب الجنوب (٥) لا يمكن أن تقلل من دور الإسلام وتعاليمه في ازدهار الحياة التعليمية والفكرية عند

العرب بعد الاسلام . لقد كان الاسلام بتعاليمه نقطة تحول كاملة في حياة العرب سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وتربويا ولن نستطيع ان نفهم هذا الاقبال الشديد على العلم والتعليم في حياة العرب بعد الاسلام الا اذا درسنا المبادئ الاسلامية التي جاء بها القرآن واكدها الرسول وتابع تطبيقها بنفسه وطبقها الخلفاء الراشدون من بعده لنشر العلم والتعليم في المجتمع الاسلامي ، واذا كانت الدراسة الحالية ليست هي المجال المناسب للعرض التفصيلي الموفق لتلك الحقيقة فلا أقل من ان نشير هنا اشارات سريعة الى بعض الملامح العامة التي تفيدنا في دراسة ازدهار الطب الاسلامي في العصور الاسلامية الوسطى المشرقة الممتدة من هجرة الرسول الى المدينة الى فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ م (٦) بحيث هذا الطب الاسلامي غاية ما وصل اليه العقل البشري في ميدان الوقاية والعلاج طوال تلك العصور .

فلقد كان خلف هذا الاندفاع القوي الى ميادين العلم المختلفة ومنها الطب دين يقدس العلم والعلماء ، ولا يرضى لاتباعه بالجهل والتخلف العقلي ، والدارس لكتب التراث التربوي الاسلامي - وهي كثيرة - يجد ابوابا مخصصة للعلم وذكر فضائله والحث عليه وببيان ضرورة طلبه من ناحية ونشره بين الناس من ناحية اخرى ، وسيلاحظ الدارس ان تلك الادبيات التربوية تتناول هذا الموضوع مدعما بالآيات واحاديث الرسول وآثار الصحابة رضوان الله عليهم وهو ما تشير اليه بدليل النقل ثم يأتي بعد ذلك تناولها للموضوع من الناحية العقلية والمنطقية التي يرتضيها العقل السليم وهو ما يسمى بدليل العقل (٧) ، ويطول بنا الحديث لو ذهبنا نتتبع هنا تلك الأدلة النقلية والعقلية معا ، ولذلك فسكتفي الدراسة بالقليل من الشواهد من القرآن والسنة « اذ العبرة بقوة الأدلة لا بكثرتها » كما يقول طائس كبرى زاده عند تناوله لهذا الموضوع (٨) .

اما عن فضيلة العلم ، فان الله تعالى يقول « شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم » (آل عمران آية ١٨) . فبانظر كيف بدأ

الله بنفسه سبحانه وثنى بملائكته وثالث بأهل العلم . وقال تعالى :
« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (المجادلة
آية ١١) ، وقال تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين
لا يعلمون » (الزمر آية ٩) . ويعلق طائش كبرى زاده على مثل هذه
الآيات بقوله : « أو لم يكف بالعلم وأهله الشرف الأصيل ، والمجد الأئيل
أمثال هذه الآيات الواردة في التنزيل » (٩) . وعن فضيلة العلم أيضا
يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء » ويعلق
طائش كبرى زاده على هذا الحديث بقوله « ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة
ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة » ، وقال صلى الله عليه وسلم :
« أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد ، أما أهل العلم فدلوا
على ما جاءت به الرسل ، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأساليبهم على
ما جاءت به الرسل » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « يوزن يوم القيامة
مداد العلماء بدم الشهداء » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « يشفع يوم
القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء » ، ويعلق طائش كبرى زاده
على ذلك بقوله : « فاعظم بمرتبة هي تلو النبوة وفوق الشهادة » .
ولعل تلك الآيات والأحاديث قليل من كثير يوضح لنا بالفعل المنزلة السامية
للعلم والعلماء في حياة المجتمع الاسلامي وكيف نظر المسلمون الأوائل الى
أهمية الإقبال على العلم والتعليم .

ولا تكتفى تعاليم الاسلام بالتاكيد على أهمية العلم والتعليم ولكنها
تحث الناس حثا على طلب المعرفة ، يقول تعالى « فلو لا نفر من كل فرقة
منهم طائفة ليتفقهوا في الدين » (التوبة آية ١٢٢) وقال تعالى « فاسألوا
أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » (الأنبياء آية ٧) ، ويقول صلى الله عليه
وسلم « من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا الى الجنة » .
وقال صلى الله عليه وسلم « ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء
بما يصنع » وقال صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل
مسلم ومسلمة » ... الى غير ذلك من الآيات العديدة والأحاديث التي

تظهر فضيلة التعلم والتي تتفجع المسلمين دفعها الى طلب العلم والتزود به .

وهنى يندفع المسلمون الى التعلم فلا بد لهم من « العناصر المعلمة » والتي تبذل لهم العلم اذا ارادوه وسعوا اليه ، ومن هنا دعا الاسلام الى ضرورة نشر العلم وعدم كتمانته ، وضرورة ان يبذل كل عالم ما لديه من علم للآخرين .. يقول تعالى « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين (أى يتعلموا) ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم (أى يعلموا قومهم) .. » (التوبة آية ١٢٢) ، وقوله تعالى « واذا أخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » (آل عمران آية ١٨٧) وهذا ايجاب للتعليم وعدم كتم العلم ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا خسد الا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحسب ورجل آتاه الله عز وجل حكمة فهو يقضي بها ويعلمها » ، و « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين : أحدهما يدعون الله عز وجل ويرغبون اليه والثاني يعلمون الناس فقال : أما هؤلاء فيسألون الله عز وجل ان شاء اعطاهم وان شاء منعهم ، أما هؤلاء فيعلمون الناس واتا بفشت معلما ، ثم عدل اليهم وجلس معهم » (١٠) .

ولا شك ان مثل هذه الآيات والأحاديث قد ركزت في الحس الاسلامي وتربى عليها المجتمع منذ صدر الاسلام ، « لقد ركز في الحس الاسلامي أن التعليم والتعلم لا يمكن أن يكون مجرد حرفة أو مهنة بل هو أصلا عبادة وتقرب الى الله ، وكما أن العالم في الاسلام ينبغي عليه أن ينفر للتعليم ويسعى الى التزود من العلوم والمعارف فانه من الواجب عليه أيضا أن ينصرف الى تعليم الآخرين (١١) .»

فإذا أضفنا الى ذلك كله ما حفل به القرآن الكريم من الدعوة الى أعمال العقل والتفكير في ظواهر الكون والاشادة بالتدبر في آيات الله المختلفة ومواقفه المتعددة (نبات وحيوان وانسان وطبيعة ... الخ) وتوزيع الجهال والغافلين والسخرية بهم لا يعلمون أو لا يفكرون لوجدنا

انفسمنا بالفعل امام عامل حاسم في تغيير « العقل العزى » وتفجير طاقاته الثقافية واستغلال امكانياته استغلالا علميا جديدا لا عهد لهم به (١٢) .

فايات القرآن الكريم تخاطب العقل وتدعو الى النظر وتحارب الخرافة والاعتماد على الظنون مثل قوله مخاطبا الناس جميعا « قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدا الخلق » .. (العنكبوت الاية ٢٠) وقوله : « قل انظروا ماذا في السموات والارض » .. (يونس الاية ١٠١) وقوله : « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الايات لقوم يعقلون » .. (الانعام الاية ٩٧) وقوله : « ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم واللغات ان في ذلك آيات للمؤمنين » (الروم الاية ٢٢) ، وقوله : « ألم تر ان الله انزل من السماء ماء فاهوينا به ثمرات مختلفا الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وشرابيب سود ، ومن الناس والادواب والانعام مختلف الوان كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء » .. (طاهر الايتان ٢٧ ، ٢٨) . فامثال هذه الايات تدعو المسلم الى التأمل والنظر في ظواهر الطبيعة وسجالي الكون ومحاولة تأمل أسرارها والتعمق في فهمها .

وهناك آيات أخرى تدعو الى محاربة استعمال الظنون في التفسير وتحث المسلم على ان يبنى فكره على أساس قوى من الحق العراج . يقول تعالى : « افرايتم اللات والعزى ، وهما الثالثة الأخرى ، الكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك اذن قسمة ضرى ، ان هى الا اسماء سميتها وهما انتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس » .. (النجم الايات ١٩ — ٢٣) . وقال تعالى : « وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » .. (الجاثية الاية ٢٤) . وقال تعالى : « وما ينبع اكثرهم الا ظنا ، ان الظن لا يفنى من الحق شيئا ان الله عليم بما يفعلون » (يونس الاية ٣٦) .

وهناك آيات أخرى تلفت النظر دائما الى البحث عن الدليل العقلى (م ٢ — الاعداد التربوى للطبيب)

وتمنع من التقليد الأعمى للسابقين دون بحث أو نظر مثل قوله تعالى :
« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا
أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » .. (البقرة الآية ١٧٠)
وقوله تعالى : « بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مهتدون
وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا
آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مقتدون ، قال أولو جئناكم باهدى مما وجدتم
عليه آباؤكم قالوا انا بما أرسلتم به كافرون . فالتقمنا منهم فانظر كيف كان
عاقبة المكذبين » .. (الزخرف الايات ٢٢ — ٢٥) .

ويطول بنا الحديث لو مضينا في سرد الآيات التي تدعو الى التذبر
والتعقل والتبصر واستعمال الحواس من سماع وبصر ... الخ ،
واستخدام العقل في الوصول الى علل الأشياء ، ولاشك ان مثل هذه
الآيات القرآنية تمثل منهجا علميا قرآنيا ، جديدا في حياة العرب نقلهم
من البداوة الى الحضارة العقلية ومن الفوضى الى التأمل والنظرة المنسقة
الى الحياة والكون ، ومن العقلية الخرافية التي لا تربط الأسباب
بالمسببات الى العقلية التي تتدبر سنن الله الثابتة التي لا تتغير .
« ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » .. (الملك الآية ٣) ، « سنة الله
في الذين خلوا من قبل ، وإن نجد لسنة الله تبديلا » .. (الأحزاب الآية ٦٢) .
ولا شك ان تطبيق هذا المنهج العلمى الصارم الذى أسسه القرآن الكريم
ينتهى دائما الى بناء العقلية المسلمة على أساس من المنهجية العلمية ،
والإيمان ببداية العلية والحيلولة بينها وبين الوقوع في برائن الخرافة الناتجة
من العقلية العامية التي تقع دائما في تصديق الأشياء دون تطبيق المنهج
العلمى السليم (١٢) .

ومن الطبيعى أن النقلة الهائلة من طريقة النظر الجاهلية الى الكون
والحياة الى تلك النظرة العلمية القرآنية الجديدة لا يمكن أن تتم في يوم
وليلة ، ولكن المهم أن نرصد هذا التحول العقلى الهائل منذ بدايته ،
وكيف أن المجتمع الإسلامى منذ صدر الإسلام كان يتجه الى درب جديد
من دروب العقل والنظر والتفكير ، وما هو الرسول صلى الله عليه وسلم

عندما بلغة أن بعض الناس يظنون أن خسوف الشمس كانت بسبب موت ابنه إبراهيم عليه السلام يسارع فيصحح هذا الخبر ملفتا نظرهم الى تلك الحقيقة الكونية الثابتة قائلا « ان الشمس والقمر من آيات الله لا يخسفن لموت أحد ولا لحياته » (١٤) كذلك فان الذي يقرأ كتابا مثل « نهج البلاغة » المنسوب للإمام على بن أبى طالب — حتى وان كان الكتاب محتويا على جزء مفتحل — فلا بد أن يدرك اثر هذا التفير الثقافى الضخم الذى أحدثه الاسلام على العقلية العربية منذ صدور الاسلام ، اذ الكتاب لا يحتوى على فكر دينى محدود بل يعكس أحيانا كثيرة نظرات عميقة الى الكون والحياة والاحياء لا يمكن أن تصدر الا عن عقل قد درب على دقة التأمل والتدبر والملاحظة (١٥) .

وحتى يتأكد هذا التحول العقلى الهائل كان لابد من نشر العلم والتعليم بين أفراد المجتمع ، لذلك وجدنا الرسول صلى الله عليه وسلم منذ بدايات الدعوة الأولى يمارس التعليم ويدعو الناس الى العلم رجالا ونساء ، سواء فى دار الأرقم بمكة أو فى مسجده بالمدينة (١٦) وما أن يبايع وفد المدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة الأولى على الاسلام حتى يرسل معهم مصعب بن عمير ويأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم فى الدين وكان يسمى المقرئ بالمدينة (١٧) ولا تمضى مدة طويلة حتى تبرز أسماء وقيادات تربوية من الرجال والنساء أمثال أبى بن كعب وزيد بن ثابت وأبى زيد ومعاذ وأبى الدرداء وسعد بن عباد وأبى عبيدة الجراح وأسيد بن حضير وأم ورقة بنت عبد الله بن الحارث الأنصارى وغيرهم كثيرين وكثيرات (١٨) . ثم يظهر « اخوان الصفة » فيعكفون فى مسجد رسول الله بالمدينة ويفرقون انفسهم لطلب العلم والجهاد فى سبيل الله نظير أن يوفر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « حاجاتهم الأولية » واهل الصفة أضياف الاسلام لا يأوون الى اهل ولا مال ولا على احد ، اذا اتته (رسول الله صلى الله عليه وسلم) الصدقة بعث بها اليهم ولم يتناول منها شيئا واذا اتته هدية أرسل اليهم وأصاب منها واشركهم فيها (١٩) ، ولقد بدا عدد « اهل الصفة » قليلا فى البداية

ثم ظلوا يتزايدون فيها بعد ، اذ أن بعض الروايات تجعلهم عشرين والبعض يجعلهم أربعين وبعض الروايات تصل بهم الى أربعمائة من القراء المجاهدين (٢٠) ، ولقد عكست هذه الأعداد الكبيرة من أهل الصفة على التعليم والجهاد ، اذ كانوا يخرجون في كل سرية من سرايا الرسول ولعل « أهل الصفة » هم النواة الأولى لفكرة « المدرسة » فيها بعد التي يتفرغ فيها الطلاب والمعلمون لطلب العلم والتعليم نظير أجور أو أرزاق كانوا ينالونها من الأوقاف ، مع فارق انساني هو أن « أهل الصفة » قد جمعوا بين « العلم والجهاد » بينما اقتصر أهل المدارس « على طلب العلم فقط » كذلك فإن أرزاق « أهل الصفة » لم تكن منتظمة بعكس أرزاق أهل المدارس فقد كانت منتظمة عن طريق الأوقاف الثابتة الدخل والمنصرف .

ولم يكن أهل الصفة يتعلمون القرآن شفاهة فقط بل تعلم معظمهم الكتابة أيضا وقد كان سعيد بن العاص كاتباً محسناً ، أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلم الناس الكتابة بالمدينة ففعل ، وكان ممن علمهم الكتابة أناساً من أهل الصفة ، علمهم الكتابة والقرآن ، أما عبادة بن الصامت فكان يعلمهم القرآن فقط (٢٢) . والغريب أن تؤكد كل المصادر الإسلامية تقريباً على دور « أهل الصفة » التعليمي والجهادي ثم ترى باحثاً معاصراً يشكك في هذا الدور ويشكك في وجود تلك الأعداد المتفرغة لهذا الأمر ، ويستكثر على مجتمع المدينة أن يكون به مثل تلك الطائفة ويذهب الى أنهم كانوا مجرد مجموعة من المشاغبين محبى الحرب وحديثهم مصالح وانتماءات خاصة ولم يكونوا أهل تعليم أو جهاد (٢٣) .

ونترك هذا الباحث وامثاله لكي نتتبع الخطوات العملية التي اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم لنشر العلم والتعليم في المجتمع الاسلامي ، فقد مارس التعليم بنفسه ثم ظهرت بجواره مجموعة من الصحابة كان يستطيع أن يعتمد عليهم في هذا الشأن . وبعد مدة وجيزة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستطيع أن يدفع بالرجل غير المتعلم الى من يعلمه ويفقهه فقد دفع على سبيل المثال وردان بن جند الفرات بن يزيد بن وردان الى ابلان بن سعيد بن العاص ليعلمه القرآن ، ودفع ابا ثعلبة الى عبيدة ابن الجراح لكي يعلمه وهكذا ، وكان يأمر الناس أن يستعملوا الفقه

والقرآن من جيرانهم قائلا : « ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يتفتّحون ولا يتعظون والله ليعلمن قوم جيرانهم ويتفتّحون ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفتّحون ويتعظون أو أعاجلنهم الحقوية » (٢٤) . وفي غزوة بدر عندما وجد بين الأسرى من يجيد الكتابة جعل فدية كل منهم أن يعلم عشرة من العلماء الكتابة ، وكان فداء الرجل قد بلغ أربعة آلاف (٢٥) . ولم يحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تعليم « الرجال » الكتابة فقط بل طلب من الشفاء أم سليمان بن أبي حنمة أن تعلم زوجته حفصة الكتابة (٢٦) .

ولقد أدرك المسلمون منزلة الكتابة وأهميتها حتى أن مجاهدا روى في قوله تعالى : « **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ** » معنى « **الخط** » ، « **ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا** » معنى الخط بتقديم وتأخير ، وكيف لا يدركون أهمية الكتابة والقرآن يأمرهم أن تكون معاملاتهم في حالة الدين كتابة . يقول تعالى : « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَعْتُمْ بَيْنَ أَلْفٍ إِلَى أَلْفٍ فَامْكُتُوهُ** » . (البقرة ١٨١) . والذي يطالع أسماء كتاب رسول الله فقط ويجسدهم اثنين وأربعين كاتباً كما يروى عكرمة (٢٧) لا يملك إلا أن يرفض ما يروى عن ندرة الكتابة في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ذكر ابن خلدون في مقدمته وتابعه على ذلك معظم الدارسين بدون تدقيق أو تحقيق ويقول « صاحب الحكومة النبوية » ما قاله معلقاً على رأى ابن خلدون : « وهذا — اقبال المسلمين على تعلم الخط والكتابة — يبطل ما قاله ابن خلدون من جهلهم بالخط فإن عكرمة كان يتكلم عن مشاهدة وابن خلدون كان يتكلم عن تخمين » (٢٨) .

ويحتاج الرسول صلى الله عليه وسلم في اتصالاته بالعالم الخارجى الى من يتقن اللغات الأجنبية في ذلك الوقت وهى الفارسية والرومية والقبطية والحبشية ، فينتدب لذلك زيد بن ثابت الأنصارى فيتعلمها زيد بالمدينة من أهل هذه اللغات : الفارسية من رسول كسرى ، الرومية من حاجب رومى كان للرسول صلى الله عليه وسلم ، والحبشية من خادم للنبي صلى الله عليه وسلم ، والقبطية من خادمة له صلى الله عليه وسلم .

وتذكر المصادر انه تعلم السريانية في بضعة عشر يوما (سبعة عشر يوما) (٢٠) . ومما لا شك فيه أن درجة معرفته بتلك اللغات لم تصل الى درجة الحذق بها في مثل تلك المدة الوجيزة ولكن المهم هنا هو لفت النظر الى قوة الدافع الاسلامي الذي يدفع أحد الصحابة الى تعلم هذه اللغات في مدة قصيرة ، وتلك الروح الحضارية الجديدة التي تمكن زيد ابن ثابت من أن يصبح ترجمانا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك اللغات .

وفي هذا الجو العلمي والتعليمي الجديد ظهرت كفايات علمية متعددة كعلى بن ابي طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس . . . الخ . وكان الأخير يسمى البحر لسعة علمه ، وكان يعلم في مسجد المدينة علوم الدين واللغة العربية والشعر . وحرصا على افادة طلابه الكثيرين وتلبية لطلباتهم كان يخصص يوما للقرآن والتفسير وثانيا لمغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وثالثا لآيام العرب ورابعا للإنساب وخامسا للشعر والنحو (٢٢) وكان عمر بن الخطاب — فيما بعد — يلفت نظر عمال الدولة وقادتها الى تلك الكفايات العلمية المتعددة عندما قال لهم في مؤتمر الجابية : « من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني ، فان الله سبحانه وتعالى جعلني خازنا وقاسيا » (٢٣) .

وتؤكد المصادر على أن المسلمين قد واصلوا تلك المسيرة العلمية والتعليمية في عهد الخلفاء الراشدين ، فقد أرسل الوالي يزيد بن أبي سفيان رسالة الى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب يطلب منه ايفاد المعلمين لتعليم أهل الشام وهذا هو نص الخبر :

قال محمد بن كعب القرظي : « ولما كان عمر كتب يزيد بن أبي سفيان ان أهل الشام كثير قد احتاجوا الى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، قال عمر لأصحابه : أعينوني بثلاثة فقالوا (عن أبي أيوب الأنصاري) هذا شيخ كبير ، وعن (أبي بن كعب) هذا سقيم فخرج معاذ بن جبل وعبادة

ابن الصامت وأبو الدرداء . فقال عمر : ابدأوا بحمص فاذا رضيتم عنها فليخرج واحد الى دمشق وآخر الى فلسطين : فأتاهم عبادة بحمص ، وخرج أبو الدرداء الى دمشق ومعاذ الى فلسطين ، ومات معاذ عام طاعون حمواس ، فسار عبادة بعدها الى فلسطين ومات بها ولم يزل أبو الدرداء بدمشق حتى مات « (٢٤) » .

ولقد أقبل طلاب العلم على تلك الحلقات الدراسية التي كانت تعقد « بالمساجد » المنتشرة في أرجاء الدولة الإسلامية حتى أن الحلقة الواحدة كانت تضم المئات بل والألوف وتروى المصادر أن أبا الدرداء كان من أوائل من عقد هذه الحلقات بالشام وأن عدد تلاميذه قد بلغوا ألفا وستمئة ونيفا كان يقسمهم مجموعات ، ويضع على كل مجموعة عريفا يحفظهم القرآن . « عن أبي عبد الله مسلم بن مشكم قال : قال أبو الدرداء : أعدد من يقرأ عندنا يعني في مجلسنا هذا فعددت ألفا وستمئة ونيفا ، فكانوا يقرأون ويتسابقون عشرة وعشرة ، لكل عشرة منهم مقرر ، وكان أبو الدرداء يستفتونه في حروف القرآن يعني المقرئين فاذا أحكم الرجل من العشرة القراءة تحول الى أبي الدرداء ، وكان أبو الدرداء يتسدىء في كل غداة اذا انفصل من الصلاة فيقرأ جزءا من القرآن وأصحابه محدثون به يستمعون الناظله ، فاذا فرغ من قراءته جلس كل رجل منهم في موضعه وأخذ على العشرة الذين أضيلوا اليه » (٢٥) .

ولقد زادت الحلقات اتساعا مع الأيام وازدادت أعدادها ، حتى أن حلقة ابن عامر « تلميذ أبي الدرداء — ضمت أربعمئة عريف يقومون عنه بالقراءة » (٢٦) ، مما يصور بالفعل مقدار ما وصل اليه المجتمع الإسلامي الاول من اقبال على العلم والتعليم .

ويصور ابن حزم ما وصل اليه المجتمع الإسلامي في صدر الإسلام من شيوع العلم والتعليم بقوله : « مات رسول الله صلى الله عليه وسلم والإسلام قد انتشر وظهر في جميع جزيرة العرب من منقطع البحر المعروف ببحر القلزم مارا الى سواحل اليمن كلها الى بحر فارس الى منقطع

مارا الى الفرات ثم على ضفة الفرات الى منقطع الشام الى بحر الغلزم وفي هذه الجزيرة من المدن والقرى ما لا يعرف عدده الا الله ، كاليمين والبحرين وعمان ونجد وجبلى طيء وربيعه وقضاعة والطائف ومكة كلهم قد أسلم وبنوا المساجد ليس منها مدينة ولا قرية ولا حلة لأعراب الا وقد قرئ فيها القرآن في الصلوات وعلمه الصبيان والرجال والنساء وكتب « (٣٧) : وتأمل قوله : « ليس فيها مدينة ولا قرية ولا حلة لأعراب الا وقد قرئ فيها القرآن في الصلوات وعلمه الصبيان والرجال والنساء وكتب » ليتضح لك كيف أن الحركة التعليمية في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امتدت الى المدن والقرى والحل ، وكيف أن القرآن قد درس قراءة وكتابة للصبيان والرجال والنساء . أما عن استمرار تلك الحركة التعليمية والتربوية في عصر الخلفاء الراشدين فان ابن حزم يقول : « ثم مات أبو بكر وولي عمر ففتحت بلاد الفرس طولا وعرضا وفتحت الشام كلها والجزيرة ومصر كلها ولم يبق بلد الا وبنيت فيه المساجد ونسخت فيه المصاحف وقرأ الأئمة القرآن وعلمه الصبيان في المكاتب شرقا وغربا » مما يؤكد على أن حركة التعليم كانت قد تدعمت في المجتمع الاسلامي الأول ، وأن مكاتب الصبيان لتعليم القرآن كانت قد أنشئت بالفعل في عهد عمر بن الخطاب على الأكثر ان لم يكن قبل ذلك ، وليس في العصر الأموي كما تذهب الى ذلك أكثر الدراسات المعاصرة جريا وراء أسطورة أن عهد الرسول والخلفاء الراشدين لم يكن عهد استقرار وعلم وتعليم بقدر ما كان عهد غزوات وفتوح ، ولقد غاب عن هؤلاء الدارسين ان الفتوح والغزوات لم تكن هدفا في حد ذاتها ، تعطل من أجله شئون العلم والتعليم ، وانها كانت تلك الفتوح والغزوات وسيلة لازالة العوائق التي تحول بين المسلمين وتادية فرض أساسى من فروض دينهم الا وهو نشر الدين الاسلامي على أوسع نطاق ممكن ، ولم يكن هذا الغزو حائلا بين المسلمين وبين العلم والتعليم ، بل كان أداة من أدوات نشر الدعوة وما يتصل بها من علم وتعليم (٣٩) . لقد كانت سياسة الرسول وخلفائه انراشدين تتمثل في الاتصال بمختلف الوسائل بالقبائل والشعوب المجاورة ودعوتهم الى الاسلام . وعندما كان هؤلاء يقبلون الدعوة كان « العلماء »

يتجهون اليهم لتعليمهم أركان الدين ، وعندما كانوا يرفضون ويبدأ القتال كان فتح بلد من البلدان يعنى انتقال المسلمين من مرحلة الفتح الى مرحلة تعليم الدين الاسلامى والقرآن الكريم (٤٠) من هنا نفهم لماذا كانت الجيوش الاسلامية فى صدر الاسلام تضم القضاة والعلماء والقراء لكى يعلموا الجند الاسلامى من ناحية ، ولكى يباشروا مهمتهم التعليمية والحضارية مع البلدان التى تدخل الاسلام من ناحية أخرى ، وعلى سبيل المثال لا الحصر فقد كان جيش اليرموك على طريق الشام يضم قاضيا هو أبو الدرداء وقاصدا هو أبو سفيان بن حرب ، وقارئا هو المقداد بن الأسود (٤١) ، وجريا على السنة التى سنّها الرسول فى معركة بدر فان قادة « الجيش الاسلامى » و عهد عمر بن الخطاب قد طلبوا من أسرى الشام الذين يجيدون الكتابة تعليمها للمسلمين ، مثال ذلك ما يروى البلاذرى من ان أسرى قيسارية وضعوا فى الجرف (وهو معسكر المسلمين فى فلسطين) وطلب منهم تعليم المسلمين الكتابة (٤٢) ، ولعل هذه الشواهد التاريخية ان تظهر ان الفتوح الاسلامية فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين لم تكن ملهسة عن نشر العلم والتعليم ، بل كانت أداة لنشر « العلم الاسلامى » وتبليغ على ان المسلمين كانوا قد اُشربوا حب العلم والتعليم ، يمارسونه فى سلامهم ويمارسونه فى حربهم ، وفرق هائل بين القادة عباقرة الحرب مثل الاسكندر المقدونى ونابليون وهتلر وموسولينى ... الخ ، وبين القادة عباقرة الحضارة مثل خالد بن الوليد ، وأبى عبيدة عامر بن الجراح ، وسعيد بن أبى وقاص ، وعقبة بن نافع ... الخ ، بين هؤلاء الذين حققوا انتصارات هربية باهرة فى الزمان الاقصر ولم يخلّفوا أثرا حضاريا وثقافيا من بعدهم ، وهؤلاء الذين فتحوا البلاد شرقا وغربا ثم بقيت آثارهم ظاهرة فى السياسة والحضارة والثقافة (٤٣) .

من كل ما سبق يتضح لنا شيئا من تلك الروح العلمية والتعليمية التى جاء بها الاسلام والتى حركت العرب الى الاقبال على العلم والتعليم : يقتلون عليه فى اوقات اسلام . ويتجنبون خيئه فى اوقات الفتوح والغزوات ، وستظل هذه هى السمة الغالبة على « المجتمع الاسلامى » عبر العصور

الاسلامية الزاهرة فحيثما ذهب المسلمون أقاموا حلقات العلم ومؤسسات التعليم وان اختلفت أسماء تلك المؤسسات وتعددت المناهج باختلاف العصور واختلفت الحاجات العلمية والتعليمية ، مما يؤكد لنا أن عصر الرسول والخلفاء الراشدين كان بحق عصر التحول العلمى والتعليمى فى حياة العرب ، وهو بهذا المعيار — يعد فى نظرنا — من ازهى العصور الثقافية فى حياة العرب والمسلمين * ، ولا شك أن « ميدان الطب » كان أحد الميادين التى تأثرت بتعاليم الإسلام من زاويتين : الزاوية الأولى ، هذا الاقبال . وهذا التقديس للعلم والمعرفة بصفة عامة ، والتى دفعت الناس الى مزيد من العلم والتعلم ، والزاوية الثانية ما حفلت به تعاليم الإسلام من مبادئ طبية فتحت المجال لمزيد من « الوعى الصحى » ومزيد من الاقبال على « التعليم الطبى » على نحو ما سنبينه فى الصفحات التالية :

ثانياً — موقف الإسلام وتعاليمه من التعليم الصحى بصفة خاصة :

رغم أن القرآن ليس كتاب تعليم طبى ورغم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يزعم لنفسه دور الطبيب البشرى Medical Doctor إلا أن تعاليم القرآن والسنة قد احتوت الكثير من المبادئ الطبية العامة التى استهدفت خلق المجتمع الإسلامى القوى صحياً ، وسواء فى ميدان الطب الوقائى Protection ، أو فى ميدان الطب العلاجى Treatment ، فإن تعاليم الإسلام قد احتوت على الكثير من الأسس الصحية التى تستهدف « حفظ الصحة وإزالة المرض » عن الإنسان والمجتمع . وتعتبر دراسة أهمذ شوقى الجنجرى « الطب الوقائى فى الإسلام » (٤٤) ، من أشهر الدراسات وأوجزها التى تناولت مبادئ الإسلام الطبية المتعلقة « بالطب الوقائى » مستمدة من القرآن وسنة الرسول صلى الله عليه

* يشعر الباحث أن هذا الموضوع « التعليم فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين » يستحق دراسة خاصة موثقة ، ويأمل أن تنهى له الظروف البحثية للقيام بتلك الدراسة الهامة .

وسلم . ولقد عالجت الدراسة المبادئ الإسلامية المتعلقة بما يسمى
في عصرنا الحاضر « الطب الوقائي » تحت العناوين الرئيسية التي نوجز
أهمها فيما يلي :

١ — أوامر في صحة البيئة الإسلامية ونظافتها :

Sanitation and Personal Hygiene

فقد اشتمل القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم
على العديد من الآيات والأحاديث التي تدعو إلى نظافة البدن والأيدي
والأسنان والأظفار والشعر ونظافة الملابس ونظافة الطعام والشراب
والشوارع والبيوت والمدن وموارد المياه كالأنهار والآبار ، وأنه لا
يخلو من معنى في ذلك الشأن أن نشير إلى أن أول سورة نزلت تنادي
بالعلم وثاني سورة نزلت تنادي بالنظافة ، فقد جاء في السورة الأولى
قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق
اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » (الملق
الآيات ١ — ٥) ، ولاحظ إشارة السورة إلى العلم والتعليم من أول نزول
النوحى وبداية الدعوة لتدرك طبيعة هذا الدين الحضارية ، وجاء في السورة
الثانية قوله تعالى : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك
فطهر ، والرجز فاهجر » (المدثر الآيات ١ — ٥) ، إيداننا بأشعار
المسلمين أن هذا الدين جاء لنظافة الظاهر والباطن معا ، ويطول الحديث
لنا ذهبنا نستعرض كل الآيات والأحاديث التي تدعو إلى النظافة بجميع
صورها ولكن يكفي أن نذكر هنا القليل منها مثل قوله تعالى « يا أيها
بنعمة الماء » أفضل أداة للنظافة « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به
ويذهب عنكم رجز الشيطان » (الأنفال الآية ١١) ، والمعجب أن من
مظاهر قياس درجة تحضر الشعوب في عصرنا الحديث هو مقدار استهلاكهم
للماء ، ولا ندري هل هناك شعب أكثر استخداما للماء في أنواع الطهور
المختلفة من المسلمين ؟ انهم يستخدمونه خمس مرات في اليوم عند كل وضوء
لكل صلاة مفروضة ، دع عنك النوافل والسنن ، ويستخدمونه للتطهر
— بالاستحمام الكامل — من الجنابة الصغرى والجنابة الكبرى ،

ويستخدمونه في الاستحمام في كثير من المناسبات التي يدعو اليها الشارع الحكيم ، حتى لقد أحصت كتب الفقه الاسلامي الاسباب الداعية للاستحمام في الاسلام « فوجد انها سبعة موجبة وستة عشر مستحبة اى انها ثلاثة وعشرون سببا » ، ويكفى أن نذكر هنا أن أول خطوة للدخول في الاسلام هى الغسل اى الاستحمام قبل شهادة الا اله الا الله . ويلتزم المسلمون بالاجتماع والالتقاء معا مرة كل اسبوع في صلاة الجمعة وحتى يكون المسلم في هذا اللقاء نظيفا خاليا من الروائح الكريهة والعرق فانه يستحب له الغسل لقول الرسول : « غسل يوم الجمعة واجب والسواك وان يمس من الطيب ما يقدر عليه » ، وقوله : « اذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل » (٤٥) .

ولا يكتفى الاسلام بالاستحمام كسبيل لنظافة الجسم بل انه يامر المسلم بازالة كل ما يمكن أن تتجمع تحته القذارة والميكروبات في جسمه وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خمس من الفطرة : الاستحداد والختان وقص الشارب ونتف الابط وتقليم الاظافر » . وحديث أنس رضى الله عنه قال : « وقت لنا النبي صلى الله عليه وسلم في قص الشارب وتقليم الاظافر ونتف الابط وحلق العانة الا يترك أكثر من أربعين ليلة » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا قام أحدكم من نومه فليغتسل يديه فانت لا تدري أين كانت يدك » ، وقال : « اذا توضأت فخلل أصابع يديك » ، وقال « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » وعندما رأى بعض أصحابه يهمل في نظافة أسنانه حتى اصفر لونها قال لهم : « مالي أراكم تدخلون على قُلح استاكوا رَحِمَكُمُ اللهُ » ، ووجه الى اهمية غسل شعر الرأس وترجيله وعندما دخل عليه رجل شاعر الرأس واللحية فأشار اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغسل شعره واصلاحه ، وعندما رأى مسلما لا ينظف ثوبه لفت نظر أصحابه قائلا : « أما يجد هذا ما يغسل به ثوبه » وذكرهم بقوله تعالى : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » (الامراء الآية ٣١) .

ويحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على توجيه أتباعه الى نظافة الطعام والشراب ومصادر المياه والسكن والشارع فيقول صلى الله عليه

وسلم : « غطوا الاناء وأوكثوا الستاء فان في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بانهاء ليس عليه غطاء أو ستاء ليس عليه وكاء الا نزل فيه من ذلك البواء » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الملاعن الثلاث : البراز في الموارد وفي الظل وفي طريق الناس » ، ودعا الى نظافة المساكن مثل قوله : « نظفوا أفنيكم ولا تشبهوا باليهود التي تجمع الاكباء (الزبالة) في دورها » ، وحرم البصق على الأرض واعتبره خطيئة تؤذى المسلمين وتوجب اللعنة ما لم يزلها فاعلها مثل قوله : « البصاق على الأرض في المسجد خطيئة وكفارتها ردمها » وقوله : « من آذى المسلمين في طريقهم وجبت عليه اللعنة » ، وهكذا اذا ذهبنا نستعرض مبادئ الاسلام الصحية في ميدان الفرد والبيئة لاتضح لنا انها لم تترك شيئا في هذا المجال . . وكيف لا ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرضى لأصحابه اقل من أن يكونوا « المثل الأعلى » بين الناس في النظافة مثل قوله : « أحسنوا رداءكم ، وأصلحوا ركابكم ، حتى تكونوا شامة في الناس » . . . وهكذا انطلق المسلمون تحذوهم تلك المثل العليا الصحية لتربية الانسان النظيف في ذاته وفي مسكنه وطعامه وشرابه وطريقه والبيئة التي يعيش فيها (٤٧) .

٢ - أوامر لمنع الأمراض المعدية : Epidimilogy

فقد اشتملت تعاليم الاسلام الوقائية على عزل المريض بالمرض المعدى وعدم دخوله على الأصحاء ، كذلك أمر الأصحاء بدورهم بالبعد منه حتى يشفى ، وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يورد ممرض على مصح » أى لا يدخل المريض على الأصحاء فينقل اليهم العدوى ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجمل بينك وبين المجذوم قدر رمح أو رمحين » ، وقال : « اذا سمعتم بالبواء بأرض فلا تقدموا عليه ، واذا وقع بأرض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه » وهكذا أدرك المسلمون مبكرا ضرورة « العزل الصحى » وفرقوا بين العزل من العدوى ، والأخذ بأسباب الوقاية وبين التواكل والاهمال تحت دموى عدم الهروب من قضاء الله . ومن تعاليم الاسلام في عيادة المرضى أن يفسل انزائثر يديه قبل الدخول على المريض ، لأن المريض يكون ضعيف المناعة

واكثر قابلية للمعدوى ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من توضأ بماء عذب الوضوء وعاد أخاه المريض بوجهه من النار » (٤٨) .

٣ — أوامر في التغذية : Nutrition

ولا نظن ان هناك ديناً من الأديان قد أسهب في الحديث عن الغذاء المناسب لصحة اتباعه كما فعل الإسلام ، فقد حرص الشارع الحكيم على نوع هذا الغذاء وكيفية تناوله مما يمثل في مجمله قانوناً غذائياً عاماً للمسلمين ، وسنرى ان الطب الاسلامي يعتمد اعتماداً كبيراً على استخدام الغذاء كدواء ووقاية ، فقد حرم الإسلام على المسلم الأطعمة والأشربة المضرّة صحياً مثل الميتة والدم ولحم الخنزير والخمر ... الخ يقول الله تعالى : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ما ذكيت » (المائدة الآية ٣) ، ويحرم تناول الخمر والمخدرات بقوله : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم المداورة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » (المائدة الآيتان ٩٠ ، ٩١) ، ويقول صلى الله عليه وسلم ، « كل شيء أسكر فهو حرام وكل مغيبة حرام » (٤٩) .

وفي الوقت الذي يحرم فيه هذه الأطعمة والأشربة المضرّة صحياً فإنه يشجع اتباعه على تناول الأغذية المفيدة صحياً مثل اللحوم بأنواعها : لحم البر والبحر ومثل المسمل والتمر واللبن والتين والزيتون والفاكهة ... الخ ولو تتبعنا الاشارات القرآنية ، والاحاديث النبوية التي تتناول الأغذية المستحبة لأدركنا ما وراء تلك الأطعمة والأشربة من قيمة غذائية ونكتفى هنا بذكر القليل في هذا الباب مثل قوله تعالى : « والأنعام خلقها لكم فيها دماء ومنافع ومنها تأكلون » (النحل الآية ٦) إشارة الى اللحوم الحيوانية ، وقوله تعالى : « نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائفاً للشاربين » (النحل الآية ٦٦) ، إشارة الى اللبن وقيمه الغذائية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا أعلم ما يجزى من الطعام

والشراب مثل اللبن » ، وعن العسل وأهميته يقول تعالى : « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » (النحل الآية ٦٩) ، ويقول صلى الله عليه وسلم : « العسل شفاء من كل داء » وعن غير ذلك من الأطعمة والمأكلة يقول تعالى : « وأنزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا من طيبات ما رزقناكم » (البقرة الآية ٥٧) ويقول : « وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون » (الواقعة الآيتان ٢٠ ، ٢١) ويقول : « وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون » (الطور الآية ٢٢) ، الى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تتناول أنواعا متعددة من الأطعمة والأشربة الطيبة (٥٠) .

ولا يقتفى الاسلام بذكر الحلال المفيد صحيا والنص على المحرمات المضرة صحيا من ألوان الطعام والشراب بل يشمل توجيهات طبية تنظم تناول الطعام والشراب من حيث موابقته وكميته وطريقة تناوله مثل قوله تعالى : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المرففين » (الإعراف الآية ٣١) ، ومثل قوله صلى الله عليه وسلم : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فان كان لابذ فاملا غلث لطعامه وثلاث لشرابه وثلاث لنفسه » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « اياكم والبطنة فانها مفسدة للدين مورثة للسقم مكسلة عن العبادة » ، وتذكر كتب السيرة كيف كان يتناول الرسول القدوة طعامه بانه : « كان يصغر اللقمة ويجيد مضغ الطعام ولا يلتقم لقمة الا بعد بلع ما سبقها » .

ثم هناك بعد ذلك فريضة « الصيام » بكل ما وراءها من حكم صحية عديدة يدركها الطب الحديث (٥١) .

٤ — أوامر الصحة الجنسية : Sex Hygiene

وسيجب الدارس لهذا الموضوع . . كيف أن الاسلام منذ خمسة عشر قرنا قد قدم لأتباعه « الثقافة الجنسية » الكاملة النظيفة التي تحاول أحدث المدارس التربوية المعاصرة أن تقدمها لطلابها فلا تستطيع ، إذ أن الثقافة الجنسية في الاسلام تأتي في إطار عقائدي سليم ، وآيات وأحاديث لها منزلة القدسية والتبجيل . وسنرى أن الثقافة الجنسية

في الاسلام تتناول أمور الجنس تناولاً شاملاً يشمل تكوين الجنين ونموه ، وكيفية اختيار الزوجة وكيفية المعاشرة الجنسية السليمة وعدم اتیان النساء في الحيض والحث على الزواج وتحريم الزنا واللواط والشذوذ وتحليل الطلاق وتعدد الزوجات في الحالات التي تستدعيها الظروف الطبية والجنسية والانسانية الملحة ، مع أوامر للنظافة الجنسية كالاستحمام بعد الجماع والاستنجاء بعد البول والاستنجاء بعد البول والغائط ... الخ ، وسنكتفي بذكر القليل من تعاليم الاسلام في هذا الشأن (٥٢) .

يقول تعالى في اختيار الزوجة ، وما ينبغي أن يكون بين الزوجين من مودة ومحبة : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة أن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (الروم الآية ٢١) ، ويتص قصة اعجاب ابنة شعيب بموسى عليه السلام لامانته وقوته فتقول لأبيها :

« يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الأمين » (القصص الآية ٢٦) ، فيفهم الأب في الحال لغة القلوب ، فيقول لموسى « انى أريد أن أتحدثك احدى ابنتي هاتين » ويدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أن يرى المسلم المرأة التى يريد أن يتزوجها بنفسه حتى لا يشاجرا بما لا يرضاه بعد الزواج فيقول : « اذا خطب أحدكم المرأة فقدر أن ينظر منها بعض ما يدعو الى نكاحها فليقبل » ، وقال للمغيرة بن شعبة وقد خطب فتاة من الأنصار بدون أن يراها : « اذهب فانظر اليها فانه احرى أن يؤدم بينكما » فإذا كان الزواج أحل الله لهما الاستمتاع كل بالآخر .. فيقول سبحانه وتعالى : « نساءكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » (البقرة الآية ٢٢٣) ، وقوله : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » (البقرة الآية ١٨٧) . الا عند الحيض فان المباشرة مضرّة صحيّا بكل من الزوجين .. يقول الله تعالى : « ويسألونك عن المحيض قل هو اذى فاعزلوا النساء في المحيض ولا يقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » (البقرة الآية ٢٢٢) وينهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يباشر الرجل زوجته دون

أن يسبق ذلك ملاطفة عاطفية وتهديد جنسى بمثل قوله : « لا يقعن أهدكم على امراته كما تقع البهيمة وليكن بينهما رسول ، قيل وما الرسول يا رسول الله ، قال : القبلة والكلام » ، ومن تعاليم الاسلام أن يقرين الرجل لزوجته ، وأن تتزين المرأة لزوجها ، والا ينظر الرجل بشهوة الى غير زوجته ، والا تمتنع المرأة عن زوجها في الفراش ، أو يهجر الرجل زوجته في الفراش الا لتسبب شرمى ، ويكفى أن ينظر الاسلام الى العلاقة الجنسية بين الزوجين على انها عمل مستحب ينالان عليه الاجر من الله ، لترى تلك الصراحة وتلك القداسة التى يعالج بها الاسلام موضوع الجنس في حياة المسلم .

وفى القرآن حديث ممتع عن تطور الجنين مثل قوله تعالى : « أيعسب الانسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والانثى » (القيامة الآيات ٣٦ — ٣٩) ومثل قوله : « ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » . (المؤمنون الآيات ١٣ ، ١٤) وقوله : « وأنه خلق الزوجين الذكر والانثى ، من نطفة اذا تمنى » (النجم الآيات ٤٥ ، ٤٦) وقوله تعالى : « فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » (الطسارق الآيات ٦ — ٨) ... الخ .

ويحرم الاسلام الزنا لما يشيعه في المجتمع من فساد مثل قوله : « ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا » (الاسراء : آية ٣٢) ويحرم اللواط « ولوطا اذ قال لقومه اتأتون الفاحشة ، ما سبقكم بها من احد من العالمين ، انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل انتم قوم مسرفون » (الاعراف : الآيات ٨٠ ، ٨١) الى غير ذلك من الموضوعات التى تكون فيما بينها جسما متماسكا من المعرفة الجنسية السليمة التى تربي المسلم على احترام الجنس وتفهيم أسراره والقيام بأدواره قيساما صحيا نظيفا ، وبذلك يخلو المجتمع من امراض الجنس الناجمة عن (م ٣ — الاعداد التربوى للطبيب)

الاختلاط وإثارة الشهوات كإنتشار البرود ، أو الشذوذ الجنسي والخيانة الزوجية ... الخ مما تمنع به مجتمعات التسيب والرخص (٥٣) .

٥ - أوامر الصحة النفسية والعقلية :

MENTAL AND PSYCHIC HYGENE

ان الاسلام بما يدعو اليه من ايمان وصلة قوية بالله تريح النفس وترضى السقل والشعور ، وما يكونه من علاقات اسلامية بين الافراد والجماعات تجعلهم كالجسد الواحد ، وما يحدثه من تنظيم اقتصادى عادل لا يولد مشاعر الحقد والكراهية بين الافراد ، وما يستثيره من دوافع اخلاقية رفيعة تسمو بالافراد والجماعات ، الاسلام بكل هذه المبادئ والتعاليم يخلق الجو الصحى نفسيا وعقليا ، ويغضى على أكثر ما تعانيه مجتمعاتنا المعاصرة من شعور بالاغتراب ALINATION والاضطراب FURSTRATION والشعور بالعجز POWERLESSNESS وما يصاحب ذلك من عنف وتوتر وجريمة وعرى (٥٤) STRIKERS .

كذلك فان ما فى الاسلام من ذكر ، وصلة بالله ، وشعور برحمته كل ذلك مما يفرى الحياة النفسية لدى المسلم .. يقول تعالى عن الأثر النفسى لتلاوة كتاب الله : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، الا بذكر الله تطمئن القلوب » (الرعد : آية ٢٨) ، ويقول أيضا « أو من كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » (الأنعام : الآية ١٣٢) ، ويدعو الى الصبر والايمان عند المحن والمصائب وعدم السخط والجزع بمثل قوله « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها » (النساء : الآية ٧٨) ، ويفتح الرحمة أمام المخطئين اذا عادوا الى الطريق المستقيم بمثل قوله : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم » (الأحزاب : الآية ٥) ، وقوله : « ومن يعمل سودا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحیما » (النساء : الآية ١١٠) ، ويحذر رسول الله الانسان من أن يلهث فى سبيل الدنيا بطريقة تعرضه للقلق والعذاب النفسى ويثبده بدلا من ذلك الى أهداف وأماق أسسمى وأرجب

بمثل قوله : « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وآتته الدنيا وهي راغمة » ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له » (٥٥) ولقد أدرك المسلمون هذا البعد النفسى فى حياة المسلم وسماه « مرض القلوب » وفى ذلك يقول ابن قيم الجوزية « المرض نوعان : مرض القلوب ، ومرض الأبدان ، وهما مذكوران فى القرآن » (٥٦) ، ثم يضى فى الحديث عن تشخيص المرضين مظهرا علاجهما معا ، ويقول ابن الجوزى فى مقدمة كتاب « الطب الروحانى » : « لما جمعت كتابا فى طب الأبدان وسببته لطلب المنافع أثرت أن أشفعه بكتاب فى طب النفوس أسميته « الطب الروحانى » فان طلب الأبدان إصلاح الصور وطب النفوس إصلاح المعانى وهى أشرف (٥٧) ، وتخلل الكتب الطبية الإسلامية فى عصور الأزدهار الإسلامى بالكتب التى تعالج طب النفوس (٥٨) ، وهو اتجاه أهمله الدراسات الطبية المعاصرة ، يقول أحد الدارسين لهذا الموضوع : « أهملت الدراسة النفسية فى الطب (المعاصر) ، فكل الأمراض سببها حمات رائتسحة ، وجراثيم وطفيليات ، ولكل مرض أمراضة ، وغندا وضعت الأسباب النفسية فى الأمراض ، وقد حدث هذا مؤخرا حيث حشدت الأسباب النفسية من جملة الأمراض — وضعت بشكل مبهم غير محدد أو واضح بخلاف مرض المرض حينما يكون سببه جرثوميا أو فطريا أو طفيليا وهذا خلل بشع فى الدراسة مع اعتراف المؤلفين فى كتاباتهم أن الأسباب النفسية الروحية تلعب دورا هاما فى كل حادث من أحداث البدن » (٥٩) .

« والطب الروحانى » الذى عالج علماءنا المسلمون يختلف فى تصورنا عن العلاج النفسى المعاصر ، لأن الطب الروحانى الإسلامى يعتمد على تقوية علاقة الإنسان بربه وتخليه عن الصفات المذمومة وتحليته بالصفات المحمودة ، ولا شك أن تلك المدرسة الإسلامية فى العلاج النفسى تحتاج فى عصرنا الحديث الى من يطورها ويدعمها بالمزيد من البحوث والدراسات حتى يكون لنا مدرستنا الخاصة بنا فى العلاج النفسى الإسلامى أو الطب الروحانى » (٦٠) .

٦ - أوامر اللياقة البدنية : BODY BUILT

ذلك أن الاسلام ينظر الى المسلم كخليفة الله في الارض ، ومن ثم فهو يطالبه بكثير من الاوامر والتكاليف لعمارة الكون والجهاد في سبيل الله والقيام بواجباته الاسلامية العديدة من صلاة وصيام وزكاة وحج . الخ ، ولا شك أن ذلك كله يتطلب قوة الجسم وصحة البدن ، ولذلك فإن تعاليم الاسلام تحث على ذلك وتدعو اليه . يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف » ، ويشير الله في كتابه الى فضل الرجل القوي في مناسبات عدة فيقول « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » (الفتح : آية ٢٩) ، ويقول : « ان الله اصطفى عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم » (البقرة : آية ٢٤٧) ، وقوله « يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الأمين » (القصص : الآية ٢٦) ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه : « علموا اولادكم الرماية ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا » ، ويقول : « حق الولد على الوالد ان يعلمه الكتابة والسباحة والرمي » ، وحكت عائشة رضى الله عنها « ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد سابقتها وكانت نحيلة خفيفة فسبقتها ثم مرت السنون وكثر شحمها فسابقتها فسبقتها فأخذ يذكرها بالمرءة السابقة ويقول لها : هذه بتلك » . فاذا أضفنا الى ذلك ما في « أداء الحج » من تدريب على المشاق ، وعلمنا انه ركن من اركان الاسلام الخمسة « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » (الحج : آية ٢٧) ، وما يتضمنه الجهاد في سبيل الله من تدريبات بدنية وعسكرية مختلفة يأمر بها الاسلام ويدعو اليها بمثل قوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » (الأنفال : آية ٦٠) ، وقوله : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » (الأنفال : آية ٦٥) لاذنكنا مدى حرص تعاليم الاسلام على اللياقة البدنية .

ثم تأتى الصلوات الخمس اليومية — غير السنن والنوافل — لتحتوى على أنواع متعددة من الرياضات والتمارين الصالحة لكل الأعمار : للأطفال والرجال والنساء على حد سواء ، ولا يكلف أداؤها شيئا ويمكن أن تؤدى فى وقت قصير وبدون أى مساعدة وفى أى لحظة وفى أى مكان ، وهى تمثل تدريبا شاملا للأطراف والعضلات والأجزاء المختلفة للجسم (١١) .

ويحسن أن نختم الحديث عن « الصلاة » بما ذكره صاحب كتاب « الصلاة صحة ووقاية وعلاج » بعد أن قارنها بغيرها من التمرينات الرياضية واليوجا والسورياتمانسكار (نوع مطور من اليوجا) وكيف ان الصلاة تمتاز عن هذا كله بأنها لا تكسب اللياقة البدنية فقط بل تؤدى الى ارتفاع المستوى الروحى والعقلى أيضا فيقول : « ان حركات الصلاة أرق وأخف وتقى بجميع المزايا المطلوبة لأرقى التمرينات الرياضية التى وصل اليها العلم علاوة على المزايا المتعددة من اتباع مقومات الصلاة وتلاوة أم الكتاب فى كل ركعة ثم تلاوة آيات الذكر الحكيم فى الركعات المخددة » (١٢) .

ويطول بنا الحديث لو ذهبنا نتناول أيضا تعاليم الاسلام المتعلقة بالصحة المهنية OCCUPATIONAL-MEDECINE وكيف يعامل الأجير والعامل والخادم معاملة كريمة ، ورعاية المسنين GERIATRICS مسؤولية أكتاوا آباء أو إههات أو جدودا وغيرهم ، ورعاية الأمومة والطفولة MATERNAL AND CHILD HEALTH وما ينبغى أن يؤمر للطفولة والأمومة من رعاية وحب وحنان . وكل ما يمكن استخلاصه من ذلك هو أن تعاليم الاسلام قد أخذت المجتمع الإسلامى منذ نشأته الى طريق الصحة والقوة ، وأيقظت فيه « الوعى الصحى » بأهمية هذه الأمور ، وجعلت من ذلك كله جزءا لا يتجزأ من تعاليم الدين ، فلا غرابة بعد ذلك أن يزداد اهتمام المسلمين بصحة البدن وصحة الروح معا ، ويقبلون على العلوم الطبية ينهلون منها ، ويضيفون اليها ، ويدعمون فيها ، ويصبغوا الرواد فى هذا الميدان طوال العصور الإسلامية الزاهرة .

الاسلام والطب العلاجي :

يعتبر الاسلام بحق اول دين سماوى يحرر التعليم الطبى وممارسة العلاج من الاعتماد على الرقى والتمايم والاحجية وهيئة رجال الدين على علاج المرضى واعتباره حقا من حقوقهم المقدسة ، ولسنا نجد كبير حاجة فى أن نستعرض هنا « التاريخ الطبى » للبشرية لكى نرى الى اى حد سيطرت الكهانة والشعوذة على ميدان الطب العلاجى قبل الاسلام ، وكيف أن العهد القديم كان لا يفرق بين الكاهن والطبيب ، ذلك أن المرضى اصلا ليس الا عقابا على خيانة الانسان لخالقه حيث نقض عهده مع الاله واطاع وعبد معبودات غريبة ، وبسبب خطيئة الانسان كان المرض الذى يحتاج الى طقوس خاصة لشفاء صاحبه ، « ذلك أن الأمراض ليست فى حقيقتها الا رموزا لفضيحة الانسان وعاره ونقضه لوعوده مع الاله ومن ثم وجب تدخل الكاهن » (١٢) ، كذلك نجد أن العهد الجديد يؤكد على أن المريض قد ارتكب ذنبا تدخله شيطان المرض وأنه اذا قوى ايمانه وتاب عن ذنوبه خرج الشيطان من جسده ، وان المسيح قد اورث رجال الدين القدرة على الشفاء . جاء فى انجيل متى (١٠) وفى لوقا (٩ : ٢٠) يقول بولس : « ومن مزيته التى لا يفاضله فيها نبي ولا رسول انه افضى بالقدرة على اتيان المعجزات والشفاء الى تلاميذه ثم جدد منحها لهم بعد قيامه من الموت وصعوده الى السماء واورث كنيسته تلك القدرة ايضا » ، ولذلك اعتقد رجال الكنيسة أن « العلاج » حق من حقوقهم المقدسة ولا يسمح لأحد غيرهم أن يمارس العلاج والا اتهم بالعجل والشعوذة واليسحر ، وكانت الكنيسة تأمر بحرق الأطباء والعلماء احياء أو وضعهم على الخوازيق حتى الموت ، فى الوقت الذى كان العلاج الوحيد الذى تقدمه الكنيسة للمريض يتلخص فى ثلاثة أمور هى : اضاءة الشموع حول المريض لطرد شيطان المرض ، واقامة صلاة الغفران حتى يتخلص من ذنوبه ، ودهن جسده بالزيت « (١٤) .

كانت تلك هى النظرة الى المرض والى طريقة العلاج فى الأديان الأخرى ثم جاء الاسلام لكى يحدث تغييرا كبيرا فى تلك المفاهيم ، ولكى

يؤكد على أن المرض إنما هو ظاهرة غير ضحية ينبغي أن يلتزم لها
العلاج المناسب . « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على مريض
يسوده ، وبعد أن عاده قال لأهل المريض : استدعوا له الطبيب ، قالوا
متعجبين : وانت تقول يا رسول الله ؟ ... قال : نعم ، تداؤوا عباد الله
فإن الله لم ينزل داء إلا أنزل له دواء إلا داء واحد ، قالوا ما هو يا رسول
الله ؟ قال : الهرم » أى كبر السن . . وفى رواية أخرى « جاءت الأعراب
مغالوا ، يا رسول الله أنتداوى ؟ فقال : نعم يا عباد الله ، تداؤوا فإن الله
عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد ، قالوا : ما هو ؟
قال : الهرم » ، وقال صلى الله عليه وسلم يحث على طلب « الدواء » :
« لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ باذن الله عز وجل » ، وفى
رواية أخرى : « إن الله عز وجل لم ينزل داء إلا أنزل له الشفاء : علمه
من علمه وجهله من جهله » (٦٥) . فتأمل حث رسول الله صلى الله عليه
وسلم على العلاج وربط الأسباب (الشفاء) بالمسيبات (طلب الدواء) ،
وتأكيد على أن لكل داء دواء وضرورة البحث عن العلاج الصحيح ،
ويعلق ابن قيم الجوزية على تلك الأحاديث بقوله : « وفى قوله صلى الله
عليه وسلم : لكل داء دواء ، تقوية لنفس المريض والطبيب وحث على
طلب ذلك الدواء والتفتيش عليه ، فإن المريض إذا استشعرت نفسه أن
لدائه دواء يزيله تعلق قلبه بروح الرجاء ويرد من حرارة اليأس وانفتح له
باب الرجاء ، ومتى قويت نفسه ، انبعثت حرارته الفريزية وكان ذلك
سببا لقوة الأرواح النفسانية والطبيعية ، ومتى قويت هذه الأرواح ،
قويت القوى التى هى حاملة لها ، فظهرت المرض ورفضته ، وكذلك الطبيب
إذا علم أن لهذا الداء دواء أمكنه طلبه والتفتيش عليه » (٦٦) .

ويؤكد الرسول لاتباعه على أن طلب العلاج لا ينافى صدق الإيمان
ولذلك عندما سأل أبو خزيمة قائلا : « يا رسول الله ، أرايت رقى
أسترقئها ودواء نتداوى به وثقة نتقيها هل ترد من قضاء الله شيئا ؟
فقال : هى من قدر الله » . وعندما مرض صلى الله عليه وسلم فى آخر
عمره استعان « بالأطباء » تأكيدا لهذا المعنى فى نفوس أصحابه .

روت عائشة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسقم لله آخر عمره فكانت تغد عليه أطباء العرب والمجم فتنتع له الأنعام وكنت أمالجه بها » ، وهكذا أصبح طلب الشفاء عن طريق الدواء سلوكا اسلاميا يلجأ اليه المريض والطبيب معا (١٧) . وإذا كان الاسلام يحث على « طلب الدواء » وجعله من الأسباب الموصلة الى الشفاء فقد حذر من أن يمارس مهنة الطب الا الحاذق بها ، والعارف بالأمراض وعلاجها ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تطيب ولم يعلم مهنة الطب قبل ذلك فهو ضامن » فلا يتصدر لمهنة العلاج الا من اشتهر بذلك وظهر حذقه ، أما اذا أقدم عليها الجاهل فالحق الأذى بالمريض ، فهو في تلك الحالة مسئول عن الضرر الذي أصاب المريض نتيجة للعلاج الخاطئ ، وفي ذلك تحذير للمريض أن يلجأ الى الجاهل أو المحتال الذي يمتنن الطب بدون معرفة أو حذق ، وتحذير للأطباء أن يقدموا على ممارسة المهنة بدون علم وتحجيرة وخبرة (١٨) .

ولا شك أن تلك التعاليم الاسلامية في العلاج كانت نقطة انطلاق انطلق منها العرب من عهد السحر والكهانة والتائم الى عهد الطب والعلاج القائم على الأسباب والمسببات وكانت تلك التعاليم وراء هذا الاقبال على « العلوم الطبية » علما وتعلما ودراسة . وبينما كانت أوروبا المسيحية طوال المصور الوسطى تمارس العلاج بطرقها البدائية التي وصلت أحيانا الى درجة البربرية كان الطب الاسلامي يتقدم في ميدان التشخيص والنفس والتشريح والصيدلة والملاحظة السريرية .. الخ .. ويروى لنا أسامة بن منقذ (١٠٩٥ — ١١٨٨) في مذكراته صورتين نرى أن نوردهما هنا لكي نرى حالة الطب في أوروبا في ذلك الوقت المتأخر ، يذكر أسامة أن عمه أرسل الى المحافظ الأفرنجي لقلعة منيطرة بلبدان بناء على طلبه طبيبه النصراني ثابت ليعالج بعض الأشخاص الذين ألزمهم المرض الفراش ، وبعد عشرة أيام رجع ثابت مقبول بالتهنئة على نجاحه السريع في مداواة مرضاه فقال ردا على التهنئات ، ان الأمر على اى حال لا يدعو اليها فقد قدّموا اليه عند وصوله مريضين ، رجلا يشكو من دملة

فى رجله ، وامرأة مريضة بذات الرئة ، فآخذ فى معالجتهم الأول باستعمال اللبحات والثانية بالغذاء المناسب والادوية ، وكانت صحتها تتقدم بحالة مرضية . واذا بطبيب الفرنجى يتدخل مقرا بان العلاج المتبع لا جدوى منه ، واتجه الى الرجل سائلا اياه : اى الامرين احب اليه ان يموت برجلين ام يعيش برجل واحد ، فأجاب المريض مفضلا الامر الثانى وعلى ذلك استدعى الطبيب الفرنجى فارسا قويا معه فأس وأمر بقطع ساق الرجل بضربة واحدة ولكن الفارس فشل ، وعند الضربة الثانية سال مخ السياقي من العظم ومات الرجل فورا ، ثم وجهه الطبيب الفرنجى التفاته الى المرأة وبعد أن فحصها أعلن أن شيطانها يسكنها ، وأن مكانه فى رأسها ، وأمر بإزالة شحمها وان تعاود تناول الطعام العساذى الذى تتناوله زميلاتنا ، وهو الثوم والزيت ، ولما ساءت حالتها صنع علامة على هيئة صليب فى رأسها بأن شقها شقا عميقا حتى ظهر العظم ، ومرخ فى الجرح ملحاً ، واذا ذاك أسلمت المرأة أيضا روحها ، أما القصة الأخرى فقد رواها أسامة نقلًا عن غليوم دى بورز Guillaume de Bures الذى صاحب أسامة فى سفر من عكا الى طبرية — قال غليوم : « كان عندنا فارس قوى البأس فى بلادنا وأشرف على الموت ، وكملجا أخبر قصيدنا الى قسيس نصراني ذى شأن عظيم لنعهد اليه بالمريض قائلين : تعال معنا لنفحص الفارس فلانا فوافق وبسار معنا ، وكنا نعتقد أنه ما يكاد يضع يده عليه حتى يشفى ، وعندما رأى القسيس المريض قال : احضروا لى شهما ، فأحضرنا بعضنا منه ، فلينه وعمل منه سدادتين مثل عقدة الأسبع ووضع كل واحدة منهما فى كل من فتحتى الأنف فمات عند ذلك ، فصحبنا قائلين : « انه ميت . . » فأجاب القسيس : نعم ، كان يتعذب فسددت أنه حتى يموت ويستريح » (٦٩) .

واذا كنا ندرس اليوم تاريخ الطب الاسلامى ونعجب بكل ما حققه المسلمون فى هذا الميدان ، وكيف أنهم حولوا الطب الى علم يقوم على أسس عقلية سليمة ، واذا كنا نعجب بما ألفه المسلمون فى علم الطب من

مؤلفات حوت تجاربهم في الميدان وتجارب الأمم السابقة وشملت كل فروع الطب الوقائي والطب العلاجي فلا بد أن نتذكر أن الاسلام بتعاليمه كان هو المحرك الكبير لتلك الحركة العلمية والتعليمية الطبية عند المسلمين ، لقد هيات تلك التعاليم العقلية العربية لادراك أهمية الصحة والأسباب الوقائية والعلاجية للأمراض وبذلك استطاعت تلك العقلية أن تستوعب علوم الآخرين الطبية ، واستطاعت أن تضيف عليها ، وأن تبدع ما أبدعت في حقل الطب الاسلامي على النحو الذي سسنراه في صفحات البحث التالية .

« مراجع الفصل الأول ومصادره »

Ethel W. Putney : "Moslem Philosophy of Education" (٢ ، ١)

The Moslem World, 1961, vol 61 pp. 190, 191.

— W. Montgomery watt, Islamic philosophy and theology, Edinburgh University press, 1972.

— Bayard Dodge : Muslim Education in the Medieval Times, The Middle East Institute, Washington, 1962.

— A.S. Tritton : Materials on Muslim Education in the Middle Ages, London, Luzzac Co., 1957.

(٢) محمد جواد رضا . الفكر التربوي الإسلامي مقدمة في أصوله

الاجتماعية والعقلانية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٢١ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٢٥ ، وراجع تفصيل هذا الرأي عنده في

المنشورات من ص ٢١ ، ص ٢٧ .

(٥) راجع الأجزاء من ٨ — ١٠ من موسوعة جواد على . الفصل

في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧١ ، وهي

تعتبر أوفى دراسة عن العرب قبل الإسلام وتقع في عشرة أجزاء خصصت
الأجزاء الثلاثة الأخيرة للعلوم والآداب في الجاهلية .

(٦) راجع ضرورة إعادة تقسيم العصر التاريخي للعالم الإسلامي

في عهد مروخ — تجديد التاريخ في تعليقه وتدوينه ، إعادة النظر في التاريخ

دار الباحث ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ١٦ — ص ٢٣ .

(٧) انظر على سبيل المثال : ابن جماعة . تذكر السامع والمتكلم في

أدب العالم والمستعلم ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٥٣ هـ ، الغزالي أحياء

علوم الدين ، ج ١ ، مرجع سابق ، وطاش كبرى زاده : مفتاح السعادة

ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ،

١٩٦٨ .

- (٨) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٦ .
- (٩) نفس المرجع والمكان .
- (١٠) نفس المرجع ، ص ٩ — ص ١٠ .
- (١١) الباحث : « ديمقراطية التعليم في عصور الازدهار الاسلامي
دروس مستفادة » بحث مقدم الى مؤتمر ديمقراطية التعليم في مصر الذي
عقدته رابطة التربية الحديثة بالتعاون مع صحيفة الاهرام في الفترة من
٤/٢ — ١٩٨٤/٤/٥ ، ص ٨ .
- (١٢) هناك كثير من الدراسات التي توضح تلك النقطة مثل :
— العقاد : التفكير فريضة اسلامية ، دار القلم ، بيروت ، ط ٢ ،
١٩٧١ .
- أحمد محمد الحوفي : القرآن والتفكير ، المجلس الأعلى للشئون
الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .
- عبد الرزاق نونل : القرآن والعلم الحديث ، دار الكتاب العربي ،
بيروت ، ١٩٧٣ .
- عبد الرزاق نونل : الله والعلم الحديث ، دار الشعب ، القاهرة ،
١٩٧٧ .
- عبد الرزاق نونل : الاسلام والعلم الحديث ، دار الشعب ، القاهرة
١٩٧٨ .
- (١٣) محسن عبد الحنيد : حركة التفكير الاجتماعي في القرآن .
مطبعة كاظم ، دبي ، ١٩٨٣ ، ص ٩٥ .
- (١٤) نفس المرجع والمكان .
- (١٥) هلى بن ابي طالب : « نهج البلاغة » شرح الامام محمد مهدي ،
دار المعرفة ، بيروت ، بدون .
- (١٦) محمد شديد : منهج القرآن في التربية ، دار الارقم ، بيروت ،
بدون ، ص ١٠ — ص ١٨ ، وانظر أيضا :

- ابن هشام : السيرة النبوية ، مطبعة صبيح ، ١٣٤٦ هـ ، القاهرة .
— ابن قيم الجوزية : زاد المعاد في هدي خير العباد ، مؤسسة الرسالة ،
بيروت ، ١٩٨١ م .

(١٧) عبيد الحى الكتانى : نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب
الادارية ، دار الكتاب العربى ، ج ١ ، بدون ، ص ٤٢ .

(١٨) نفس المرجع ، ص ٤٤ — ص ٤٧ .

(١٩) نفس المرجع ، ص ٤٧٣ .

(٢٠) نفس المرجع ، ص ٤٧٣ — ٤٨٠ .

(٢١) نفس المرجع ، ص ٤٨ .

(٢٢) نفس المرجع ، ص ٤٠ .

M.A. Shaben : Islamic History, A new Interpretation, (٢٣)
Vol, 1, Cambridge University Press, London, New York, Melbourne,
1971, pp. 50, 51.

(٢٤) عبيد الحى الكتانى : نظام الحكومة النبوية ، مرجع سابق ،
ص ٤٠ ، ص ٤١ .

(٢٥) نفس المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٢٦) نفس المرجع ، ص ٢٩ .

(٢٧) راجع فصل كتاب الرسول وصور من كتبه صلى الله عليه
وسلم ، نفس المرجع ، ص ١١٤ — ص ١٧٢ .

(٢٨) انظر مثلاً : أحمد شلبى : التربية الاسلامية نظمها فلسفتها
تاريخها ، ط ١ ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٤٤ ، ص ٤٥ .
— سمسيد اسماعيل على : معاهد التعليم الاسلامى ، دار الثقافة ،
القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٤ — ص ٥ .

(٢٩) عبيد الحى الكتانى : نظام الحكومة النبوية ، مرجع سابق ،
ص ٤٩ .

- (٣٠) نفس المرجع ، ص ٢٠٢ — ص ٢٠٤ .
- (٣١) ماجسد مرسسان الكيلاني : تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، عمان ، ١٩٧٨ ، ص ٦٨ .
- (٣٢) ملكة أبيض : التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة بالاستناد الى مخطوط تاريخ مدينة دمشق لابن عساکر ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ١٦١ .
- (٣٣) حسين عبيد الله محضر : الجسد في الإدارة المدرسية ، دار الشروق ، جسد ، ١٩٧٨ ، ص ١٦ .
- (٣٤) ملكة أبيض : التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة ، مرجع سابق ، ص ٨٥ ، ص ٨٦ .
- (٣٥) خليل داود الزرو : الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة ، دار الأفاق ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١٩ ، نقلاً عن ابن عساکر ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق صلاح المنجد ، مطبعة المجتمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٥١ ، ج ١ ، ص ٣١٥ .
- (٣٦) نفس المرجع ، ص ٢٠ .
- (٣٧) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، طبعة عبد الرحمن خليفة ، ١٣٤٧ هـ ، القاهرة ، ج ١ ، ص ٦٦ .
- (٣٨) نفس المرجع ، ص ٦٧ .
- (٣٩) عبد الرحمن الحجى : نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي ، دار القلم ، دمشق ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٢٥ — ص ٥٤ .
- (٤٠) ملكة أبيض : التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة ، مرجع سابق ، ص ٨٢ .
- (٤١) نفس المرجع ، ص ٨٣ .
- (٤٢) نفس المرجع ، ص ٨٥ .

- (٤٣) مير فروخ : تجديد التاريخ في تحليله وتدوينه ، اعادة النظر في التاريخ ، مرجع سابق ، ص ٢٥٨ ، ص ٢٥٩ .
- (٤٤) احمد شوقي الفنجري : الطب الوقائى فى الاسلام ، الهيئة المصرية العامة ، القاهرة ، ١٩٨٠ .
- (٤٥) نفس المرجع ، ص ٢١ .
- (٤٦) محمود رجائى المصطيهى وآخرون : « استعمال السلوك لنظامه الفهم وصحته » من ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الاول عن الطب الاسلامى ، مرجع سابق ، ص ٤٠٧ ، ص ٤١١ .
- (٤٧) احمد شوقي الفنجري : الطب الوقائى فى الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١٧ ، ص ٣٤ .
- (٤٨) نفس المرجع ، ص ٣٥ — ص ٤٠ وللمزيد من الاحاديث الواردة فى هذا الباب انظر :
- ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، دار احياء الكتب العربيه ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٢٨ — ص ٢٩ ، ص ٣٤ — ص ٣٥ .
- محمود على البار : العدوى بين الطب وحديث المصطفى ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٩٨١ .
- (٤٩) احمد شوقي الفنجري : الطب الوقائى فى الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٤٢ — ص ٤٦ .
- محمود صدقى : رسالة الطب فى ايام العرب وقوانين الصحة عند المسلمين ، ترجمة حافظ صدقى من الفرنسية ، مطبعة ابو الهول القاهرة ، ١٩١٠ ، ص ٢٢ ، ص ٢٤ .
- محمد عبد الحميد البوشى : الاسلام والطب ، دار النظم ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٤٣ — ص ٦١ .
- (٥٠) احمد شوقي الفنجري : الطب الوقائى فى الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٥١ — ص ٥٣ .

- ٣٣ عبد الهيتند دياب ، أحمد تروتوز : مع الطب في القرآن الكريم ، مؤسسة القرآن ، دمشق ، ١٩٨٠ ، ص ١٢٧ — ص ١٩٩ .
- ٣٤ السيد الجبلى : الاعجاز الطبى في القرآن ، دار التراث العربى ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٦٢ — ص ٨٢ ، ص ١١٠ — ص ١٢٠ .
- (٥١) أحمد شوقى الفنجرى : الطب الوقائى في الاسلام ، مرجع سابق ص ٥٢ — ص ٧١ .
- ٣٥ الحاج محمد وصفى : القرآن والطب ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٢٠٦ — ص ٢٠٨ .
- ٣٦ شوكت الشطى : اللب في الاسلام والطب ، مطبعة جامعة دمشق ، ١٩٥٩ ، ص ٢٥٨ — ص ٢٦١ .
- (٥٢) أحمد شوقى الفنجرى : الطب الوقائى في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١٠٩ — ص ١٥٤ .
- ٣٧ السيد الجبلى : الاعجاز الطبى في القرآن ، مرجع سابق ، ص ٢٤ — ص ٦٠ .
- ٣٨ عبد الحميد دياب ، أحمد تروتوز : مع الطب في القرآن الكريم ، مرجع سابق ، ص ٦٩ — ص ٩٦ .
- (٥٣) D. Radnicla : An Introduction to Man And His Development. New York, Appleton Century Crofer, 1966, pp. 375 — 376 & Herbert W. Armetrong. The Modern Romans, The Decline, of Western Civilization, Ambassador Press, Pasadena, U. S. A. . 1975.
- ٣٩ جمعية الإصلاح والتوجيه الاجتماعى : المجتمع العربى بالوثائق والأرقام ، مطبعة كاظم ، دى ، الامارات العربية المتحدة ، ١٩٨٣ .
- (٥٤) راجع : ميس النورى : الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا « عالم الفكر » ، العدد الاول ، أبريل — يونيو ١٩٧٩ ، سيد صبحى : الشباب وازمة التعبير ، المطبعة التجارية الحديثة ، القاهرة ، ١٩٨٣ .
- Richard D. Aeth, Youth and Changing Secondary School, Hamborg. Unesco institute for Education, 1973, pp 11 — 16.

(٥٥) أحمد شوقي الفنجري : الطب الوقائي في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٧٩ — ص ١٠٨ ، يوسف القرضاوي : الايمان والحياة ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٧٤ — ص ٣٤٩ .

(٥٦) ابن قيم الجوزية : الطب النبوي ، مرجع سابق ، ص ١ ثم تفصيل ذلك من ص ١ — ص ١٨ .

(٥٧) الحافظ ابن الجوزي : الطب الروحاني ، مرجع سابق ص ٥ .

(٥٨) نفس المصدر ، الامام الشيرازي : الطب الروحاني ، مرجع سابق ، ابن حزم الاندلسي : رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الاخلاق والزهد في الرذائل ، مرجع سابق .

(٥٩) خالص جلي كنجو : الطب محراب الايمان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٨ .

(٦٠) من الدراسات الجادة على هذا الطريق .

— سيد محمد عثمان : المسئولية الاجتماعية والشخصية المسلمة دراسة نفسية تربوية ، الانجلو ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

— حسن الشيرقاوي : نحو علم نفس اسلامي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

— عامر ريس محمد النجار : الآراء النفسية لدى صوفية القرن الثالث الهجري في ضوء علم النفس الحديث ، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٠ .

Malik Badri : The Dilema of Psychologists, M.W.H., London Publishers, 1979.

(٦١) أحمد شوقي الفنجري : الطب الوقائي في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٧٣ — ص ٧٨ .

— باقر شريف : النظام التربوي في الاسلام دراسة مقارنة ، دار التعارف للطبوعات ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٩ ، ص ٣٧١ — ص ٤٠٢ ، (م ٤ — الإعداد التربوي للطبيب)

- على القضاى : اخواء على التربية الاسلامية ، دار الانصار ،
القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٣٠ — ص ٣١ .
- (٦٢) محمد زكى سويدان : الصلاة صحة ووقاية وعلاج ، مطابع
شركة الاعلانات الاهلية ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٢٠٦ — ص ٢٠٧ .
- (٦٣) ناجى مورييس : « المفهوم الاسلامى للشفاء » من ابحاث واعمال
المؤتمر العالى الاول عن الطب الاسلامى ، مرجع سابق ، ص ٦٥١ .
- (٦٤) نفس المرجع ، ص ٦٥١ ، ص ٦٥٢ ، احمد شوقى الفنجري :
الطب الوقائى فى الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١٥٦ .
- (٦٥) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، مرجع سابق ، ص ٨ .
- (٦٦) نفس المرجع ، ص ١٢ .
- (٦٧) نفس المرجع ، ص ٨ ، ص ٩ ، احمد شوقى الفنجري :
الطب الوقائى فى الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١٦١ .
- (٦٨) نفس المرجع ، ص ١٠٧ — ص ١١٥ .
- (٦٩) ادوارد ج. براون : الطب العربى ، ترجمة احمد شوقى
همسن ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٩٣ .

الفصل الثاني

الاعداد التربوي للطبيب عند المسلمين

المرحلة الاولى : (التعليم الابتدائي)

Primary Education.

الاعداد التربوى للطبيب عند المسلمين

التعليم الابتدائى :

قبل التحدث عن الاعداد التربوى والمهنى للطبيب عند المسلمين كان من اللازم ان نتعرض اولا للمرحلة الدراسية التى تسبق المرحلة التخصصية وهى مرحلة التعليم الابتدائى (Primary Education) ، وذلك ان التعليم فى تلك المرحلة الابتدائية سوف تنعكس آثاره على التلميذ فى المرحلة الدراسية التالية وتكسب الطالب المسلم الطابع الخاص المميز له كإنسان مسلم اولا ، قبل ان يكون انسانا متخصصا فى حقل الطب ثانيا . ولقد أثر الباحث أن يستخدم هنا مصطلح التعليم الابتدائى لأنه يحمل فى ثناياه إشارة الى الترتيب والى أن هناك مرحلة تالية سيطلق عليها الباحث التعليم الأعلى (Further Education) والتى ستكون هى مرحلة الاعداد التربوى والمهنى للطبيب . غير انه ينبغى الإشارة الى أن تلك المرحلة الابتدائية عند المسلمين لم تكن تعنى بالضرورة أن كل الأطفال الذين تلقوا التعليم الابتدائى ينتقلون الى المرحلة التالية بل أحيانا ، كانت تلك المرحلة تعتبر تعليميا اوليا أساسيا ، (Elementary Education) ينتقل الأطفال بعده الى الحياة العملية والمهنية . أى أن تلك المرحلة كانت مرحلة ابتدائية بالنسبة لبعض الأطفال ذوى الاستعدادات العلمية والمقلية ، وكانت مرحلة منتهية بالنسبة للآخرين ذوى الاتجاهات العملية والمهنية (١) .

ورغم أن الدراسة الحالية ليست المكان المناسب لعرض تربية الطفل عند المسلمين منذ ولادته وحتى دخوله مرحلة التعليم ، إلا أنه ينبغى أن نذكر هنا أن أدبيات التربية الإسلامية لم تهمل طفل ما قبل التعليم بل اهتمت به فى جميع مراحل نموه : اهتمت به وليدا ، وتناولت كل ما يتعلق بغذائه رضيعا ، ونومه ، ورضاعته وفطامه ، ونظافته ، واستحمامه

وربما ضته ثم تناولت مرحلة طفولته المبكرة وكل ما يتعلق بهما من رعاية أخلاقية وبدنية ووجدانية ، والذي يطالع ما كتبه المسلمون عن طفل ما قبل التعليم ، يدهش كيف اتهمت التربية الإسلامية بعد ذلك أنها تربية تتجاهل الطفل في سنواته الأولى ولا تتحدث عنه ولعل في مراجعته بعض كتب التراث التربوي ما يوضح للدارسين مدى احتفال المسلمين بطفل ما قبل التعليم (٢) .

وعندما نركز هنا على « التعليم الابتدائي » كمرحلة أولى في إعداد الطبيب نحب أن نلفت النظر منذ البداية أن هذا التعليم الابتدائي لم يكن نظاما مغلقا Closed System معلوم البداية محدد النهاية ، ولم يكن محصورا في مؤسسة تعليمية واحدة أو سن دراسية محددة . بل كانت تلك المرحلة مثلها مثل المرحلة القادمة نظاما مفتوحا Open System يقبل عليه الطالب عندما يشاء وينتهي منه عندما يشعر ويشعر أساتذته معه أنه أهل لذلك (٣) . وقد يقضى تلك المرحلة في « الكتاب » أو ينتهى منها على يد مؤدب يحضر اليه في منزله وقد تتسع مواد الدراسة وقد تضيق وقد تطول مدة الدراسة وقد تقصر كل ذلك حسب ظروف الطالب واستعداداته . ومن ثم فانه من الخطأ أن يحاول بعض الدارسين أن يطبق أشكال « النظم المخلقة » على « التعليم الإسلامي » وستلقى هنا نظرات سريعة على تلك المرحلة الابتدائية تبين طبيعتها ومحتواها وأهدافها ووسائلها لتحقيق تلك الأهداف .

١ — مؤسسات التعليم الابتدائي :

سبق أن ذكرنا في الفصل الأول من تلك الدراسة — أن المسلمين قد عرفوا « المكاتب » أو « الكتاتيب » لتعليم القرآن قراءة وكتابة منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كما يرى الباحث — وهو رأى ما زال يحتاج الى مزيد من الأدلة والتدعيم — ولكن الذى لا شك فيه أنهم قد عرفوا هذا « الكتاب » في عهد عمر بن الخطاب على الأقل . يقول — ابن حزم : « ثم مات أبو بكر وولى عمر ففتحت بلاد الفرس طولا وعرضا وفتحت الشام والجزيرة ومصر كلها ولم يبق بلد الا وبُنيت فيه المساجد

ونسخت فيه المصاحف وقرأ الأئمة القرآن وعلمه الصبيان في المكاتب شرقا وغربا « (٤) . اذ من الطبيعي أن يهتم المسلمون بكتاب الله قراءة وكتابة ويتخذونه محورا لتعليم أطفالهم منذ بداية الدعوة .

ويقف الدارسون للتربية الاسلامية طويلا امام المكان الذي كان يوجد به « الكتاب » هل كان بالمسجد ؟ أم كان مستقلا ؟ ويميل أكثرهم الى أن « الكتاب » قد بدأ في المسجد ثم صار بعد ذلك مستقلا ، ويرون أن استقلال الكتاب عن المساجد كان بسبب عبث الصبيان الذين لا يتحفظون من النجاسة مما جعل الفقهاء يمنعون تعليم الصبيان في المسجد ويأمرون المعلمين أن يتخذوا لهم أماكن منفصلة عن المساجد لتعليم الصبيان (٥) « يقول أحمد شلبي : « وردت توصيات كثيرة بالا يكون الكتاب في المسجد ، ومن ذلك ما قاله الامام مالك حينما سئل عن ذلك « لا أرى ذلك يجوز لأن الأطفال لا يتحفظون من النجاسة » وقد ورد في كتب السنة ما يؤيد ذلك فقد نصت على انه « لا يجوز تعليم الأطفال في المسجد لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتنزية المساجد من الصبيان والمجانين لأنهم يمسودون جيطانها ولا يحرزون من النجاسات بل يتخذ لتعليمهم حوانيت في الدروب ، وأطراف الأسواق » (٦) . ورغم ما قاله الفقهاء فان هناك شواهد تاريخية كثيرة تؤكد أن « الكتاب » ظل أحيانا كثيرة في المسجد . والذي يقرأ رحلة ابن جبير ، ورحلة ابن بطوطة يجد ذكر الكثير من الحلقات التي التفت فيها الأطفال في المسجد حول معلم القرآن ، وقد ذكر ابن حوقل أمثلة أخرى لهذا النوع (٧) . ويعتبر أحمد شلبي هذا تجاهلا لتوصيات الرسول وتحذيرات الفقهاء ورجال السنة (٨) . فكيف كان ذلك ؟ المتأمل في الأمر يجد أن الكتاب ظل طوال المصور الاسلامية وحتى عصرنا الحديث غير مقتصر على مكان واحد ، فقد وجد مستقلا في الغالب ولكن وجد في « المسجد » أحيانا أخرى ، ولم يكن في ذلك اهمال لتوصيات الرسول أو تحذيرات الفقهاء ورجال السنة ، ذلك أن الأطفال لهم مكانهم في المسجد عند أداء الصلاة خلف صفوف الرجال مباشرة وقبل صفوف النساء ، مما يدل على أن وجود كتاب لهم بالمسجد لم يكن بالأمر المكروه دينيا في حد

ذاته ، وانما تأتى الكراهة لأسباب أخرى مثل : هل يأخذ المعلم اجرا على تعليمه أم لا ؟ وهل يقتصر على تعليم القرآن أم يضم الى ذلك موضوعات أخرى ؟ وكم عدد الاطفال فى كل حلقة ؟ وما هو الوقت الضرورى لأداء هذا العمل التعليمى ؟ وما هو عمر الطلاب الذين يحضرون الكتاب ؟ الى غير ذلك من الاسباب التربوية التى قد تجعل من المستحسن أن يوجد الكتاب خارج المسجد لمصلحة الاطفال التعليمية والتربوية .

ويبدو أن عدد الكتاتيب قد ازداد زيادة سريعة وضخمة حتى أصبح بكل قرية كتاب بل ربما وجد بالقرية الواحدة أكثر من كتاب . وقد ذكر ابن حوقل أنه مد حوالى ٣٠٠ معلم كتاب فى مدينة واحدة هى مدينة بلرم فى صقلية (٩) . ولا شك أن تلك الزيادة تعكس الطلب الجماهيرى على التعليم من ناحية ، وما أتيج لهذا الطلب الجماهيرى من وسائل الاشباع من ناحية أخرى . فقد أوجب الاسلام على الآباء أن يعلموا أولادهم اذا كانوا قادرين على ذلك (١٠) ، وفى حالة عدم القدرة تحفصل كتب التراجم باسماء اساتذة علموا الطلاب مجانا ، وطلاب تعلموا من الأوقاف التى كان يجبسها المحسنون من محبى العلم والمعرفة بجوار ما كان يسود المجتمع الاسلامى من شعور بالتكافل الاجتماعى بين أفرادهم ، مما أتاح لكثير من الطلاب أن يتعلموا على نفقة صديق أو قريب أو جار . . الخ . كذلك وجدت مكاتب للإيتام والفقراء خاصة لرعاية شئونهم وتقديم « المعاليم النقدية والعينية » لهم ولؤدبيهم (١١) ، وأقبل الحكام وغيرهم على انشاء تلك الكتاتيب للفقراء ، وغير القادرين حتى أن المنتصر قام بإنشاء ٢٧ مكتبا فى قرطبة وحدها لتوفير التعليم المجانى لأبناء الفقراء وأوقف جوانيت السراجين ليدفع منها مرتبات المعلمين (١٢) .

بجوار هذه الكتاتيب الموجودة فى المسجد أو بجواره أحيانا والمستقلة أحيانا أخرى ، وتلك المكاتب العامة التى يدمع أولياء الطلاب أجر تعليم أولادهم فيها وتلك التى لا يدفع الطلاب الايتام أو الفقراء نرى شواهد كثيرة على أن هذا التعليم الابتدائى كان يتم أحيانا فى المنازل على ايدى المعلمين الخصوصيين يحضرهم الآباء من أهل اليسار لتعليم أولادهم

وتأديبهم . يقول ابن سينا « وأحضرت معلم القرآن وجعلم الأدب وأكملت
العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كاد يقضى
منى العجب » (١٣) . وسنرى أن ابن سينا لم يؤيد مثل هذا التعليم
الخصوصى وفضل عليه أن يكون التعليم فى تلك المرحلة « تعليميا جماعيا »
غير خصوصى ، ونصح بضرورة تربية الطفل مع غيره لما فى ذلك من فوائد
تربوية تعود على الطفل . يقول ابن سينا « وينبغى أن يكون مع الصبى فى
مكتبه صبية من أولاد الجلة (العظام أو السادة) حسنة آدابهم مرضية
عاداتهم فإن الصبى عن الصبى القن وهو عنه آخذ وبه آئس — وانفراد
الصبى الواحد بالمؤدب أجلب الأشياء لضجرهما ، فإذا راوح المؤدب بين
الصبى والصبى كان ذلك انفى للسامة وأبقى للنشاط وأحرص للصبى على
التعليم والتخرج فإنه يباهى الصبيان ، والمحادثة تفيد انشراح العقل
وتحل منعقد الفهم لأن كل واحد من أولئك إنما يتحدث بأعذب ما رأى
وأغرب ما سمع فتكون غرابة الحديث سببا للتعجب منه والتعجب منه
سببا لحفظة وداعيا الى التحدث به . ثم أنهم يترافقون ويتعاوضون
الزيارة ويتكلمون ويتعارضون الحقوق ، وكل ذلك من اسباب المجازاة
والمباهاة والمساجلة والمحاكاة وفى ذلك تهذيب لأخلاقهم وتحريك لفهمهم
وتبرين لعاداتهم » (١٤) .

وهكذا تعددت أماكن التعليم الابتدائى فهو يتم فى كتاب ملحق بالمسجد
أحيانا أو مستقل أحيانا أخرى ، وقد يتم فى المنازل عن طريق معلم أو
مؤدب خصوصى ، وقد يكون فى مؤسسات ذات مصروفات أو أخرى
مجانية ، كل ذلك وفق ظروف الطالب وظروف المجتمع الذى يعيش فيه .

اهداف التعليم الابتدائى :

لعل أهم ما يميز التعليم الإسلامى بصفة عامة هو اختلاف هدفه
عن غيره من النظم التربوية ، وهو اختلاف قلما يدرك الدارسون أهميته .
فإذا كانت النظم التعليمية تتفق على هدف واحد هو اغداز المواطن
الصالح ، وإذا كان لكل أمة ولكل مذهب فلسفى تحديد لما هو « المواطن
الصالح » فإن هدف التعليم الإسلامى يتجاوز حدود المواطنة ليعتد الإنسان

الصالح الذي تعتبر المواطنة بكل متطلباتها مجرد بعد من أبعاده . ان التربية الاسلامية « تستهدف أولا غرس البعد العقائدى لدى الفرد . وهذا البعد العقائدى هو الأساس الذى ستبنى عليه التربية الاسلامية فيها بعد كافة الأبعاد الأخرى من عبادات وأخلاق ونظم سياسية واقتصادية وعسكرية وصحية » . الخ ، والذين لا يدركون مقدار أثر هذا البعد العقائدى على التربية يخطئون أحيانا وهم يظنون أن الهدف من التعليم الابتدائى فى الاسلام كان هدفا دينيا بحتا ولا علاقة له بالدنيا وعمارته . بل أن بعضهم قد ذهب الى أن التربية الاسلامية من خلال حديثه عن الغزالي إنما « هى تربية للأخرة وليست للدنيا ، تربية لمجتمع لا يتغير الا الى أسوأ ولا يسير الا الى الوراء ، وهو مجتمع لا يسيطر على نفسه ولا يوجه ذاته بقدر ما يخضع لسيطرة وتوجيه قوة خارجية عنه . . الله . . الذى خلقه ويسيطر عليه سيطرة مطلقة ، ومن ثم فهو مجتمع لا هدف له الا أن يقيم دين الله ، بأن يهيئ الفرصة لعبيده لممارسة شعائر الدين » (١٥) . وكان الهدف من إقامة « دين الله » مجرد ممارسة « الشعائر الدينية » أو العبادات بالمعنى الدينى الضيق . ونسى هؤلاء الدارسون أو لعلهم يجهلون أن إقامة دين الله يشمل كل جوانب الحياة الانسانية ، كذلك فإن الخضوع لله ليس مجرد خضوع أعمى لسلطة « خارجية مطلقة » بل هو خضوع عاقل يحرر الانسان من جميع السلطات التى تريد ان تستبد به على الأرض .

وإذا كانت أدبيات التربية الاسلامية تركز على ضرورة الاهتمام بهذا الجانب العقائدى فى تلك المرحلة وكل ما يتصل بتدعيم الإيمان وتقويته فى نفس الطفل فذلك لأن هذا هو الأصل الذى تبنى عليه سائر الفروع والتكاليف الاسلامية . ويشمل هذا الهدف العقائدى مساحة واسعة من اهتمام الفكر التربوى الإسلامى فى تلك المرحلة بالذات . بل وسيظل من أهداف المرحلة التالية أيضا على ما سنبين فيما بعد . ان أعداد الانسان « العابد » لله بالمعنى الإسلامى الواسع للعبادة ، الذى يشمل كل تصرفات الانسان وسلوكه وأقواله فى تلك الحياة هو الهدف الأسمى للتربية الاسلامية (١٦) .

وسوف ينعكس ذلك على منهج تلك المرحلة من حيث المستوى ودرجة الاهتمام بكل موضوع دراسي ، وعلاقة المعلم بطلابه وعلاقته بالآباء والمجتمع والسلطة ... الخ .

مناهج التعليم الابتدائي :

سبق ان ذكرنا ان التعليم الابتدائي كان يتم في أماكن متعددة اما داخل المسجد او في الكتائب او في المنازل والقصور ، وطبيعى ان يختلف المنهج اتساعا وضيقا باختلاف نوعية المؤسسة وباختلاف الاهداف الخاصة من هذا التعليم . ولما كانت طبيعة التعليم الاسلامى كما سبق ان ذكرنا تعليميا مفتوحا (Open system) فمن الخطأ أصلا ان يصر الدارسون لهذا التعليم على وضع مراحل دراسية محددة له ، ووضع مناهج محددة لكل مرحلة بل وربما وضع نظم امتحانات . والذي يقرأ في ادبيات التربية الاسلامية يتأكد له أنه لم توجد تلك التقسيمات العصرية الى مراحل تعليمية ولم توجد المتطلبات الدراسية لكل مرحلة . ولكن الطالب كان يقبل على العلم في تلك المرحلة ليأخذ منه على قدر استعدادده وما يريد له ولى أمره في المستقبل . فهو اذن نظام تعليمى مفتوح يقوم على حرية الطالب وحرية أولياء الأمور في اختيار ما يريدون من دراسات وما يريدون من تعليم أعلى أو مجرد تعليم أولى يكسب الانسان « شخصيته الاسلامية » ثم يتجه بعد ذلك الى حرفة أو مهنة . ولذلك فان ادبيات التربية الاسلامية تذكر موضوعات عديدة يمكن دراستها في تلك المرحلة مثل حفظ القرآن ، وبعض الأحاديث ، وتعلم الكتابة ومبادئ النحو والحساب والشعر والتاريخ والقصص ... الخ . وتترك للطالب حرية ان يدرس منها ما يشاء من موضوعات .

ولا شك ان موضوع « تعلم القرآن قراءة وكتابة » كان هو الموضوع المحورى في هذا التعليم مهما كانت المؤسسة التى تقدمه ، ومهما كانت طبيعة المرحلة التعليمية القادمة . فمسواء اتجه الطالب فيما بعد الى الدراسات الأدبية ، أو الدراسات الدينية أو الدراسات العلمية أو اتجه اتجاهها مهنيا أو حرفيا . الخ فان حفظ القرآن وتعلمه قراءة وكتابة كان

شعائر التعليم الاسلامي واهم سماته على الاطلاق . ولم يقبل المسلمون على تعليم القرآن بحماس ديني يفتقد المبررات العقلية والاسس الاجتماعية بل كان اقبالهم على ذلك بناء على ادراك سليم بأن حفظ القرآن في تلك المرحلة يكسب الطفل الطابع الاسلامي الاصيل . يقول احمد فؤاد الالهواني : « وكان حفظ القرآن او حفظ ذلك القدر اليسير منه كافيا في طبع البناء على التربية الاسلامية الصحيحة ، فالقرآن ديوان المسلمين فيه جوهر العقيدة وفيه تفصيل العبادات وفيه ارشاد للسلوك الفاضل والطريق المستقيم » (١٧) . ويوضح ابن خلدون ذلك بقوله : « اعلم ان تعلم الولدان للقرآن شعار الدين اخذ به اهل الملة ودرجوا عليه في جميع امصارهم لما يسبق منه الى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الحديث . وصار القرآن اصل التعليم الذي تبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات وسبب ذلك ان التعليم في الصغر اشد رسوخا وهو اصل مايمده ... لان السابق الاول للقلوب كالاساس للملكات وعلى حسب الاساس واساليبه يكون ما يبنى عليه » (١٨) . لذلك حرص المسلمون حرصا بالغا على ان يبدأ الطفل بحفظ القرآن وخشوا ان ينشغل بأي موضوع آخر ، او ينصرف عن التعليم كلية دون ان يحفظ جزءا مناسباً منه . يقول ابن خلدون : « ووجه ما اقتصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن ايثارا للتبرك والثواب وخشية ما يعرض للولد في جنون الضمير من الآفات والقواطع عن العلم فينفوته القرآن ، لانه ما دام في الحجر — لم يصل الى سن البلوغ — منقاد للحكم ، فاذا تجاوز البلوغ وانحل من ربة القهر فربما عصفت به رياح الشبهة فالفقه بساحل البطالة — عدم التعليم — فيفتنمون في زمان الحجر وربة الحكم تحصيل القرآن لئلا يذهب خلوا منه » (١٩) . والذين يحاربون « حفظ القرآن » من رجال التربية المعاصرين في تلك المرحلة يدعوى عدم ادراك الطفل لمعانى القرآن ، او حتى عدم جدوى حفظه في تلك المرحلة المبكرة (٢٠) ، لا يدركون ظروف المجتمع الاسلامي الثقافية التي جعلت من حفظ القرآن اهم الموضوعات على الاطلاق ، كذلك فانهم للأسف نادرا ما يدركون ما يمثله حفظ القرآن

بالنسبة للمتعلم ، اذ ان حفظه في صفه سيده فيما بعد بالنبع الثقافي الثرى الذى سيستمد منه ثوابه ، وأدلة على ما سيصادف من مشكلات عقلية وفكرية .

وبجوار تعليم القرآن الذى هو محور المنهج الإسلامى فى تلك المرحلة تعتبر العبادات الإسلامية محورا آخر من هذا المنهج . فالطفل لابد أن يتعلم كيف يؤدي ما كلف به من عبادات ، وعلى المعلم مراعاة ذلك فيعلم الأولاد الصلاة والوضوء لها وآدابها وأحكامها ويديهم على الصيام عندما يطيقون ويأمرهم بالصلاة اذا كانوا بنى سبع سنين ويضربهم عليها اذا كانوا بنى عشر (٢١) ، ويراقب أحوالهم فى آدابهم وهديمهم وأخلاقهم باطنا وظاهرا فمن صدر منه من ذلك ما لا يطيق عالجه المعلم بما يتناسب من تأديب أو زجر أو لوم أو عقاب (٢٢) .

ثم يأتى بعد ذلك ضرورة أن يتعلم الطفل الكتابة والأدب ومبادئ النحو والحساب والحديث والتاريخ والسير ، ويؤكد المربون المسلمون على ضرورة اختيار الأشعار السهلة التى قيلت فى فضل الأدب ومدح العلم وذم الجهل وما حث على بر الوالدين واصطناع المعروف (٢٣) وأن نبعد عن الطفل أشعار الهزل والمجون فانها تغرس فى نفوس الأطفال بذور الفساد (٢٤) ، وكذا الأشعار التى فيها ذكر الحمية والخنا أو قبح الهجاء (٢٥) ، فالهدف الأخلاقى منها واضح فى اختيار النصوص بجوار الهدف الأدبى الذى يتمثل فى اكتساب الطفل ملكة اللغة ، واستخدام تلك الأشعار للاستشهاد بها فيما يريد بيانه (٢٦) ، أما سيرة الرسول والصحابة وأحاديث الأخيار وحكايات الأبرار وأحوالهم فهى تغرس فى نفس الطفل حب الصالحين ومحاولة تقليدهم (٢٧) ، يقول الأهواى : « وسيرة الرسول هى قدوة المسلمين كما قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، وقال : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » لذلك كان تعليم سيرة الرسول ذات فائدة خلقية عظيمة لأنه يضرب الأمثال للصبيان فى الأخلاق الفاضلة وكذلك تاريخ العرب وهو المعروف بأيام العرب وأخبارهم والذي نص عليه القاسمى

وغير القابض من المربين مع المواد التى يتعلمها الصبيان انما الغرض منه سوق العبر الفاضلة والعظات الخلقية التى يقتدى بها الصبيان (٢٨) .

والذى لا شك فيه ان الطفل المسلم لم يكن مجبوراً على ان يدرس كل هذه العلوم والمعارف بل كان ينال منها ما يستطيع ان يحصله ، واذا استثنينا حفظ القرآن وتعلم الكتابة والعبادات الاسلامية فهناك ما يؤكد ان الطفل المسلم كان يأخذ من المواد الاخرى وفق اختياره ، ولم تذكر أدبيات التربية الاسلامية انها كانت جميعاً اجبارية ، وعلى سبيل المثال فان المحدثين والفقهاء كانوا يرون ان الركن الاساسى فى التعليم الابتدائى هو تعلم القرآن وكانوا يكتفون به كشرط لقبول الطلاب فى حلقاتهم (التسليم الاعلى) .

وعندما كان الازاعى يرى حدثاً بين الجالسين فى حلقة كان يقول له : يا غلام : هل قرأت القرآن ؟ فان قال نعم ، اختبر حفظه ، فان تبين له انه لا يعرف القرآن قال له : اذهب تعلم القرآن قبل ان تطلب العلم (٢٩) . واذا كان الفقهاء والمحدثون قد اكتفوا بذلك فعمل الابداء والاطباء والحكماء .. الخ لم يكتفوا به ، بل من الطبيعى ان يفضل الابداء من حصل حفظاً من الادب والشعر ، وان يتطلب الأطباء والحكماء دراية اكبر بالحساب .. الخ ، ومن ثم فان المنهج كان يضيق ويتسع وفق ارادة الطالب وولى أمره وما يراه المعلم من استعدادات لدى الطفل . وليس بصحيح ما ذهب اليه محمد جواد رضا من ان منهج هذه المرحلة كان واحداً لجميع الأطفال فى العصر الاسلامى الاول ثم أصبح مختلفاً بعد ذلك فى العصر الاموى والعصر العباسى بصورة خاصة وذلك بسبب ظهور التمايز الطبقي فى التعليم ، حيث ظهر بسبب هذا التمايز الطبقي مناهج متعددة فى تلك المرحلة : فهناك منهج الكتاتيب التى تضم أبناء الطبقات المتوسطة وسواد الشعب ، ويقتصر على تعليم القراءة والكتابة والحساب وبعض الشعر ، وهناك منهج التعليم المخصوص فى المنازل والقصور الذى يتمتع به أبناء الأمراء والأغنياء والوزراء ، ويتسع هذا المنهج ليشمل الادب والحكمة والتفسير والكلام والشعر والتاريخ والمنطق

والفلسفة ، ثم هناك منهج تعليم الطبقات الحاكمة أبناء الخلفاء وولاية العهد الذى يشمل الاطلاع الواسع فى الثقافة العربية والاسلامية وآدابها وكلام الملوك والحكماء وعلوم الامم السالفة ، وقد تميز منهج تلك الفئة كما يذكر الباحث بدرجة عالية من التعقيد من حيث المحتوى والهدف نظرا للمسئوليات الاجتماعية والسياسية التى كان يهيا لها هذا النوع من الطلاب (٣٠) . والاقرب الى الواقع التاريخى لتطور الثقافة الاسلامية الا ننسب تعدد المناهج فى تلك المرحلة الى « التمايز الطبقي » وما يقترن به من عوامل اقتصادية ، بل ان نرجع ذلك الى ازدهار العلوم والمعارف الاسلامية ، وما اقترن بذلك من ضرورة الاخذ ببدا التخصص العلمى والتربوى ، ونظرة واحدة الى كتاب مثل مفتاح السعادة ومضباح السيادة لطائى كبرى زادة ، او الفهرست لابن النديم او كشف الظنون على اسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة ترينا مقدار ما وصلت اليه الثقافة الاسلامية من تعدد العلوم والمعارف فى تلك المصور بحيث أصبح من المحال أن يلم الطالب بكل هذه العلوم والمعارف ، وأصبح من الضرورى أن يتخصص الطالب فى فرع أو أكثر من فروع العلم الاسلامى (٣١) . ومن هنا ظهرت الاتجاهات والمدارس التربوية المختلفة فهناك الاتجاه الفقهي فى التربية ، وهناك الاتجاه الفلسفى والاتجاه الصوفى ، والاتجاه الأدبى ، والاتجاه المهنى والفنى ، وطبيعى أن يختلف اعداد الأديب عن اعداد الطبيب عن اعداد الفقيه . الخ ، وطبيعى أن يؤثر ذلك الاختلاف على اختصار موضوعات المرحلة الابتدائية كما سبق أن ذكرنا . نعم ، نحن لا ننكر أن العامل الاقتصادى والاجتماعى قد لعب دورا فى إتاحة الفرص التعليمية الأمثل لذوى الاستعدادات العلمية والعقلية من أبناء ذوى السلطة أو الثروة ، ولكن « كتب التراجم » تظهر أن أعلام الثقافة الاسلامية لم يكونوا فى الغالب من أبناء الملوك والوزراء والحكام أو حتى من أبناء ذوى الثروة والمكانة ، بل كانت الغالبية العظمى منهم من أبناء الطبقات المتوسطة وسواد الشعب التى زعم محمد جواد رضا أنها حرمت من التعليم العلى فى محتواه وهدفه ومناهجه .

ويذكر لنا ابن خلدون سببا آخر لاختلاف المنهج فى تلك المرحلة ويمثل

هذا السبب في اختلاف الاقطار الاسلامية في نظرتها الى طبيعة المنهج ، والموضيوعات التي تستحق التركيز : « اما اهل المغرب فمذهبهم في الوجدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط واخذهم في اثناء الدراسة بالرسم ومبائله واختلاف حملة القرآن فيه ولا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعلمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من كلام العرب الى ان يحذف فيه » بينما اهل الاندلس « يضيفون الى ذلك رواية الشعر والترسل (النثر) وقوانين العربية وحفظها (النحو) وتجويد الخط والكتابة ، ويهتم اهل افريقية بتعليم شيء من الحديث في الغالب بجوار تعليم القرآن » (٢٢) ، وهكذا اختلف محتوى المنهج باختلاف الامصار ، واختلاف التوجيه التربوي والمهني للطلاب .

طريقة التدريس :

راينا كيف يمثل القرآن وحفظه ، الموضوع الاول للتعليم في تلك المرحلة . وكان التلاميذ قبل تعلمهم للقراءة سواء في الكتاب او المنزل ، يبدأون بحفظ البسور القصيرة بطريقة التلقين والتكرار ، فالمعلم يقرأ البسورة آية آية قراءة سليمة ، والطفل يردد وراءه ، ويكرر المعلم ذلك مرات كثيرة حتى يحفظ الطفل (٢٣) ، وكانت تلك القراءة تتم بطريقة جهرية حتى يتأكد المعلم من ان الطفل قد حفظ الآيات حفظا مضبوطا صحيحا ، وكذلك لان الجهر « يوقظ القارئ ويجمع همه الى الفكر ويصرف سماعه اليه ويطرد النوم ويزيد في النشاط » (٢٤) ، وينبه علماء التربية المسلمون الى ضرورة ان تتم عملية التجفيف بصورة فردية ، لان اجتماع الأطفال على القراءة يخفى على المعلم قوى الحفظ من الضعيف (٢٥) ، والقراءة الفردية تلاحظ تلك الفروق وترعاها ، كذلك فان اختبار مقدار حفظ الأطفال ينبغي أن يتم بصورة فردية ، وذلك بأن يختبر المعلم كل طفل في مقدار حفظه ليعلم مقدار ما أصابه الطفل من حفظ أو نقص (٢٦) ، وبذلك كان كل طفل يجد الرعاية التربوية المناسبة له .

وعلى ضوء تلك « المتابعة الفردية » كانت تختلف الواجبات الدراسية لكل طفل من حيث عدد الآيات المكلف بحفظها كل يوم ، وعدد مرات كتابة اللوح ... الخ .

ثم تأتي مرحلة يطلب من الطفل أن يتعلم الكتابة ، ويظن بعض الدارسين أن الأطفال كانوا يتعلمون الكتابة عن طريق كتابة الحزب الذى سيحفظه فى اللوح الخاص به (٣٧) ، ولكن أدبيات التربية الإسلامية تذكر لنا طريقتين من طرق تعلم الكتابة ، الطريقة الأولى باستخدام ما يسمى برسم المصحف . وغاية تلك الطريقة : حفظ المصاحف الكريمة عن مخالفة المصحف الامام ، ذلك أن المسلمين كانوا يصرون على عدم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو أو الف أو غير ذلك ، كذلك « فإن القرآن لابد أن يكتب مفرجا بأحسن خط ولا يصغر ولا تقرمط حروفه ولا يخلط به ما ليس منه » (٣٨) . أى أن تعليم الكتابة حسب تلك الطريقة كان يتم باستخدام « النص القرآنى » مع المحافظة على رسم المصحف من ناحية ، وتجويد الخط وتحسينه من ناحية أخرى .

وبجوار تعليم الكتابة عن طريق « النص القرآنى » أو رسم المصحف اشارت أدبيات التربية الإسلامية الى طريقة أخرى تستخدم الأدب لتعليم الكتابة ، ولقد لمت أعلام فى تعليم الخط وتحسينه فى أواخر خلافة بنى أمية وأوائل خلافة بنى العباس مثل أبى على محمد بن على بن حسن بن مثله الوزير (ت ٣٢٨) الذى قيل عنه أنه « أول من كتب الخط البديع » ثم ظهر فى سنة (٤١٣) صاحب الخط البديع على بن هلال بن البواب البغدady الذى قيل عنه أنه « لم يوجد فى المتقدمين ولا فى المتأخرين من كتب مثله ولا قاربه » وصنف حذاق الخطاطين رسائل كثيرة فى طرق تحسين الخط مثل رسالة ياقوت المستعصى وما أورده القلقشندي فى كتابه « صبح الأعشى » عن تحسين الخط (٣٩) ، وبذلك أصبح تعليم الكتابة فنا من الفنون له معلموه ، وله طرقه الخاصة : « ومبنى هذا الفن الاستحسانات الناشئة من مقتضى الطباع السليمة ، ويختلف بحسب الألف والعادة والمزاج بل بحسب كل شخص شخصى وغير ذلك مما يؤثر فى استحسان الصور واستيضاحها ولهذا يتنوع هذا العلم بحسب قوم قوم بل شخص شخص ، ولهذا لا يكاد يوجد خطان متماثلان فى كل الوجوه » (٤٠) ويبدو أن الطريقة الأولى فى تعلم الخط كانت شائعة فى بلاد المغرب وأفريقيا بينما ذاعت الطريقة الثانية فى بلاد المشرق (م ٥ — الأعداد التربوى للطبيب)

والأندلس (٤١) ، كذلك حفظ الأطفال بعض الأحاديث التي تتناول أصول الدين ومضائل الإسلام وطلب العلم ومنزلة القرآن . الخ ، وبعض الأشعار المختارة وتدريبوا على إيرادها في المناسبات المختلفة (٤٢) ، وقصص عليهم حكايات الصالحين ، وأخبار الأنبياء وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت هذه الأمور متداولة أما عن طريق « الحكاية الشعبية » أو عن طريق القراءة من كتب عدة مثل « صفوة الصفوة » لابن الجوزي ، وروض الرياحين في حكايات الأبرار والصالحين للباغمي ، وقصص الأنبياء لابن الجوزي وسيرة ابن هشام وسيرة محمد بن إسحاق وغير ذلك من المؤلفات (٤٣) .

كذلك تدرب الأطفال على العمليات الحسابية ، من الجمع والتفريق والتناسب والضرب والقسمة ، وتسم المربون المسلمون بأهمية الحساب للمتعلم في « ضبط المعاملات وحفظ الأموال وقضاء الديون وقسمة التركات بين الشركاء وغيرها » ويحتاج إليه في العلوم الفلكية وفي المساحة والطب ، وقيل : يحتاج إليه في جميع العلوم ، وبالجمل لا يستغنى عنه ملك ولا عالم ولا سوقة ، وزاد شرفا بقوله تعالى : « وكفى بنا حاسبين » (الأنبياء آية ٤٧) وقوله تعالى : « ولتعلموا عدد السنين والحساب » (يونس : آية ٥) ، وقوله تعالى : « فاسأل العادين » (المؤمنون آية ١١٣) (٤٤) . وقد يدرس الطفل الى جوار ذلك بعض قواعد اللغة (النحو) لكي يحترز من الخطأ في تطبيق التراكيب العربية على ما يصدر عنه من بيان كتابي أو شفهي ، اذ اعتبروا الجهل بمبادئ النحو الأساسية « لحنا » يستندمي الضحك والسخرية (٤٥) .

وبجوار ذلك كله فان المعلم لابد ان يراقب أحوال طلابه في آدابهم وهديبهم وأخلاقهم وعباداتهم حتى لا يتبادر اليهم مساوئ الأخلاق وتتمكن منهم قبائح العادات ، ويصعب بعد ذلك مفارقتها ، وتؤكد ادبيات التربية الإسلامية على هذا الجانب الأخلاقي ، وترى أن سوء الأخلاق مؤثر على قدرة الطالب على تحصيل العلم والمثابرة على طلبه ، يقول الزرنوجي : « وينبغي لطالب العلم أن يحترز عن الأخلاق الذميمة فانها كلاب معنوية ،

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو صورة » وإنما يتعلم الإنسان بواسطة ملك » (٤٧) . فكان العلم في تصور الزرنوجي لا يستقيم مع سوء الخلق ، ويرى الزرنوجي أن تعلم الطفل أيضا الآداب والسنن ولا نكتفى بالفرائض فقط ، لأن التهاون في السنن قد يؤدي الى التفريط في الواجبات ، يقول الزرنوجي : « فينبغي لطائب العلم أن لا يتهاون بالآداب والسنن ، ومن تهاون بالآداب حرم السنن ، ومن تهاون بالسنن حرم الفرائض ، ومن تهاون بالفرائض حرم الآخرة » (٤٨) ، ويرى عن الشافعي قوله : (٤٩)

شكوت الى وكيع سوء حفظي . : فأرشدني الى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور . : ونور الله لا يهدي لمعاصي .
وتحدث أدبيات التربية الإسلامية عن الوسائل المختلفة التي ينبغي للمعلم أن يتبعها مع طلابه لكي يتأكد من تقدمهم العلمي والأخلاقي في حدود قدرة الطالب ورغبة ولى أمره : فهناك الترغيب والترهيب والاياناس والايحاش والاعراض والاقبال والحمد مرة والتوبيخ مرة أخرى ما كان ذلك واقيا ، فان احتاج (المعلم) الى الاستعانة باليد لم يحجم عنه وليكن أول الضرب قليلا موجعا كما أشار به الحكماء قبل . بعد الارهاب الشديد واعداد الشفعاء — فان الضربة الاولى اذا كانت موجعة ساء ظن الصبي بما بعدها واشتد منها خوفه ، واذا كانت الاولى خفيفة غير مؤلمة حسن ظنه بالباقي فلم يحفل به » (٥٠) ، كما يقول ابن سينا والواقع أن أكثر أدبيات التربية الإسلامية تسمح بالجوء الى العقاب الجسماني : (الضرب) بعد استنفاد الوسائل الأخرى وان كانت تضع له بعض الحدود والشروط مثل : ألا يضرب المعلم وهو غاضب ، حتى لا يكون الضرب مجرد التشفي ويتجاوز دوره التربوي ، وأن يكون الضرب في مكان مأمن من جسم الطفل ، وأن يستخدم المعلم درة رطبة ليئة ، وأن يكون الضرب من ثلاث الى عشر لا تزيد عن ذلك . الخ (٥١) .

سنن التعليم ومدته :

متى يبدأ الطفل في التعلم ؟ حاول بعض الباحثين أن يحدد السنن التي بدأت فيها عملية التعليم — فذهب ابراهيم سلامة عند تناوله للتعلم عند الزرنوجي أن الطفل بعد أن يتلقى التعليم في المنزل يذهب الى الكتاب في السابعة من عمره واستشهد على ذلك بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « علموا أولادكم الصلاة اذا كانوا بنى سبع وأضربوهم عليها اذا كانوا بنى عشر » (٥٢) . وواضح أن الحديث لا يستنتج منه ضرورة أن يبدأ التعليم في السابعة ، وهناك شواهد كثيرة من كتب التراجم على أن الطفل كان يبدأ التعليم قبل ذلك بكثير ، فهذا ابن عبد الله التستري حفظ القرآن وعمره ست أو سبع سنوات ، والامام الشافعي حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين (٥٣) مما يدل على أنهم بدعوا التعليم قبل ذلك بكثير ، وابن سينا يذكر عن نفسه أنه بدأ التعليم في السادسة من عمره « فلما بلغت السادسة أسلمت نفسي للتعليم » واعتمد ابن سينا على تجربته الشخصية فنصح بأن يبدأ الطفل التعليم في هذه السن فقال : « واذا أتى عليه (الطفل) من أحواله ست سنين فيجب أن يقدم الى المؤدب ، والمعلم » ورأى أنها سن مناسبة فيها « تشمت مفاصل الصبى ويستوى لسانه ويتهيأ للتلقين ويعى سمعه » (٥٤) . مما سبق يتضح أنه لم يكن هناك سن معينة يبدأ عندها الطفل في التعليم وإنما كان الأمر متروكا لتقدير آباء الصبيان فإذا وجدوا أن الطفل بدأ في التمييز والادراك دفعوا به الى « الكتاب » أو « المؤدب » . يقول أبو بكر بن العربي في ذلك : « وللتقويم في التعليم سيرة بدیعة وهو أن الصغیر منهم اذا عقل بعثوه الى المكتب » (٥٥) . فالمعيار لم يكن تحديد سن معينة فيها يبدأ التعليم بل اختلف ذلك باختلاف نضج الصبيان وتقدمهم في الفهم والتمييز . ولقد ظل علم النفس التربوى مدة طويلة يرى أن السادسة هى سن النضج المناسبة لبداية التعلم ، ولكن تغيرت تلك النظرة ورأينا بلادا مثل انجلترا يبدأ التعليم فيها من الخامسة ، مما يؤكد على أن الاستعداد للتعليم ليس مرتبطا بسن محددة بل له عوامل متعددة ترجع الى الفروق الفردية بين الأطفال في معدل النمو والظروف الثقافية التى يعيش فيها كل طفل .

وإذا كانت التربية الإسلامية لم تحدد سنا لبداية التعليم وتركت ذلك لتقدير الآباء والمعلمين فإنها لم تحدد أيضا عدد السنوات التي لابد أن يقضيها الطفل في تلك المرحلة . وليس صحيحا ما ذهب اليه الأهوائي أن الثانية عشرة كانت هي السن التي ينتهى عندها تعليم الصبى في الكتاب في الغالب . وقد اعتمد في ذلك على نص للقباسي يقول فيه : « وانه ينبغي للمعلم أن يحترس بعضهم من بعض إذا كان فيهم من يخشى فساده بأن يهازم الاحتلام أو تكون له جراحة » . فقد أخذ من هذا النص أن قلته من الصبيان كان يظل في الكتاب حتى سن الاحتلام الذي يتراوح عند الذكور بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة أما أغلب الصبيان فقد كان ينتهى من حفظ القرآن قبل ذلك . ورأى الأهوائي مبنى على أن التعليم يبدأ في السادسة ، وأن أهم ما كان يعلم في الكتاب هو حفظ القرآن ، فإذا بدأ الصبى في تعلمه في سن السادسة مثلا فإنه يحتاج الى أربع سنوات أو الى خمس ليتم حفظ القرآن وهو المعروف بالختمية (٥٦) . ولكن شواهد « التربية الإسلامية » تدل على خلاف ذلك من عدم تحديد بداية سن التعليم ، وعدم تحديد نهاية تلك المرحلة الابتدائية فقد كان ذلك يتوقف على استعدادات الطفل وإمكاناته العقلية ، ويتوقف على ما يريده الطفل أو ولى أمره بعد ذلك من أنواع التعليم . ولم تكن هناك عوائق تدول دون الطفل النجيب وبداية التعلم مبكرا ، أو الانتهاء منه في سن متقدمة ، فهذا قتادة يحفظ القرآن كله في سبعة أشهر ، وهذا عبد الله التستري يحفظه وعمره ست أو سبع سنوات ، وتاج الدين الكندى يكمل القراءات العشر وله عشرة أعوام ، والامام الشافعى يحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ثم يحفظ الموطأ ويستوعب مسائل الفقه حتى يقال له وهو ابن خمس عشرة سنة : أفت يا أبا عبد الله فقد والله أن لك أن تفتى ، وكان سفيان بن عيينة إذا ساءه شيء من الفتيا أو التفسير التفت الى الشافعى وقال : سلوا هذا الغلام . أما ابن سينا فقد حفظ القرآن وشيئا من الأدب ومن أصول الدين وحساب الهندسة والجبر والمقابلة في العاشرة من عمره (٥٧) وسواء كانت الدراسة في الكتاب أو على يد المعلم الخاص « فقد كان الطفل يمضى في دراسسته الى حيث يحمله استعداداه وإمكانياته التعليمية ، وكان يخرج من الكتاب

أو على يد المعلم الخاص حينما كان يكبل ما كان يتوقع من الطلاب اكباله
اعتياديا حسب تقدير المعلم « (٥٨) » .

المعلم :

اهتمت أدبيات التربية الإسلامية اهتماما كبيرا بشخصية المعلم
ورفعت من منزلته ورأت أن وظيفته من أشرف الوظائف ، ذلك أن أشرف
مخلوق على الأرض هو الإنسان والمعلم مشغول بتعليم هذا الإنسان ،
وتهذيبه وارثياده ومن ثم فإن وظيفته هي أشرف المهن وأفضلها على
الاطلاق (٥٩) . وقد تناولت تلك الأدبيات ما ينبغي أن يكون عليه المعلم من
خلق وعلم وورع ، وحددت واجباته نحو طلابه ، وواجبات طلابه نحوه
بصورة مفصلة وأوجبت له من الاحترام والتوقير ما هو أهل له (٦٠) .
يقول الزرنوجي : « اعلم أن طالب العلم لا ينال العلم ولا ينتفع به الا
بتعظيم العلم وأهله ، وتعظيم الأستاذ وتوقيره ومن توقير المعلم أن لا يمشی
أمامه ، ولا يجلس مكانه ، ولا يبتدئ بالكلام عنده الا باذن ، ولا يكثر
الكلام عنده ولا يسأل شيئا عند ملاقاته ويراعى الوقت ولا يدق الباب بل
يصبر حتى يخرج الأستاذ ، فالحاصل أن يطلب رضاه ويجتنب سخطه
ويمثل أمره في غير معصية الله تعالى فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية
الخالق (٦١) . ولذلك أدرك المربون المسلمون مبكرا كيف أن المعلم لا يمكن
أن يقوم بدوره الا اذا نال ما يستحق من عناية واحترام وأن المعلم الذي
يفتقد الشعور بالحرية والكرامة الشخصية لا يمكن أن يكون ذا تأثير
إيجابي على الطلاب ، إذ أن فاقده الشيء لا يعطيه ، كذلك فإن الطالب
الذي يتأذى منه أستاذه « يحرم بركة العلم ولا ينتفع بالعلم الا قليلا »
ويروون في ذلك : (٦٢)

ان المعلم والطبيب كلاهما : لا ينصحان اذا هما لم يكرما

فأصبر لدائك ان جفوت طبيبه : واقنع بجهلك ان جهوت معلما

وقد نال المعلم في التربية الإسلامية ما يستحق من عناية ورعاية
مادية وأدبية بما في ذلك معلم الكتاب أو « المؤدب الخصوصي » وتحفل
أدبيات التربية الإسلامية وكتب التراجم بصور كثيرة من تلك العناية

والرعاية والتبجيل ، والتي وصلت أحيانا الى حد المبالغة ولكنها تعكس لنا روح العصر ، ومقدار توقير الملم في المجتمع الاسلامى . ومن ذلك ما حكى أن الخليفة هارون الرشيد بعث ابنه الى الأصمعى ليعلمه الادب فرآه يوما يتوضأ ويفسسل رجله وابن الخليفة يصب الماء على رجله ، فعاتب الأصمعى بقوله : « أنا بعثته اليك لتعلمه وتؤدبه فلماذا لم تأمره بأن يصب الماء باحدى يديه ويفسل بالأخرى رجلك » (٦٣) .

ويرى بعض الدارسين أن « معلم الكتاب » لم يتمتع بهذا التقدير والاحترام ، وإنما كان ذلك من نصيب معلمى المعاهد العليا ، ويستشهدون على ذلك ببعض ما رواه الجاحظ عن سوء تقدير الناس لبعض معلمى الكتاتيب في عصره ويردون ذلك الى قلة بضامة هؤلاء المعلمين في العلم أو ما اشتهر عنهم من جشع وحرص على استغلال الوظيفة (٦٤) . بينما نجد باحثا آخر يرى أن « معلم الكتاب » لم يكن أهلا للاحترام والتقدير نتيجة « للتمايز الطبقي » الذى شهده المجتمع الاسلامى في العصرين الأموى والعباسى ، وما ترتب على هذا التمايز الطبقي من طبقية في التعليم بحيث أصبح هناك تعليم للأغنياء وآخر للفقراء وأبناء الطبقات المتوسطة وطبعمى أن يجتذب تعليم الأغنياء أفضل العناصر من المعلمين الذين ينالون كل التقدير والاحترام المادى والأدبى ، أما معلمو الفقراء وسواد الشعب (معلمو الكتاتيب) فهم يمثلون أوطأ درجات السلم المهنى ثقافيا واجتماعيا يقول هذا الباحث : « كان التعليم في البداية واحدا لجميع الأطفال ، وكان المعلمون في جميع المراتب يتمتعون باحترام عظيم وقد استمر معلمو المعاهد العليا يتمتعون بهذا الاحترام حتى النهاية ، غير أن منزلة معلم الكتاتيب هبطت مع مرور الزمن الى الدرجات السفلى من المراتب الاجتماعية . وكان سبب ذلك ظهور التمايز الطبقي في التعليم في العصر الأموى وفي العصر العباسى بصورة خاصة . إذ لم يعد الآباء المقندرون ماليا يرسلون اولادهم الى الكتاتيب بل صاروا يستأجرون لهم المعلمين الخصوصيين . من هنا انقسم المعلمون الى ثلاث طبقات اجتماعية متميزة : أولها معلمو الكتاتيب الذين كانوا يقومون بتعليم الطبقات المتوسطة

وسواد الشعب وكانوا يمثلون أوطأ درجات السلم المهني ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا ، وثانى هذه الطبقات ، معلمو أبناء الطبقات العليا في المجتمع : الأمراء والوزراء والأغنياء وكان هؤلاء يدمون « بالمؤدبين » على حين كان أعضاء الطبقة الأولى يسمون المعلمون . أما أبناء الخلفاء وولادة العهد فكان لهم معلوهم الخاصون بهم ، وكان هؤلاء من العلماء الأعلام ذوى الاطلاع الواسع في الثقافة العربية والاسلامية وآدابها وكلام الملوك والحكماء وعلوم الأمم السالفة وكانوا بهذا يمثلون ذروة المهنة التعليمية ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا وقد سموا بحق « كبار المؤدبين » وكان منهم سيوييه والكسائي والأصمعي (٦٥) .

والواقع أن هذا التفسير الطبقي لمنزلة المعلم ونوعيته واعداده تفسير لا يستقيم مع الواقع التربوي الاسلامي . والا فهل كان الضحاک ابن مزاحم (١٠٥ هـ) والكميت بن زيد (١٢٦ هـ) وعبد الحميد الكاتب (١٣٢ هـ) وغيرهم من الأسماء اللامعة في المجتمع الاسلامي والذين كانوا معلمين ككتاتيب (٦٦) هل كانت مثل هذه الأسماء تحتل أوطأ السلم المهني ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا ؟ وهل هناك أدلة على أن هؤلاء العلماء الأعلام ذوى الاطلاع الواسع في الثقافة العربية الاسلامية وآدابها وكلام الملوك والحكماء وعلوم الأمم السالفة أمثال سيوييه والكسائي والأصمعي ممن يذكرهم الكاتب ، قد اقتصوا بالفعل بتعليم أبناء الخلفاء وولادة العهد فقط دون أن يكون لهم بجوار ذلك حلقاتهم العامة التي انتظمت من سماهم الباحث أبناء الطبقات المتوسطة وسواد الشعب ؟ الواقع أن الشواهد التعليمية الكثيرة تؤكد خلاف ذلك تماما . فقد نال معلم الكتاب ، ومعلم الأدب ، ومعلم الخط ما يستحقونه من الاحترام ، وظلوا متمتعين بتلك المنزلة في عالمنا الاسلامي الى وقت قريب ، ولعلمهم لم يمانوا شيئا من الهوان الا في ظل الاتجاهات العلمانية ، وموجات الاستعمار والتفريب التي جرفت العالم الاسلامي خلال القرن التاسع عشر وما بعدها ، اذ أصبح احتقار معلم اللغة العربية والقرآن سياسة عامة ليس على مستوى المرحلة الابتدائية فقط بل وعلى جميع المستويات التعليمية (٦٧) .

ادارة التعليم وتنظيمه وتمويله :

ولعل اكثر الدراسات التى تناولت ادارة التعليم الاسلامى وتنظيمه وتمويله قد تناولته وهى متأثرة بالنظم المعاصرة ، ولم تستطع أن تدرك الفارق الكبير بين نظام ادارى وسياسى يقوم على القيادات الثلاثية الشعبية فى الادارة وفى تقديم الخدمات Public Service (النظام الاسلامى) ، ونظام آخر يقوم على القيادات القانونية التى تتدخل السلطات فى تنصيبها ومن ثم يكون لها يد فى توجيهها وتبديلها (النظم الوضعية) (١٨) ، أن التعليم كخدمة عامة Public Service قد قام بها المسلمون أنفسهم نحو أولادهم وهم الذين أشرفوا عليه تنظيميا وادارة وتمويلا ، ولم تتدخل الدولة فى ذلك الا ما ورد من انشائها للكتاتيب الخاصة بالآيتام ، وتكليفها « رجال الحسبة » بمراقبة الكتاتيب للتأكد من أن المعلم « لا يدرس الا لعدد محدود من الصبيان » فإذا كثر التلاميذ أمره أن يعين مساعدين له يتناسب عددهم مع عدد التلاميذ بحيث يكون لكل فقيه عدد قليل من الصبيان . قال ابن عبدون : وينجب للمؤدب الا يكثر من الصبيان ، ويمنعون من ذلك فانه لن يستطيع أن يعلمهم شيئا على ما ينبغي » (١٩) ، وأما ما وراء ذلك فقد ظل التعليم الاسلامى بجميع مراحلها ، شأننا من شأن الأفراد لا تتدخل الدولة فى رسم سياسته أو متابعة برامجها أو الصرف عليه ، تلك هى القاعدة العامة أما الاستثناء فهو وارد أيضا فى كتب التربية الاسلامية ، عندما استخدمت الدولة الشاطبية الأزهر مثلا لنشر مذهبها الشيعى ، وعندما استخدم صلاح الدين الأيوبي « المدارس » لنشر المذهب السنى (٧٠) ، ولكن مع وجود هذه الشواهد التاريخية على تدخل الدولة فى التعليم الاسلامى فقد ظل هذا الاتجاه محدود التأثير ، وظل التعليم الاسلامى بصفة عامة ، والتعليم الابتدائى بصفة خاصة تعليمًا شامليًا ينظمه الشعب ويموله بعيدا عن تدخل الدولة .

وإذا كانت الدولة الاسلامية لم تضع النظم التعليمية المحددة ولم تتحكم فى ادارة التعليم وطابع الدراسة ومناهجها وتركت ذلك ليكون شأنًا

من شئون الأفراد — الا أن ذلك لم يمنعها من تشجيع التعليم بصفة عامة ، والعمل على تيسيره وتسهيله ، لقد كانت تمده فعلا بالمساعدة والتوجيه القوى الشامل عن طريق تقديم مكافآت للعلماء ، وتفرغ بعضهم لتثقيف الجاهل في المساجد ، وفتح مؤسسات تربوية لغير القادرين على التعليم (مكاتب الفقراء والأيام) وتقديم تسهيلات علمية (المكتبات) وإنشاء مؤسسات متخصصة بفروع معينة من العلوم والمعارف (مثل المدارس والبيمارستانات) الى غير ذلك من ضروب تشجيع العلم وتيسيره وتسهيله والتي مارسها الخلفاء والحكام المسلمون عبر العصور ، أى أن الدولة الإسلامية كانت تمارس صورا متعددة من تشجيع التعليم وتيسيره ولكنها نادرا ما تدخلت تدخلا مباشرا في ادارة التعليم وتنظيمه ، وفارق كبير ما بين التشجيع والتيسير وبين احكام الرقابة والسيطرة الادارية والتنظيمية على التعليم ، ولقد اعتمدت الدولة في ذلك على « الروح الاسلامية » العامة التي تدفع المسلم الى طلب العلم وتحثه على ذلك من المهد الى اللحد ، واعتهدت على الروح الاسلامية الجماعية التي تحث الأفراد على التعاون فيما بينهم للقيام بالخدمات العامة ورعاية مصالح الآخرين .

فتعاليم الاسلام تدفع الناس الى ضرورة تعليم أولادهم ، وتدفع المعلمين الى ضرورة نشر علمهم ، وإذا كان بعض المعلمين قد افترح « كتابا » لتعليم الأطفال نظير أجر معين ، فقد وجد أيضا من لا يأخذ الأجر على التعليم أخذا بحديث عبادة بن الصامت قال : « كان رسول الله يشغل فإذا قدم الرجل مهاجرا على رسول الله صلى الله عليه وسلم دفعه الى رجل منا يعلمه القرآن ، فدفع الى رسول الله رجلا كان معي في البيت أمشي به عشاء البيت ، وكنت أقرئه القرآن ، فانصرف الى أهله ، ورأى أن عليه حقا ، فأهدى الى قوسا لم أر أجود منها عودا ولا أحسن منها عطفيا ، فأتيت الرسول فقلت : ما ترى يا رسول الله ؟ قال : حرة بين كتفك تعلقها أو تقلدتها » (٧١) ، ولقد ناقشت أدبيات التربية الاسلامية موضوع جواز الأجر على التعليم ، ورغم أنها أجازته الا أن « الدوافع الاسلامية »

ظلت تدفع الكثيرين الى تعليم الناس مجابنا ، وتابى أن تحول العلم الى حرفة ، ولذلك رأينا بعض اعلام الثقافة الاسلامية يحترفون أعمالا أخرى يكتسبون منها ليناشروا التعليم « حسبة » ابتغاء وجه الله ، وظلت الكثير من المساجد طوال العصور الاسلامية وحتى عصرنا الحديث تقدم الوانا من « التعليم الاسلامى الاولى » للأطفال يقوم به معلمون بدون أجر ابتغاء وجه الله ، وكلما كان الدافع الاسلامى قويا كلما كثر عدد هؤلاء الذين يقدمون التعليم بدون أجر ، وكثر عدد هؤلاء الذين يفضلون كسب قوتهم بالعمل في مجالات التجارة أو الحرف مع ممارسة تعليم الناس تطوعا ، ونصح طلابهم باتباع ذلك مثلهم (٧٢) .

اما هؤلاء الذين اتخذوا مكانا لتعليم الأطفال ، واخذوا اجرا نظير تفرغهم لهذا العمل فقد كانوا يديرون هذا الكتاب بأنفسهم اذا كان عدد الطلاب محدودا ، وقد يشترك معلمان أو أكثر في التعليم اذا كان عدد الطلاب كبيرا ، ويدفع الآباء بأبنائهم الى هؤلاء المعلمين نظير أجر يدفعونه اليهم ، وقد يدفع هذا الأجر شهريا أو سنويا أو بهتدار تعلم الصبى ، ويقضى الصبى يوما دراسيا كاملا في الكتاب تحت رعاية معلمه ، يبدأ هذا اليوم الدراسى من الصباح الباكر ويستمر حتى الظهر ، حيث ينصرف الأطفال لأداء الصلاة وتناول طعام الغداء ، ثم يرجعون بعد الظهر ويظلون بالكتاب حتى آخر النهار ، وجرت العادة أن تعطل الدراسة بالكتاب بعد ظهر الخميس وسحابة يوم الجمعة ، ثم يعود الطفل الى « مكتبه » صباح السبت (٧٣) .

ولا شك أن الأخذ بنظام اليوم الدراسى الكامل قد أتاح للمعلم الفرصة الكافية للإشراف على تربية الطفل ، كما أتاح للأطفال أن يعيشوا حياة جماعية يستفيدون فيها من تجارب غيرهم وينتفعون بهذا التفاعل الاجتماعى الذى يحدث فيما بينهم (٧٤) .

وكانت عملية التعلم تضى بطريقة غير جامدة ، اذ لم يكن من اللازم أن يحفظ الصبى القرآن كله ، الا اذا كانت تلك رغبة أبيه ، ولم يكن من

اللازم أن يأخذ كل الأطفال كما معيناً من الموضوعات الدراسية ، ولم يكن من اللازم أن يصل كل الأطفال الى نفس المستوى التحصيلي في وقت محدد ، بل روعيت الفروق الفردية ، فهناك الأذكياء والموهوبون وهناك المتوسطون ، ويتشكل المنهج ، وتطول مدة التعليم أو تقصر وفق القدرة العلمية لكل طفل ، وقد جمع « الكتاب » الواحد مستويات تعليمية متعددة .
وقدم موضوعات دراسية مختلفة ، وروعى الأطفال العاديين والأطفال الموهوبون في ذلك كله بإضافة مواد دراسية Enrichment أو تكوين مجموعات خاصة Special Grouping واتاحة الفرصة للقادرين علمياً أن يتقدموا بسرعة في دراستهم Acceleration الى غير ذلك من الأساليب التي نحاول تطبيقها في عصرنا الحديث فنصيب بعض النجاح والكثير من الفشل (٧٥) .

وكانت عملية « التقويم » عملية مستمرة تتم بصورة فردية في الغالب ، فالمعلم يتابع الطفل في قراءته للوحه قراءة نموذجية صحيحة ، ثم يمتحنه فيما حفظ كل يوم ، ويرى أعماله التجريبية ، فإذا أخطأ الصبي في الكتابة والهجاء أو الحفظ ، وأهمل أو انصرف الى اللعب والمبتذ دون الدرس والعلم ، أو هرب من الكتاب ، عاقبه المعلم بالنصح تارة والعزل والتهديد مرة أخرى ، والضرب تارة ثالثة ان لم تغلح النصائح ولم يجد التهديد ، وإذا جاز الصبي مرحلة التعلم في الكتاب جاز اجتاحتها فيما حفظ من القرآن والخط وخلافه ، وكان اكمال الطفل لحفظ القرآن ويسمى « بالختمه » مناسبة علمية يكرم فيها المعلم والتلميذ ، وينالان من أسرة الصبي الكثير من الهدايا ، وكانت عملية التقويم هذه تتم في الغالب بالتعاون بين الأستاذ وأهله ، فالمعلم على صلة دائمة بأسرة الصبي ، وهو يبلغهم عن أحوال طفلهم العلمية والأخلاقية ، باستمرار ويتشاور معهم فيما يدور من مشكلات . ولما كان الآباء يهتمون بنصيب طفلهم من العلم والأخلاق معا ، فقد شملت عملية التقويم البعدين معا ، البعد العلمى والبعد الاخلاقى .

وكان تمويل التعليم الابتدائى سواء كان تعليمياً خاصاً في المنازل أو تعليمياً عاماً في الكتاتيب ، يقوم به الآباء نحو أبنائهم ، أو يقوم به

القادرون نحو اقاربهم الفقراء ، أو غير اقاربهم من أبناء المسلمين ، وأبرز التطبيق العملي لمبادئ الاسلام صورا من التضامن الشعبي في مجال الخدمات التعليمية ، وبرزت مصطلحات مثل « أهل القرية » و « أهل المصر » و « أهل الحضر » و « أهل الجماعة » — جماعة المسجد — كصور من صور التضامن الشعبي للقيام بالخدمات العامة ومنها الصحة والتعليم (٧٧) ، ومن هنا لم تكن الدولة محتاجة الى الصرف على التعليم وتمويله الا في أضيق الحدود كما سبق أن ذكرنا . وبالرغم من ذلك ، أو لعلله بسبب ذلك ، انتشرت مؤسسات التعليم الابتدائي في كل مكان من أرجاء العالم الاسلامي ، بحيث لم توجد مدينة أو قرية من القرى الا ووجدنا فيها لونا من ألوان هذا التعليم يتناسب وحاجات أفرادها يوفره ، « أهل جماعة القرية » لأطفالها ويتولون تنظيمه والإشراف عليه وتمويله (٧٨) .

تقييم التعليم الابتدائي الاسلامي :

بعد أن عرضنا لهذا التعليم الابتدائي الاسلامي نحسب أن نعرض هنا بإيجاز لبعض الآراء التي هاجمت هذا التعليم من حيث تنظيمه وأهدافه ومحتواه وسنرى أن تلك الهجمات تأخذ « الثوب العلمي » ظاهريا وتعتمد على بعض معطيات العلوم التربوية الحديثة دون أن تملك الأصالة العلمية انثى تستطيع بها أن تتمثل تلك العلوم التربوية ، وأن تخضعها لمطالب مجتمعاتنا العربية والاسلامية ، كما سنلاحظ أيضا أن بعض هذه المثالب التي أخذها البعض على التعليم الابتدائي الاسلامي إنما ظهرت في أعين هؤلاء الدارسين كمثالب لعدم فهمهم لروح الاسلام وتعاليمه ، ولو توفر هذا الفهم لديهم لأدركوا في الغالب أنها ليست مثالب بل مميزات وخصائص للتعليم الاسلامي .

من ذلك مثلا ما يقال من أن الهدف من التعليم الابتدائي الاسلامي إنما كان هدفا دينيا بحتا يتركز في حفظ القرآن وما يتصل به من تعليم القراءة والخط (٧٩) ، ولقد تجاهل القائلون بذلك تنوع المنهج في تلك المرحلة واختلافه باختلاف الظروف على نحو ما بينا ، أما كل ما يقال

حول حفظ القرآن بدون فهم في تلك المرحلة ومخالفة ذلك لقواعد علم النفس الحديث ، فهو قول يعود في أكثره الى عدم تقدير المنزلة التي يحتلها القرآن في حياة الجماعة الإسلامية خصوصا لدى الطبقة المثقفة التي ستقود المجتمع فيما بعد ، وغ عنك الأفراد العاديين الذين لا يستغنون عن حفظ شيء من القرآن لاستخدامه يوميا في صلواتهم .

كذلك فان هذا القول يقلل من ادراك أهمية الدوافع الاجتماعية والنفسية التي كانت تدفع الطفل المسلم الى حفظ القرآن وتجعله يستسيغ هذا المجهود الذهني الجاد ، فقد كان المجتمع ينظر نظرة اعزاز وتقدير لمن يحفظ القرآن ، يقول ابن حنبل : « كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جدد فينا » أى عظم بيننا ، فماذا عن الحافظ للقرآن الكريم كله ؟ اذ لا شك أن هذا التقدير الاجتماعي قد دفع الكثير من أطفال المسلمين الى حفظ القرآن الكريم لينالوا احترام المجتمع وتقديره . ان الطفل يسعى دائما الى « التقدير الاجتماعي » ويسعى الى كسب رضا الآخرين ، وما دام سيجد في حفظ القرآن الكريم احتراماً وتقديراً فلا عليه أن يفعل ذلك ، بجوار أن هذه السن هي أكثر الأعمار مناسبة للحفظ وكلما تقدم الطفل في السن كلما قلت ملكة الحفظ ، بجوار أن ما يحفظه في تلك المرحلة يكون أوضح وأعمى للتذكر، ولعل مايؤكد وجهة النظر هذه ماذهب اليه بلارد Ballard من أنه « اذا استظهرنا قطعة من الشعر فان المقدار الذي نتذكره منها يزداد بعد بضعة أيام من تاريخ الحفظ بدلا من أن يبلغ اقصاه عقب الحفظ مباشرة ، وقد ينسى الانسان بعض الالفاظ وبعض العبارات التي كان يحفظها عن ظهر قلب ولكنه يستبدل بها عبارات والفاظا أخرى تبرز من نفسها بعد فترة الاستقرار ، وهذا التذكر واضح جدا عند صغار الأطفال ولكن يقل كلما تقدم الانسان في السن فاذا وصلنا الى مرحلة الرجولة أخذ ينقرض أو يتلاشى » (٨٠) .

كذلك ينظر بعض الباحثين بعين الازدراء الى عملية الحفظ هذه ويزنون انها نوع من التدريب على التذكر اللفظي وهى عملية من العمليات

العقلية الوضعية التى لا تقتزن بالذكاء ولا قوة الإدراك * . وأبدوا وجهة نظرهم هذه « بأن كثيرا من البلهاء وضعاف العقول ينصمون بذاكرة قوية ، وبعض الأذكاء ذاكرتهم ضعيفة ، ولكن ازدياد الذاكرة والنظر اليها هذه النظرة القليلة الأهمية فيه بعد عن الحقائق النفسية ، وتدل نتائج البحث فى الأمراض النفسية على أن فقدان الذاكرة يؤدى الى اضطراب الحياة العقلية وفساد السلوك ومما لا شك فيه أن الذاكرة الجيدة تخدم علماء الطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان لأنهم فى حاجة الى استظهار كثير من القوانين الرياضية والمعادلات الكيميائية التى تتألف منها مبادئ المعرفة الصحيحة الضرورية ، ولا يستطيع الإنسان اجادة اللغة دون معرفة كثير من الألفاظ وثواعد النحو والصرف ، وقد ظن كثير من علماء النفس والتربية أن هناك تعارضا بين الذكاء والذاكرة ، والحقيقة على خلاف ذلك لأن موهبة الذكاء وحسن التفكير مما يخدم الذاكرة فى سرعة التحصيل وجودة الحفظ وسهولة الاسترجاع وفى ذلك يقول ولیم جیمس : « إن فن التذكر هو فن التفكير » (٨١) .

كذلك هوجبت التربية الإسلامية عموما والتربية فى المرحلة الابتدائية خصوصا لأنها لم تعتن « بالتربية الفنية » لدى الأطفال ، وما دامت مناهج تلك المرحلة لم تشتمل على الفنون الجميلة التى يشتمل عليها المنهج المعاصر وخصوصا الموسيقى والتصوير ، فهذا يدل على انعدام الشعور بأهمية التربية الفنية والجمالية فى التربية الإسلامية ، وهذا وهم باطل كما يقول الأخوانى « فالفنون الجميلة فى الاصطلاح هى الموسيقى والتصوير

* فى الواقع ان قضية حفظ القرآن الكريم فى المرحلة الابتدائية من القضايا التربوية الهامة التى تستحق دراسة مستقلة تستخدم الأسلوب التجريبي لقياس الفروق بين أطفال يحفظون القرآن وآخرين لا يحفظون من حيث الطلاقة اللغوية ، والنجاح الدراسى ، والقيم والاتجاهات . . . الخ ، ودراسات أخرى تتناول أمثل الطرق التجريبية التى ينبغى اتباعها لحفظ القرآن فى تلك المرحلة .

والنحت والزخرفة والعمارة ، وعناية الغربيين اليوم — وهى عناية ورثوها عن اليونان — هى تعليم الموسيقى والتصوير ، أما الاسلام فقد استعاض بهذين الفنين بالنسبة للأطفال فنونا أخرى جميلة هى الخط والشعر والزخرفة العربية . ولا ينبغي أن يذهب عن بالفنا أن القرآن نفسه فيه موسيقى سماوية أسمى من الشعر وبخاصة فى السور القصار ، ومن أجل ذلك يتغنى الأطفال بالقرآن عند حفظه فطرة وسليقة ويزين القراء التلاوة بالصوت الحسن « (٨٢) ، فإذا كانت التربية الغربية لها فنونها الجميلة الخاصة بها ، فهل يؤخذ على التربية الإسلامية أن تكون لها أيضا فنونها الجميلة الخاصة بها ، من لوحات خطية بديعة ، وزخرفة عربية منمقة ، وموسيقى قرآنية وشعرية ... الخ ؟ * .

كذلك أخذ على التربية الإسلامية فى تلك المرحلة أنها أخذت بأسلوب « العقاب الجسمائى » وصوروا المعلم على أنه انسان فظ القلب ، يهوى بدرته على الأطفال بدون دراية بمعطيات علم النفس التى تذهب الى أن أخطاء الطلاب لا تدل على حاجتهم الى العقاب بقدر ما تدل على وجود شيء خاطئ فى المنهج أو فى طرق التدريس أو فى الظروف المادية والمعنوية للعملية التعليمية (٨٣) ، ولقد سبق أن ذكرنا متى يجوز استخدام أسلوب الضرب ؟ وشروطه . ونحب أن نؤكد هنا أن أدبيات التربية الإسلامية قد حذرت من الاقراط فى اللجوء الى هذا الأسلوب لما ينتج عنه من أضرار تربوية ونفسية ، يقول ابن خلدون : « ومن كان مرباه بالعسف والقهر سطا به القهر ، وضيق على النفس فى انبساطها وذهب بنشاطها ، ودما الى الكسل وحمل على الكذب والخبث ، وهو التظاهر بغير ما فى ضميره خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه » (٨٤) . أى ان التربية

* يحتاج تعليم الفنون الجميلة فى تلك المرحلة الى دراسات أعمق حول الفنون الجميلة الإسلامية التى تتمثل فى الخط الكوفى والشعر والزخرفة العربية والموسيقى القرآنية وكيفية تدريس تلك الفنون الجميلة فى عصرنا الحديث وكيف نرعها ونطورها فى مدارسنا المعاصرة .

الاسلامية انما استخدمت الضرب فى اضييق حدوده ، ورعت أن يكون استخدامه مؤثرا من الناحية التربوية ، وبلغه علم النفس فان ضربة العصا تؤلم الصبى فتؤدى الى امتناعه عما يفعل حتى لا يقع عليه الضرب مرة ثانية ، والاتسسان بطبيعته مقطور على الاقبال على ما يسره والابتعاد عما يؤله ، والذاكرة تلعب دورا هاما فى ذلك اذ يستعيد الصبى سبب أوجاعه ويستحضر فى ذاكرته الموقف الذى ضرب فيه فيعمل على ابعاده كل ذلك وبهذا يستقيم ، أما المبالغة فى الضرب فتؤدى الى البلادة وانعدام الألم الذى به يتم الانصراف عن الأعمال القبيحة والسلوك الذى يراد تغييره وعدم تكراره (٨٥) .

كذلك أخذ على التربية الاسلامية خصوصا فى تلك المرحلة انها تربية جادة صارمة لم تراع حاجات الاطفال الى اللعب والترويح على النفس ولم تعرف الوان الالعناب التربوية والترويحوية التى تعرفها مدارسنا فى العصر الحديث ، والواقع أن ادبيات التربية الاسلامية لم تغفل ضرورة الترويح عن الطفل دفعا للسمامة فابن سينا يحذر من أن يحمل الاطفال على ملازمة الكتاب مرة واحدة حتى لا يتعرضوا للسام ، والفزالى يلفت نظر المسلم الى ضرورة الاهتمام بلعب الطفل والترويح عنه فيقول : « وينبغى أن يؤذن له (الصبى) بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جهيلا يستريح اليه من تعب الكتب بحيث لا يتعب فى اللعب فان منع الصبى من اللعب وارهاقه الى التعلم دائما يبيت قلبه ويبطل ذكاه وينقص عليه العيش حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه راسا » ، ويقول فى مكان آخر ، « ويعود الصبى فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل » (٨٧) ، والزرنوجى يحذر الصبى من أن يجهد نفسه جهدا يضعف النفس حتى ينتقطع عن العمل بل يستعمل الرفق فى ذلك ، والرفق أصل عظيم فى جميع الأشياء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الا أن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض نفسك فى عبادة الله تعالى ، فان الميت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » (٨٨) ، لذلك كله فان الأسبوع الدراسى فى الكتاب خمسة أيام ونصفا فقط ولم يكن اليوم (م ٦ — الاعداد التروى للطبيب) .

الدراسى فى الكتاب يقضى كله فى الدراسة بل لم يخل الامر من احاديث يتبادلها الاطفال ومفترات راحة ينالونها . فماذا بقى بعد ذلك ظل من الصرامة والجدية فهى صرامة تقتضيها ظروف العصر وقلة التسهيلات العلمية والمادية الميسرة للطلاب فى ذلك الوقت ، وعظم الشعور بالمسئولية التربوية التى احس بها الآباء والمعلمون نحو تربية الصبيان .

كذلك أخذ على التربية الاسلامية فى تلك المرحلة انها ظلت طوال العصور الاسلامية عملا شعبيا يتم بصورة عشوائية غير منتظمة ، وأن الدولة قد فشلت فى تقديم نظام تعليمى عام موحد لجميع الاطفال تشرف على تنظيمه وادارته . وأن الخلافة الاسلامية قد فقدت فرصة تقديم نظام تعليم حكومى فى ثلاث مناسبات تاريخية هامة :

الأولى : عندما انشأ عمر بن الخطاب الدواوين ووضع لها نظمها الخاصة وكان فى امكانه أن يضع أيضا نظاما عاما للتعليم ولكنه لم يفعل .

والثانية : عندما أمر الخليفة عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين ولم يقدم نظاما تعليميا عاما لتربية الكوادر اللازمة لهذا الأمر .

والثالثة : عندما حاول المأمون أن يفرض رأيا فلسفيا فى خلق القرآن من طريق القوة والارهاب دون أن يلجأ الى انشاء « نظام تعليمى » يربى الأفراد على تلك العقيدة الجديدة (٨٩) . ولقد سبق أن ناقشنا علاقة الدولة بالتعليم وأظهرنا أن التعليم كان أمرا من أمور الأفراد ، ولم يكن شأننا من شئون الدولة بالفعل ، ولكن ذلك لم يمنع من انتشار هذا النوع من التعليم الابتدائى ، ولا يعيب نظام التربية الاسلامية ، أنه كان بعيدا عن سيطرة الدولة وتدخلها فى شئونه المالية والادارية بل ربما كان هذا من أعظم مميزات هذا النظام ، فقد جعلته أكثر اتصالا بحاجات الجماهير ، كما جعلته محور اهتمام الأفراد والجماعات ، بجوار ما أتاحه ذلك من حريات واسعة للطلاب والمعلمين ، وها هو التعليم الأمريكى كان وما زال شأننا من شئون الولايات وليس من واجبات الحكومة الفيدرالية ومن ثم فليس للولايات المتحدة نظام ييسر التعليم القومى كذلك النظم التى توجد فى كثير من البلاد الأخرى وليس من اختصاص الحكومة

الفيدرالية أن تسيّر النظم المدرسية أو تتحكم في طابع المدرسة أو في مناهجها وان كان من واجبها أن تشجع التعليم وتعمل على تيسيره وانها لتهده فعلا بالمساعدة والتوجيه القوى الشامل عن طريق « مكتب التربية » الذى يتخذ كافة الطرق لعون الولاية في جهودها وابتكاراتها (٩٠) وهذا ما فعلته الدولة الاسلامية نحو التعليم ، اذ قدمت له الوانا متعددة من المساعدة والتشجيع ولكنها لم تحاول أن تسيطر عليه سيطرة كاملة .

ثم يأتى بعد ذلك هذا الشعور السائد بين الدارسين بأن تلك المرحلة الابتدائية بالذات كانت الغلبة فيها لسيطرة رجال الفقه ذوى الاتجاه الدينى المتشدد مثل الفزالى ونصير الدين الطوسى وابن جهاصة وابن سحنون وابن حجر الهيثى والقاسى ... الخ وان اصحاب هذا الاتجاه الدينى المتشدد فى التربية قد طبعوا التعليم فى تلك المرحلة بطابعهم انديى الذى ركز على التدين والخلق الدينى المحافظ (٩١) . ورغم غلبة الطابع الدينى والأخلاقى على تلك المرحلة بالفعل كما سبق أن ذكرنا . الا أن هذا الطابع هو الذى امد الطبقة المثقفة المسلمة عبر العصور بشخصيتها الاسلامية المستقلة ، وجعلها لا تذوب فى غيرها من الثقافات ، واكسبها القدرة على نقل جميع الحضارات المختلفة دون أن تذوب فى واحدة منها . كما أن هذا الطابع الدينى والأخلاقى قد حفظ على المثقفين المسلمين « حدا أدنى من الثقافة المشتركة فيما بينهم وبذلك لم تفرقهم التخصصات المهنية فكريا وأيديولوجيا فيما بعد ، كذلك جعلتهم أكثر اتصالا بالشعب وثقافته ووجدانه وأمدتهم بأخلاقيات ومثل عالية يفتقدها انساننا المعاصر الذى يعانى من أزمة خلقية وروحية تهدد حضارته » (٩٢) .

كان هذا هو التعليم الابتدائى عند المسلمين بكل ظروفه وملابساته ومناهجه وأهدافه وإدارته ، والذى تعرض له الطفل المسلم ، قبل أن يدخل المرحلة التالية من مراحل التعليم المتخصص ، وهو تعليم — كما رأينا — كان يتيح للطفل أن يحصل على حظ وافر من كتاب الله ، ان لم يحفظه كله ، وكان يمكنه من اتقان مهارات القراءة والكتابة والخط والحساب ، مع العناية بأخلاقه وممارسته للشعائر الاسلامية ، وقد يضاف

الى ذلك كله معرفة بالآداب وفنون الشعر الذى يقال فى المناسبات المختلفة بجوار الكثير من قصص الانبياء والصالحين . وهو بذلك يعتبر تعليمها غنيا وكافيا لانتقال الطفل الى المرحلة التالية من مراحل التعليم . كما يعتبر تعليمها كافيا ومناسبا اذا انتطح الطفل عن التعليم وتوجهه الى صناعة او مهنة يزاولها لكسب العيش .

وسوف نتتبع طفلنا المسلم « الذى لديه الاستعداد الكامل لمواصلة التعليم الى المرحلة التالية » وستركز حديثنا لطبيعة البحث على هؤلاء الذين اختاروا الطب ميدانا لدراساتهم وتخصصهم لنرى كيف تمت تربيتهم واعدادهم تريبا ومهتيا لممارسة تلك المهنة الطبية » . وهذا هو موضوع فصلنا الثالث .

مراجع الفصل ومصادره

(١) راجع تحديد هذين المصطلحين في أحمد حسن عبيد : فلسفة النظام التعليمي وبنية السياسة التربوية ، دراسة مقارنة ، الانجلو المصرية ، ١٩٧٩ ، ص ١٤٠ .

(٢) راجع في ذلك على سبيل المثال : ابن الجزار القيرواني : سياسة الصبيان وتدريبهم ، نشر وتقديم محمد الحبيب الهيلة ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٦٨ ، شمس الدين الأنباري : رسالة في رياض الصبيان وتعليمهم وتدريبهم ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٤٣٢ تعليم ، حسن عبد المال : أصول تربية الطفل في الاسلام ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة طنطا ، ١٩٨٠ ، الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ١٠٩ - ص ١١٦ - ص ١٢٣ - ص ١٢٥ .

(٣) الباحث : ديمقراطية التعليم في عصور الازدهار الاسلامي دروس مستفادة « من ابحاث مؤتمر ديمقراطية التعليم في مصر » ، مرجع سابق ، ص ٩ - ص ١١ .

(٤) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، مرجع سابق ، ص ٦٧ .

(٥) أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الاسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٦٧ ، سعيد اسماعيل علي : معاهد التعليم الاسلامي ، مرجع سابق ، ص ٧٧ - ص ٧٩ .

(٦) أحمد شلبي : التربية الاسلامية نظمها ، فلسفتها ، تاريخها ، مرجع سابق ، ص ٥٣ .

(٧) نفس المرجع ، ص ٥٤ .

(٨) نفس المرجع والمكان .

- (٩) نفس المرجع ، ص ٥٥ .
- (١٠) أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٦٧ .
- (١١) عبد الغنى محمود عبد العاطى : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٩١ - ص ٩٨ .
- (١٢) محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٤٦٧ .
- (١٣) الباحث : فلسفة التربية عند ابن مسينا ، مرجع سابق ، ص ٢٧ .
- (١٤) نفس المرجع ، ص ١١٧ .
- (١٥) محمد نبيل نونل : أبو حامد الغزالي ، فلسفته وآراؤه في التربية والتعليم ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية جامعة عين شمس ، ١٩٦٧ ، ص ١٤١ .
- (١٦) انظر مثلاً : ابن سجنون : آداب المعلمين ، القابسى : الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين ، نشر أحمد فؤاد الأهواني كملاحق لكتابه : التربية في الاسلام ، مرجع سابق ، الغزالي : أيتها الولد ، اللجنة اللبانية لترجمة الروائع ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٦٩ .
- طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، مرجع سابق .
- (١٧) S.S. HUSAIN S.A. ASHRAF : CRISIS IN MUSLIM Education, Hodder and Starughton, London, King Abdulaziz University, Jeddah, 1979.
- Abdul Rahman Salih Abdullah; Educational theory. Aquranic outlook, umm Al-Qurn University, Makah, 1982, pp. 133 - 136.
- (١٨) أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١٣ .

- (١٩) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، لجنة البيان العربى ، تحقيق على عبد الواحد وافي ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٤٧٨ .
- (٢٠) نفس المرجع ، ص ٤٨٩ .
- (٢١) محمد صلاح الدين مجاور : تدريس التربية الاسلامية أسسه وتطبيقاته التربوية ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٦ ، ص ٦٥ — ص ٩٩ ، حيث ناقش تلك القضية واقترح اختيار آيات معينة للحفظ .
- (٢٢) القابسي : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين ، مرجع سابق ، ص ٤٣ ، ب .
- (٢٣) الباحث : بحوث في التربية الاسلامية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٨٠ .
- (٢٤) الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ١٢٧ .
- (٢٥) الغزالى : احياء علوم الدين ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٦٢ .
- (٢٦) القابسي : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين ، مرجع سابق ، ص ٤٤ ، ب .
- (٢٧) نفس المرجع ، ص ٤٥ — ب .
- (٢٨) شمس الدين الانبائى : رسالة في رياض الأطفال وتعليمهم وتاديبهم ، مرجع سابق ، ص ٢ .
- (٢٩) أحمد مؤاد الأهوانى : التعليم فى الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١٢٩ .
- (٣٠) ملكة ابيض : التربية والثقافة العربية فى التسام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى ، مرجع سابق ، ص ٢٥٩ .
- (٣١) محمد جواد رضا : الفكر التربوى الاسلامى مقدمة فى أصوله الاجتماعية والعقلانية ، مرجع سابق ، ص ٢٦ — ص ٢٧ .
- (٣٢) الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ٤٠ — ص ٤٧ .

- (٣٣) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، مرجع سابق ، ص ٤٧٩ —
ص ٤٨٠ .
- (٣٤) Bayard Dodge ; Muslim Education in the Medieval times, op. cit, pp. 3, 5.
- (٣٥) السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ، مطبعة حجازي ، القاهرة ، ص ١٨١ .
- (٣٦) القابسي : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين ، مرجع سابق .
- (٣٧) نفس المرجع ، ص ٦٩ — ب .
- (٣٨) A.S. Tritton : Materials of Muslim Education in The Middae Ages, op. cit. p. 51.
- (٣٩) طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٣٧٢ ، ص ٣٧٥ .
- (٤٠) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٨٤ — ص ٨٨ .
- (٤١) نفس المرجع والمكان
- (٤٢) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، مرجع سابق ، ص ٤٧٧ —
ص ٤٨٠ .
- (٤٣) طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢٢ .
- (٤٤) نفس المرجع ، ص ٢٨٣ .
- (٤٥) نفس المرجع ، ص ٣٩٠ .
- (٤٦) نفس المرجع ، ص ١٤٤ — ص ١٤٥ .
- (٤٧) الزرنوجي : تعليم المتعلم طرق التعلم ، مرجع سابق ،
ص ٨٧ .
- (٤٨) نفس المرجع ، ص ١٢٨ .

- (٤٩) نفس المرجع ، ص ١٣١ .
- (٥٠) الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، ص ١٥١ — ص ١٥٢ .
- (٥١) أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١٥ .
- (٥٢) نفس المرجع ، ص ٨ .
- (٥٣) أحمد شلبى : التربية الإسلامية نظمها فلسفتها تاريخها ، مرجع سابق ، ص ٣٠٣ .
- (٥٤) الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ١٢٥ .
- (٥٥) ابن العربي : أحكام القرآن ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٣١ هـ ، ج ٢ ، ص ٢٩ .
- (٥٦) أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٥٩ — ٦٠ .
- (٥٧) أحمد شلبى : التربية الإسلامية نظمها فلسفتها تاريخها ، مرجع سابق ، ص ٣٠٣ .
- (٥٨) محمد جواد رضا : الفكر التربوى الإسلامى مقدمة في أصوله الاجتماعية والعقلانية ، مرجع سابق ، ص ٢٧ .
- (٥٩) الباحث : بصوث في التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٧٦ — ٨٣ .
- (٦٠) عمر محمد التومى الشيبانى : من أسس التربية الإسلامية ، المنشأة الشعبية للنشر والاعلان والتوزيع ، طرابلس ، ١٩٧٩ ، ص ٩١ — ص ٣٤٤ .
- George.D. Shala : The Arab Conception of the Ideal teacher as Revealed in Arabic pedagogical Literature,
M. A. Thesis, University of London, Faculty of Arts, 1939.

- (٦١) الزرنوجي : تعليم المتعلم طرق التعلم ، مرجع سابق ، ص ٧٨ — ص ٨٠ .
- (٦٢) نفس المرجع : ص ٨١ — ص ٨٢ .
- (٦٣) نفس المرجع : ص ٨٢ .
- (٦٤) محمد منير مرسى : التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٩٧ .
- حسن عبد العال : التربية في القرن الرابع الهجري ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٩٧ .
- (٦٥) محمود جواد رضا : الفكر التربوي الإسلامي مقدمة في أصوله الاجتماعية والعقلانية ، مرجع سابق ، ص ٢٦ .
- (٦٦) عبد الله عبد الدايم : التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين ، دار المعلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٤٦ ، ص ١٤٧ .
- (٦٧) الباحث : بحوث في التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٦٢ — ص ٦٣ .
- (٦٨) مصطفى كمال وصفي : مصنفات النظم الإسلامية الدستورية والدولية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٤٥١ ، ص ٤٧١ ، ص ٥٢٩ ، ص ٥٤٦ .
- (٦٩) أحمد شلبي : التربية الإسلامية نظمها فلسفتها تاريخها ، مرجع سابق ، ص ٣٠٦ .
- (٧٠) نفس المرجع ، ص ٣٥٣ — ص ٣٨٥ .
- (٧١) ملكة أبيض : التربية والثقافة العربية العريضة الإسلامية في الشام والجزيرة العربية خلال القرن الثالث للهجرة ، مرجع سابق ، ص ٣٣١ — ص ٣٤٠ .
- (٧٢) الباحث : ديمقراطية التعليم في عصور الازدهار الإسلامي ، دروس مستفادة ، مرجع سابق ، ص ٨ .

- (٧٣) أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٦٣ ، ص ٦٤ .
- (٧٤) الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ١١٨ ، ص ١١٩ .
- (٧٥) حسين فوزى النجار : ثورة التعليم ، النهضة المصرية بالقاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٥٨ — ص ٦٢ .
- (٧٦) أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٦٤ .
- (٧٧) الباحث : ديمقراطية التعليم في عصور الازدهار الاسلامي ، دروس مستفادة ، مرجع سابق ، ص ٧ .
- (٧٨) المرجع السابق ، ص ١١ .
- Khalil; A. Totah : The contribution of the Arabs To (٧٩)
Education. Publications Teachers College, columbia University,
New York, 1926. pp. 94 - 95.
- (٨٠) الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ١٢٦ — ص ١٢٧ .
- (٨١) أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١٨٨ ، ص ١٨٩ .
- (٨٢) نفس المرجع ، ص ١٨ .
- (٨٣) الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ١٥٢ .
- (٨٤) أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١٥ .
- (٨٥) راجع قانون الأثر عند ثورنديك ، ص ٢٠٦ — ص ٢٠٨ ، ورأى
لينين في الثواب والعقاب ، ص ٣٩٦ — ص ٤٠٠ من كتاب أحمد زكى صالح :
التعلم أسسه ونظرياته ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٩ م .

- (٨٦) الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، مرجع سابق ،
ص ١٥٠ — ص ١٥١ .
- (٨٧) الباحث : بحوث التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٨٠ .
- (٨٨) الزرنوجي : تعليم المتعلم طرق التعلم ، مرجع سابق ،
ص ٩١ .
- Al-Tibawi : Arabio And Islamic themes, Historical
Educational and litterery studies, London, Luzas, 1974, p. 96.
- (٩٠) حسين فوزي النجار : ثورة التعليم ، مرجع سابق ، ص ٢٣ .
- (٩١) محمد جواد رضا : الفكر الاسلامي التربوي مقدمات في اصوله
الاجتماعية والعقلانية ، مرجع سابق ، ص ٥٧ — ص ٧٧ .
- أحمد مؤاد الاهواني : التربية في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٤٦ —
ص ٧٢ .
- (٩٢) الباحث : أزمة التربية الخلقية في مصر وجهة نظر في بحوث
في التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٥٣ — ص ٦٧ .

الفصل الثالث

الاعداد التربوى والمهنى للطبيب ، المرحلة الثانية المتخصصة

FURTHER EDUCATION.

مقدمة :

كان التعليم الابتدائي كما سبق أن ذكرنا يمد الصبي المسلم بأساسيات الثقافة الاسلامية ، ويعده الى مرحلة أعلى للتعليم Further Education ، او الى مرحلة من الاعداد الحرفي أو اليدوي اذا أراد أن يكتفى بذلك ، وينصرف الى تعلم حرفة أو عمل يدوي . والتعليم اليدوي أو العملي كتعلم التجارة والصياغة والنجارة وغيرها من الحرف انما « يحصل بالمواظبة على استعمال تلك الصناعة » (٢) ، أى بالتدريب العملي عليها والممارسة لمهاراتها المختلفة * . اما التعليم النظري فهو الذى يكتسب « بقول مسموع أو معقول من شأنه أن يوقع اعتقاداً أو رأياً لم يكن أو يوقع تصوراً ما ، لم يكن » (٣) . أى أنه يحتاج الى تحصيل الآراء والأقوال والأفكار العقلية والنقلية . وهذا التعليم النظري بمصادره العقلية والنقلية هو الذى يمثل منهاج المرحلة الأعلى المتخصصة من التعليم الاسلامي . ولقد تعددت فروع هذا التعليم بتعدد العلوم الاسلامية حتى وصلت الى ثلاثائة علم عند صاحب « مفتاح السعادة » (٤) . وظهرت كثير من المؤلفات الاسلامية محاولة أن تصنف تلك العلوم الغديدة بحيث تقدمها الى الدارس المسلم ذاكراً له أهم مباحث كل علم ، وأهم ما كتب فيه من مؤلفات (٥) . يقول الفارابي في مقدمة كتابه « احصاء العلوم » : « قصدنا في هذا الكتاب أن نحصي العلوم المشهورة علماً علماً ، ونعرف جمل ما يشتمل عليه كل واحد منها ، وأجزاء كل ما له منها أجزاء ، وجمل ما في كل واحد من أجزائه » حتى اذا أراد الدارس « أن يتعلم علماً من هذه العلوم وينظر فيه ، علم على ماذا يقدم وفي ماذا ينظر ، وفي أى شيء سيفيد بنظره ، وما غناء ذلك ، وأى فضيلة تنال به ، ليكون اقدامه على ما يقدم عليه من العلوم على معرفة وبصيرة لا على عمى وغرر » . . . وحتى يستطيع « أن يقيس بين العلوم فيعلم أيها افضل ، وأيها ائفع ، وأيها

* في الواقع أن التعليم الحرفي أو اليدوي عند المسلمين يحتاج دراسة وافية ، يأمل الباحث أن يفرغ لها في القريب العاجل .

أتقن وأوثق وأقوى وأيها أوهن وأوهى وأضعف » ولكى يتبين له إذا كان يحسن علما منها « هل يحسن جميعه أو بعض أجزائه وكم مقدار ما يحسنه ؟ » (٦) .

ولا شك أن الصبى المسلم عندما كان ينتهى من دراسته الابتدائية كان يقبل على عالم واسع من العلوم والمعارف العقلية والنقلية تصوره لنا أمثال هذه المؤلفات ، ولذلك كان لابد من توجيهه تربويا الى أنواع محددة من الدراسات ، وكانت عملية التوجيه التربوى والمهنى للطلاب تتم واضعة فى حسابها ميل الطالب العقلية من ناحية ، وما يريده له ولى أمره من أنواع التعليم من ناحية أخرى . يقول ابن سينا : « وإذا فرغ الصبى من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة نظر عند ذلك الى ما يرد أن تكون صناعته فوجسه لطريقه . فإذا أراد (مديره) به الكتابة أضاف الى دراسة اللغة دراسة الرسائل والخطب ومناقشات الناس ومخاوراتهم وما أشبه ذلك وطورح الحساب ودخل به الذىوان وعنى بخطه ، وإن أريد أخرى أخذ به فيها بعد أن يعلم مدير الصبى أن ليس كل صناعة يرومها الصبى من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة نظر عند ذلك الى ما يرد أن الأدب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة والملاعبة ، إذن ما كان أحد غفلا من الأدب وعاريا من صناعة ، وإذا لأجمع الناس كلهم على اختيار أشرف الأدب وأرفع الصناعات » (٧) . فالتعليم بعد المرحلة الابتدائية تعليم تخصصى يعد الطالب المسلم لحرفة أو مهنة يمارسها فى المجتمع . فإذا كان الصبى قد أظهر فى المرحلة السابقة ميولا أدبية وجودة فى حفظ الشعر والأدب ، فمن الأفضل أن يوجه توجيهها أدبيا ليصبح كاتباً أو أديباً * . وإذا مال الى الفقه أو الحديث أو التفسير وجه الى ذلك ، وإذا أظهر ميلا الى الدراسات العقلية والفلسفية كانت دراسته التالية موجهة لاتقان تلك الدراسات . ويحذر ابن سينا أن يوجه

* فى الواقع أن تربية الأديب أو تربية الكاتب عند المسلمين ، من الموضوعات التى تستحق دراسة مستقلة أيضا ، والتى يود الباحث أن ينتهى من أعدادها قريبا بإذن الله .

الصبى الى نوع من الدراسات لا يريده ، أو لا يظهر استعدادا عقليا لمتابعتها والتخصص فيه ، لأن في ذلك مضیعة لوقت الطالب وجهسه فيهما لا جدوى منه . ويستدل على ذلك « بسهولة بعض الآداب على قوم وصعوبتها على آخرين ، ولذلك نرى واحدا من الناس تواتيه البلاغة وآخر يواتيه النحو وآخر يواتيه الشعر وآخر يواتيه الخطب ، وآخر يواتيه النسب ، ولهذا يقال بلاغة القلم وبلاغة الشعر . فإذا خرجت من هذه الطبقة الى طبقة أخرى ، وجدت واحدا يختار علم الحساب وآخر يفتتار علم الهندسة ، وآخر يختار علم الطب ، وهكذا تجد سائر الطبقات اذا أثقلتها طبقة طبقة حتى تدور عليها جميعا . ولهذه الاختيارات وهذه المناسبات والمشاكلات أسباب غامضة وعمل خفية تدق على أذهان البشر وتلطف عن القياس والنظر ولا يعلمها الا الله جل ذكره » (٨) واذا كنا لا نستطيع الوصول الى حقيقة هذه الفروق العقلية لأنها من علم الله حتى يعمر هذا الكون باختلاف البشر فيما لديهم من قدرات ، وحتى لا يجمع الناس كلهم على اختيار أشرف الآداب وأرفع الصناعات ، ويترفعوا عن غير ذلك من المهن فلا تستقيم الحياة (٩) الا أنه يمكن ملاحظة آثار هذه الفروق ورصد مظاهرها المختلفة ، وتوجيه الطلاب توجيهها تربويا بناء على ذلك . يقول ابن سينا : « فلذلك ينبغي لأدب الصبى اذا رام اختيار الصناعة للصبى - أن يزن أولا طبع الصبى ويسير قريحته ويختبر ذكائه فيختار له إحدى الصناعات بحسب ذلك ، ماذا اختار له إحدى الصناعات تعرف قدر ميله اليها ورغبته فيها ، ونظر هل جرت منه على عرفان أم لا ، وهل ادواته وآلاته مساعدة له عليها أم خاذلة ثم بيت العزم ، فان ذلك أحزم في التدبير وأبعد من أن تذهب أيام الصبى فيما لا يواتيه ضياعا » (١٠) .

فهذه المرحلة الأعلى أو التالية Further Education المتخصصة ، لا تكون الا بعد أن يكون الصبى قد مر بالمرحلة السابقة من التعليم ، وبعد أن يكون « مدبر الصبى » سواء كان ولى أمره أو أستاذه - أحدهما أو كلاهما - قد وزن طبع الصبى وسير قريحته واختبر ذكائه واختار له الصناعة (التوجيه التربوى والمهنى) الذى يناسبه وعرف قدر ميل الصبى لهذا الاتجاه التعليمى ، ورغبته فيه ، وأقبله عليه ، وقدرته العقلية على (م ٧ - الأعداد التربوى للطبيب)

متابعته بنجاح بحيث لا يتعرض الصبى للفشل الدراسي أو يذهب وقتـه سدى ، وسنقتصر حديثنا في الصفحات التالية — لطبيعة البحث — على هؤلاء الذين اختاروا الطب صناعة لهم ، لنرى كيف تمت تربيتهم واعدادهم الاعداد التربوي والمهني المناسبين .

أولا : دوافع ازدهار التعليم الطبي في المجتمع الاسلامي

لا شك أن الاقبال على نوع معين من التعليم يتأثر الى حد كبير بمقدار ما يوفره هذا التعليم لصاحبه من مزايا ادبية ومادية ، وقد مر بنا في الفصل الأول كيف حث الاسلام على طلب القوة والصحة ودعا الى الأخذ بأسبابهما ، مما يمثل دافعا من دوافع الاقبال على الدراسة الطبية ، ودعوة الى البحث عن أسباب المرض وكيفية علاجه ، وأسباب الصحة وكيفية الحفاظ عليها . وكان ذلك يعطى اندارس للطب الشسعور بأنه يدرس علما نافعا من الناحية الشرعية . ولقد نظر العلماء المسلمون الى « علم الطب » على أنه من علوم « فروض الكفاية » ، التي ينبغي أن يشتغل بها عدد كاف من المسلمين يكفى حاجات المجتمع ، والا اثم المسلمون ، يقول الزرنوجي : « واما حفظنا ما يقع في الاحايين فنفرض على سبيل الكفاية اذا قام (به) البعض في بلدة ، سقط من الباقين ، فان لم يكن في البلدة من يقوم به اشتركوا جميعا في المأثم ، فيجب على الامام أن يأمرهم بذلك ويجبر اهل القرية على ذلك » (١١) . ويقول طائش كبرى زاده : « علم الطب : وهو علم يبحث فيه عن بدن الانسان من جهة ما يصح ويمرض لحفظ الصحة وازالة المرض .. وموضوعه ، بدن الانسان من حيث الصحة والمرض ، ومنفعته بيئة لا تخفى . وكفى بهذا العلم شرفا ومخرا قول الامام الشافعي رضى الله عنه : العلم علمان : علم الطب للأبدان ، وعلم الفقه للأديان ، ويروى عن الامام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه : العلوم خمسة : الفقه للأديان ، والطب للأبدان ، والهندسة لابنانيان ، والنحو لللسان ، والنجوم للأزمان » (١٢) . وتكثر الاشارة لاهمية اطلب سواء في كتب تصنيف العلوم ، أو ادبيات التربية الاسلامية ، أو تراجم الأطباء أو مقدمات كتب الطب . يقول ابن أصيبعة في مقدمة كتابه : عيون الأنباء في طبقات الأطباء : « لما كانت صناعة الطب من اشرف

الصنائع وأربح البضائع وقد ورد تفصيلها في الكتب الالهية والآثار الشرعية ، حتى جعل علم الأبدان قرينا لعلم الأديان ، وقد قالت الحكماء : ان الطب نوعان : خير ولذة ، وهذان الشينان انما يتم حصولهما للإنسان بوجود الصحة . لأن اللذة المستفادة من هذه الدنيا والخير المرجو في الدار الأخرى لا يصل الواصل اليها الا بدوام صحته وقوة بنيته وذلك انما يتم بالصناعة الطبية لأنها حافظة للصحة الموجودة ورادة للصحة المفقودة ، فوجب اذا كانت صناعة الطب من الشرف بهذا المكان وعموم الحاجة اليه داعية في كل وقت وزمان ان يكون الاعتناء بها أشد والرغبة في تحصيل توانينها الشكلية والجزئية اكـد واجـد « (١٢) . بل سنجـد المولوى التهانوى في مؤلفه « كشف اصطلاحات الفنون » يثقل استحباب المسلمين « تعلم كل انسان من الطب قدر ما يمتنع به عما يضر بدنه » (١٤) . أما الزرنوجى المربى فيقول انه « لا بد لطالب العلم من القوة ومعرفة ما يزيد فيه وما يزيد في العمر والصحة ليتفرغ في طلب العلم » لذلك « لا بد أن يتعلم شيئا من الطب ويتبرك بالآثار الواردة في الطب التي جمعها الأمام أبو العباس المستغفرى في كتابه المسمى « بطب النبى عليه السلام » (١٥) . ويقول خضر على بن الخطاب الطـبيب في مقدمة مخطوطه : « شفاء الأسقام ودواء الآلام » : « لما رايت أن علم الطب أجل المفائـر والسنـعـادات وأجل المآثر والصناعات اذ به يحصل حياة النفوس والأرواح وصحة الأبدان والأشباح ، وبه يكون الخلاص من الأمراض والأسقام ، والمناص من الأعراض والآلام ، ومعلومه لا يتغير بتغير الملك والأديان ، ومحصوله لا يختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة ... تركت الرقاد زمانا واركتبت السهاد ، وأنا مشغوفنا بتحقيق المسائل الطبية معرجا على مشاهدة الأعمال التجريبية » (١٦) . ويقول مظهر الدين الفيتابى المعروف بابن الأمشاطى في مقدمة مخطوطه ، « شرح اللحة العفيفة المسى تاسيس الصحة » : « فلما كان علم الأبدان الذى جعل قرينا لعلم الأديان مما تعم الحاجة اليه في كل حين وأوان ... الخ » (١٧) . ولعل هذه التصوص القليلة التى أوردناها على سبيل الاستشهاد أن توضح المنزلة الأدبية التى احتلتها الدراسات الطبية في المجتمع الاسلامى ، مما يمثل حافزا أدبيا واجتماعيا للاقبال على تلك الدراسة .

وهناك دافع أدبي آخر يتمثل في أن الدراسات الطبية بدأت في المجتمع الإسلامي كدراسات وافدة لها مصادرها اليونانية والسريانية والفارسية والهندية وظلت كذلك لفترة حتى بدت وكأنها صناعة غير إسلامية وغير عربية يكاد أن يحتكرها أهل الذمة من غير العرب ، بل وتكاد تحتكرها أسر معينة يقوارثها الأبناء عن الآباء (١٨) ، وحتى كاد أن يستقر في أذهان العوام أنها صناعة لا يجيدها عربي أو مسلم . ومثلت تلك الظاهرة تحديا عقليا وحضاريا لا يمكن أن يقبله المسلم المثقف ، فسعى إلى تغييرها واثبات قدرة العقل العربي المسلم على التفوق في ميدان الطب . يروى لنا الجاحظ بأسلوبه الأدبي الناقد الساخر « أن طبيباً مسلماً عربياً اسمه « أسد بن جاني » لم يقصده في إحدى السنين الوثنية التي نشأ فيها المرض على الرغم من علمه المعترف به وحذقه ومهارته إلا القليل من المرضى ، ولما سأله أحد معارفه عن السبب في هذا أجاب : « أما واحدة فأنى عندهم مسلم ، وقد اعتقد القوم قبل أن اتطبيب بل قبل أن أخلق أن المسلمين لا يفلحون في الطب ، واسمى أسد وكان ينبغي أن يكون هلييا أو جبرائيل أو يوحنا أو بيرا (ويعنى بذلك أن يكون الاسم سريانيا أو آراميا ، وكنتى أبو الحارث وكان ينبغي أن تكون أبو عيسى أو أبو زكريا أو أبو إبراهيم ، ويعنى بهذا أن يكون مسيحياً أو يهودياً بدلاً من كونه مسلماً) وعلى رداء من قطن أبيض وكان ينبغي أن يكون رداء من حرير أسود ، ولفظى لفظ عربي وكان ينبغي أن تكون لغتى لغة أهل جنديسابور (وهى بلدة في الجنوب من فارس اشتهرت بالطب) » (١٩) .

كان الطب في بدايته أجنبى اللغة ، أجنبى الزى والمصادر ، وقد يكون هذا جاثراً في بداية الطب الإسلامي ، وطالما راعى هؤلاء الذميون الأعاجم أصول الصنعة وآدابها وأخلاقتها ، ولم يستغلوا تلك المهنة الاستغلال السيئ من أجل المزيد من الثروة والنفوذ . ولكن الأمر فيما يبدو لم يمتد غالباً على هذا المنوال ، إذ تطالعنا شواهد كثيرة على مخالفة آداب المهنة ، والسعي وراء مزيد من الثروة والنفوذ . ويكفى أن نذكر هنا قصة يوحنا بن ماسويه طبيب المأمون ، الذي نال من الثروة والنفوذ في

بلاط الخليفة ما لم ينله طبيب ، ومع ذلك لم يتورع عن خيانتة والاشتراك في قتله . يقول ابن أصيبعة نقلا عن الصولى في كتاب « الأوراق » قال : « كان المامون نازلا على البندنون (نهر من أعمال طرسوس) مجلس يومها وأخوه المعتصم عليه ، وجعلا أرجلهما فيه استبرادا له ، وكان أبرد الماء وأرقه والذه . فقال المامون للمعتصم : احببت السساعة من أراذ (نوع من التمز) العراق أكله وأشرب من هذا الماء البارد عليه ، وسمع صوت حلقة البريد وأجراسه ، فقبل هذا يزيد بن مقبل بريد العراق ، فاحضر طبقا من فضة فيه رطب أراذ ، فمجب من تهيئه وما تم له . فأكلا وشربا من الماء ونهضا ، وتودع المامون وأقال ، ثم نهض مخموما وفصد ، وظهرت في رقبته نفخة تعتاده ويراعياها الطبيب الى أن تفضج وتفتح وتبرأ فقال المعتصم للطبيب وهو ابن ماسوييه : ما أطرف ما نحن فيه تكون الطبيب المفرد المتوحد في صناعتك ، وهذه النفخة تعتاد أمير المؤمنين ، فلا تزيلها عنه وتتلف في حسم مادتها حتى لا ترجع اليه ، والله لئن عادت هذه الملة عليه لأضرب عنقك . فاستطرق ابن ماسوييه لقول المعتصم وانصرف . فحدث به بعض من يثق به ويأنس اليه فقال له : « تدري ما قصد المعتصم ؟ قال : لا ، قال : امرك بقتله حتى لا تعود النفخة اليه ، والا فهو يعلم أن الطبيب لا يقدر على دمسع الأمراض من الأجسام ، وإنما قال لك لا تدعه يعيش ليعود المرض عليه » . فتعالم ابن ماسوييه وأمر تلميذا له بمشاهدة النفخة والتردد الى المامون نياية عنه ، والتلميذ يجيئه كل يوم ويعرفه حال المامون وما تجدد له ، فأمره بفتح النفخة ، فقال أميذك بالله ، ما احمرت ولا بلغت الى حد الجرح ، فقال له : امض وافتحها كما أقول لك ، ولا تراجعنى ، فمضى وافتحها ومات المامون رحمه الله » . وبعد أن يورد ابن أصيبعة ذلك الواقعة يعلق عليها بقوله : « أقول : إنما فعل ابن ماسوييه ذلك لكونه عديما للزومة والدين والأمانة وكان على غير ملة الاسلام ، ولا له تمسك بدينه أيضا كما حكى عنه يوسف بن ابراهيم في أخباره المتقدمة ، ومن ليس له دين يتمسك به ويمتد فيه قالوا يجب الا يدانيه عاقل ولا يركن اليه حازم » (٢٠) .

وإذا كان ابن أصيبعة يورد لنا كثيرا من الأمثلة على جشع هؤلاء الأطباء عديمي المروءة والدين والأمانة ممن كانوا على غير ملة الاسلام فان ذلك لم يمنعه من أن يترجم للكثير منهم ، وان يعترف بفضلهم في ميدان الطب ، وان يذكر مؤلفاتهم الطبية . كذلك فعل البيهقي في كتابه تاريخ « حكماء الاسلام » ، اذ ترجم لأهل الاسلام كما ترجم لمن لم يمثل ملته بدون غرض أو هوى . فقد ترجم « لنحو عشرين منهم من أصل مائة وخمسة عشر حكيمًا وأعطاهم حقهم غير منقوص عادة لهم جزءا من أجزاء العلم الاسلامي ، ومنخرة من مفاخر تلك الأقطار ، كاهل صناعتهم من المسلمين حذو القذة بالقذة » (٢١) ، مما يدل على أن روح التعصب الديني لم تكن وراء هذا التحامل على هؤلاء الأطباء غير العرب أو المسلمين بل كان تقريرا للواقع . غير أن ذلك لم يمنع من وجود عدد من هؤلاء جمعوا بين العلم وأخلاق المهنة . ويسوق لنا ابن أصيبعة أمثلة على ذلك نرى أن نورد أحدها هنا وهي تتعلق بحنين بن اسحاق . فقد سمع الخليفة المأمون بعلمه فأمر بإحضاره ، وقرر له راتبا جيدا « وكان يسمح بعلمه ولا يأخذ بقوله دواء يصفه حتى يشاور فيه غيره . وأحب امتحانه حتى يزول ما في نفسه عليه ظنا منه أن ملك الروم ربما كان عيل شسيئا من الحيلة به . فاستدعاه يوما وأمر بأن يخلع عليه ، وأحضر توقيعا فيسبه اقتطاع يشتمل على خمسين ألف درهم ، فشكر له حنين هذا الفعل ثم قال ، بعد أشياء جرت ، أريد أن تصف لي دواء يقتل عدوا نريد قتله ، ولم يمكن اشهاره ، ونريده سرا . فقال حنين : يا أمير المؤمنين انى لم أعلم الا الأدوية النافعة ، وما علمت أن أمير المؤمنين يطلب منى غيرها ، فان أحب أن أمضى وأتسلم فعلت ذلك . فقال : هذا شيء يطول . ورغبه وهدده ، وهو لا يزيد على ما قاله ، الى أن أمر بحبسه في بعض القلاع ، ووكل به من يوصل خبره اليه ، وقتا بوقت ، ويوما بيوم فمكث سنة في حبسه ودأبه النقل والتفسير والتصنيف ، وهو غير مكترث بما هو فيه . فلما كان بعد سنة أمر الخليفة بإحضاره وإحضار أموال يرغبه فيها ، وأحضر سيفا ونطعا وسائر آلات العقوبات . فلما حضر قال : هذا شيء قد كان ، ولابد مما قلته لك ، فان أنت فعلت فقد فزت بهذا المال ، وكان

لك عندى اضعافه ، وان امتنعت قابلك بشر مقابلة ، وقتلتك شر قتلة .
فقال حنين : قد قلت لأمير المؤمنين انى لم احسن الا الشئ النافع ، ولم
اتعلم غيره . فقال الخليفة : فانى اتيتك . فقال حنين : لى ربي يأخذ بحقي
غدا فى الموقف الأعظم . فان اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه فليقبل .
فتبسم الخليفة وقال له : يا حنين طب نفسك وثق الينا ، فهذا الفعل كان
منا لامتحانك ، لانا حذرنا من كيد الملوك وأعجبنا لنتفيع بعلمك « . فقبل
حنين الأرض وشكر له ، فقال الخليفة : يا حنين ما الذى منعك من الاجابة
مع ما رأيته من صدق عزيمتنا فى الحالين فقال حنين : ثبيتان يا أمير
المؤمنين . قال : وما هما ؟ قال : الدين والصناعة . قال : كيف ؟ قال :
الدين يأمرنا بفعل الخير والجميل مع أعدائنا فكيف أصحابنا وأصدقائنا ،
وببعد ربحهم من لم يكن كذا ، والصناعة تمنعنا من الاضرار بأبناء الجنس
لأنها موضوعة لنفسهم ومقصورة على مصالحهم ومع هذا فقد جعل الله فى
رقاب الأطباء عهدا مؤكدا بايمان مغلظة أن لا يعطوا دواء قتالا ،
ولا ما يؤذى . فليسم أر أن أخالف هذين الأمرين من الشريعتين . ووطنيت
نفسى على القتل ، فان الله ما كان يضيع من بذل نفسه فى طاعته ، وكان
يثيبنى . فقال الخليفة : انهما لشريعتان جليلتان ، وأمر بالخلع فخلعت
عليه ، وحمل المال بين يديه ، وخرج عنده وهو أحسن الناس حالا
وجاها « (٢٢) .

واذا كان حنين قد اعتصم بدينه وأخلاق مهتته أمام هذا الاختبار
القاسى ، والذى يعكس الكثير من سوء الظن وخشية مؤامرات العدو
الرومى ، فقد كان هناك كثيرون آخرون يتاجرون بالمهنة ويتحكمون بها فى
حياة الناس ، نذلك كان من الطبيعى أن يتجه المسلمون الى العلوم الطبية
ويقبلون عليها دراسة وممارسة حتى يحولوها الى علوم عربية اسلامية ،
وأن يتجه الحكام المسلمون الى انشاء المدارس الطبية التى يتفرغ فيها
الطلاب المسلمون لدراسة الطب على يد أساتذة مسلمين (٢٣) . ولعل

المستنصر بالله « حين شرط أن يكون في مدرسته (المستنصرية) طبيب
حائز مسلم وعشرة أنفس مسلمين يشتغلون عليه . يعلم الطب ، إنما فعل
ذلك بعد أن رأى أهل الذمة قد استولوا على الطب واستفحل أمرهم
وأخذوا يفسدون هذا العلم بقصد الثراء » (٢٤) . وقس على ذلك سائر
المدارس الطبية والبيمارستانات الإسلامية التي أنشئت في كثير من
العواصم ، بحيث لم تمض مدة طويلة حتى زال هذا الاحتكار ، وأصبح
الطب عربى اللغة ، إسلامى الروح والتقاليد ، يقول داود الانطساكى في
مقدمة كتابه « تذكرة أولى الألباب » : « فأنى حين دخلت مصر ورأيت الفقيه
الذى هو مرجع الأمور الدينية يمشى الى أوضع يهودى للتطبيب به ، فعزمت
على أن أجعله كسائر العلوم يدرس ليستفيد به المسلمون » (٢٥) .

وبهذا الفهم الذكى وتلك الروح الجديدة كان الشافعى يقول :
« لا أعلم علما بعد الحلال والحرام أثبل من الطب » . وكان يستنكر إلا
يقبل المسلمون على دراسة الطب بهمة عالية ويقول : ضيعوا تلك العلم
وكلوه الى اليهود والنصارى . وكان يقول : أن أهل الكتاب قد غلبونا
على الطب . وحرص الشافعى مع عظمتة في علم الشريعة وبراعته في
العربية أن يكون بصيرا بالطب (٢٦) . ولقد كانت ثمرة هذا الحماس لتقريب
الطب وتعميمه بين المسلمين ، أن أصبحت « المعلومات الطبية » شائعة
بين الناس يتداولها المثقفون العاديون . وهذا هو المتنبي يصاب بالحمى
وهو في مصر فيصفها وصف العارف بأعراضها ، الخبر يعلاماتها
فيقول : (٢٧)

وزائرتى كان بهما حياء . : فليس تزور الا فى الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا . : فعافتها وبانت فى عظامى
يضيق الجلد عن نفس وعنها . : فتوسعه بأنواع السقام
إذا ما فارقتنى غسلتنى . : كأننا عاكفان على حرام
كان الصبح يطردها فتجرى . : مذامعها بأربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق . : مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شر . : إذا الشاك فى الكرب العظام

وابن بطران الطبيب يؤلف في الطب بأسلوب أدبي وقصص ممتنع كتاب : « دعوة الأطباء على مذهب كليلية ودمنة » فيمزج الطب بالأدب ، ويقر به الى القارئ العادي (٢٨) . وبذلك تحول الطب من علم أجنبي الى علم عربي اسلامي يستفيد به المثقف العادي فضلا عن أصحاب التخصص وطلاب الصنعة . واذا كان الجيل الاول من الأطباء المسلمين كانوا يقدرون انفسهم اشبه بتلامذة للقدمات الاغريقيين في حين أنهم وصلوا الى نتائج جديدة رائعة ، فان الأجيال التالية قد أدركت أنها قادرة على الإبداع والوصول الى ما لم يصل اليه الاغريق من قبلهم ، وصاروا يهدون انفسهم استمرازا لانجازات أساتذتهم المسلمين دون سواهم (٢٩) .

بحوار هذه الدوافع الأدبية والاجتماعية والدينية التي دفعت الكثيرين الى دراسة الطب ، كان هناك الدافع المادي والاقتصادي ممثلا في هذا العطاء السخي الذي كان يناله الطبيب في صورة أجور وهدايا وتلك المنزلة العالية التي كان يهتلها لدى العامة والخاصة والحكام . وتمتلىء صفحات « عيون الانبياء » لابن أصيبعة بهذه الأجور والهدايا التي نالها الأطباء من العامة والخاصة على السواء (٣٠) . فلا غرابة أن يترك محمد ابن زكريا الرازي صناعة الذهب ويتجه الى دراسة الطب . يروي البيهقي « كان محمد بن زكريا الرازي في بدء أمره صائغا ثم اشتغل بعلم الاكسبر ، فذهب الى طبيب ليعالجه » فقال له الطبيب : لا أعالجك حتى آخذ منك خمسمائة دينار . فدفع ابن زكريا الى الطبيب الدنانير ، وقال هذا هو الكميناء لا ما اشتغلت به . فترك صناعة الاكسبر ، واشتغل بعلم الطب ، حتى نسخت تصانيفه تصانيف من قبله من الأطباء المتقدمين » (٣١) . كذلك نال الأطباء الخطوة لدى الحكام والأمراء وذوى النفوذ ، وتبع ذلك كثير من المزايا المادية والأدبية . يقول نظامي العروضي السمرقندي في أهمية الطبيب بالنسبة للحاكم : « فتوأم الملك بالكاتب ، وتخليد الاسم بالشاعر ، ونظام الأمور بالمنجم ، وصحة البدن بالطبيب » (٣٢) ولعل خير ما نختم به هذا البحث هو قول الرازي في هذا الشأن « ولو لم يكن لصناعة الطب وللاطباء من الفضل الا ما أنا ذاكره لكانت فيه كفاية . فإنه

قد اجتمع لهم خمس خصال لم تجتمع لغيرهم : الاولى اتفاق أهل الملل والاديان على تفضيل صناعتهم . والثانية : اعتراف الملوك والسوق بشدة الحاجة اليهم ، اذ هم المزرع والغياث ، حين لا ينفع عدة ولا عشيرة . والثالثة : مجاهدة ما غاب عن ابصارهم (من الامراض) ، والرابعة : اهتمامهم الدائم بادخال السرور والراحة على غيرهم . والخامسة : الاسم المشتق من أسماء الله تعالى . ولولم يكن من فضل الطبيب الا أن الانسان ربما يتشوق اليه حين يسأم أكرم الناس اليسه وأخصهم لديه ، فانه في العلل الصعبة ربما كره الانسان لقاء أهله وولده ويشتاق الى الطبيب ، ويتروح برؤيته ، وتطيب نفسه بحضوره ومشاهدته ، لكان فيه مندوحة عن غيره » (٢٣) .

ثانيا : التعليم الطبي بين التخصص العميق والتخصص الضيق :

ان الدارس للطب الاسلامي سوف يلاحظ أن أعلامه لم يكونوا من أصحاب التخصص الضيق الذين يقتصرون على معرفة علومهم التخصصية فقط ، بل نراهم الى جوار ذلك أدباء وفلاسفة ورياضيين وعلماء فلك النج . ويخطيء براون عندما يرجع ذلك الى مجرد أن جملة المعارف لم تكن حينئذ من الضخامة بحيث تتحدى قدرة شخص واحد على الاستيعاب ، وأنه لذلك فنادرا ما كنا نجد طبيبا في العصر الوسيط (يقصد العصر الاسلامي هنا) يقتنع بأن يقتصر اهتمامه على العلوم الطبية وحدها أو لا يرغب أن تشمل دراسته الفلك والتنجيم والموسيقى والرياضة بل والأخلاق وما وراء الطبيعة والسياسة (٢٤) . وذلك أن تلك الظاهرة لا تعود الى قلة معارف العصر فقط ، بل الى طبيعة النظرة الاسلامية الى وحدة المعرفة وترابط العلوم . اذ تعرض لنا كتب تصنيف العلوم الاسلامية هذه العلوم في صورة شجرة واحدة متعددة الفروع والأغصان ولكنها جميعا تزيد الانسان معرفة بالله وقربا منه . وهذا التصور الاسلامي للمعرفة نراه بوضوح عند دراستنا لمصنفات مثل احصاء العلوم للفارابي ، ورسائل اخوان الصفا ، ومفاتيح العلوم للخوارزمي وغيرها من المؤلفات (٢٥) . وهو تصور يستند الى نصوص اسلامية مثل قوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي

أنفسهم » (فصلت : آية ٥٣) . ولا شك أن هذا التصور الاسلامى يختلف عن النظرة التخصصية الضيقة التى سادت العصر الحديث ، والتى سخر أحد العلماء من جدواها قائلا : « انها معرفة الأكثر والأكثر عن الأقل والأقل » (٢٦) . ولقد كانت تلك النظرة التخصصية الضيقة سببا فى عزل « العلم الحديث » عن النظرة الشاملة الى الكون والحياة والانسان وعلاقة ذلك كله بالله (٢٧) .

لقد أدرك المسلمون مبكرا العلاقة بين العلوم بعضها ببعض ، وأن التخصص لا يعنى انفصال هذه العلوم ، بل ان بعض العلوم ضرورى لدراسة البعض الآخر ، وفى ذلك يقول ابن سينا : « تعاون العلوم هو ان يؤخذ ما هو مسألة فى علم مقدمة فى علم آخر ، فالعلم الذى فيه المسألة معين للعلم الذى فيه المقدمة . وهذا على وجوه ثلاثة : أحدها ، أن يكون أحد العلمين تحت الآخر فيستفيد العلم السافل فى مبادئه من العالى مثل الموسيقى من العدد والطب من الطبيعى والعلوم كلها من الفلسفة الأولى ، وأما أن يكون العلمان متشاركين فى الموضوع كالطبيعى والنجومى فى جرم الكل ، فأحدهما ينظر فى جوهر الموضوع كالطبيعى والآخر ينظر فى عوارضه كالنجومى ، فان الناظر فى جوهر الموضوع يفيد الآخر المبادئ مثل استفادة المنجم من الطبيعى أن الحركة الفلكية يجب أن تكون مستديرة ، وأما أن يكون العلمان متشاركين فى الجنس وأحدهما ينظر فى نوع بسيط كال حساب والآخر فى نوع أكثر تركيبا كالهندسة ، فان الناظر فى الأبسط يفيد الآخر مبادئ كما يفيد العدد الهندسة مثل ما فى عاشرة اقليدس » (٢٨) . ولذلك فان الدارس للطب كان يجد نفسه محتاجا الى ان يقرأ قراءات واسعة فى شتى العلوم والمعارف التى تخدم مهنته بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . وهذا هو التخصص العميق وليس مجسرد التخصص الضيق الذى ساد عصرنا الحديث . يقول عبد المجيد عابدين فى تقديمه كتاب : « مقدمة فى تاريخ الطب العربى » : « ولعل هذا الكتاب خير دليل نسوقه الى الذين انزوا فى قمتهم التخصص الضيق لا يغادرونه الا لما . فالعلماء الذين لا يعرفون من الأدب والتاريخ الا اخبارا طائفة

لا غناء عنها ، والادباء والمؤرخون الذين لا يعرفون من العلوم وتاريخها
الا معرفة خاطفة باهته لا تفرق كثيرا عن الجهل ، هؤلاء وأولئك جميعا
لا ينهجون الطريقة المثلى ، ولا يزال تطور المعرفة يثبت لنا يوما بعد يوم
أن المعرفة الانسانية شبكة متصلة لا يغنى بعضها عن بعض . ولست
اعنى بهذا أن يكون المثقف متخصصا في كل علم وفن . فهذا لا سبيل الى
القول به ، بل اننى أعلم علم اليقين اننا الآن في عصر شعاره التخصص
العميق ، ولكن التخصص العميق كما نفهمه لن يؤتى ثمرته المرجوة الا اذا
اتخذنا من المعرفة البشرية الواسعة وسيلة الى تحقيق هذا التخصص .
ويفرق بين التخصص الضيق وهذا التخصص العميق الذى نقصده . ولن
يتاح للمتخصص هذا العمق الا اذا اتخذ من تخصصه محورا لدائرة
واسعة من المعرفة تشمل كل ما تصل اليه طاقته من ألوان الثقافات
القديمة والحديثة العربية وغير العربية « (٢٩) » .

ولقد ساعد على ذيوع تلك النظرة المتميزة في دراسة العلوم ، دين
يجعل طلب العلم من المهد الى اللحد ، وادبيات تربوية تهتج الطالب على
التوسع في العلوم والمعارف بقدر ما يستطيع ، ومجتمع يجزل العطاء
للأفراد بقدر ما يتقنون من علوم ومعارف متعددة . يقول رسول الله صلى
الله عليه وسلم : « لا بورك لى فى صحبة لا ازداد فيها علما » ويقول
تعالى : « وقل رب زدنى علما » (طه ، آية ١١٤) « وغوى كل ذى علم
عليم » (٤٠) (يوسف ، آية ٧٦) . ويقول طائى كبرى زاده « ووجه طالب
العلم فى عصره : « ثم انك ان اخطرت بالبال ، أيها الطالب للفضيل
والكمال ، ان البنون كثيرة ، وتحصيل كلها بل جلها يسيرة ، مع أن مدة
السمر قصيرة ، وتحصيل آلات التحصيل عسيرة ، فكيف الطريق الى
الخلاص من هذا المضيق ، فتأمل فيما قدمت اليك من العلوم اسما ورسمها ،
وموضوعا ونفعا ، وفيما اخترت من التفصيل فى طريق التحصيل ، ومن
آداب بها فرس التمنى يثر . . فان سهل عليك تحصيل تلك العلوم كلها
فحبذا وقل : « الحمد لله الذى هدانا لهذا » (الأعراف : آية ٤٣) كما
قال أفلاطون : ما من علم مستقبح الا والجهل به أقبح ، وما قال
القائل :

أحرص على كل علم تبلغ الأمسلا ولا تهوتن بعلم واحد كسلا
النحل لما رعت من كل فاكهة أبدت لنا الجوهرين الشمع والعسل
الشمع في الليل ضوء يستضاء به والشهد يبرى بأذن البارئ العلاء
وان أمجلك الوقت وخشيت ان يخترمك الشواغل بالفوئ ، فخذ
ما قال القائل :

ما حوى العلم جميعا أحد لا ولو مارسه ألف سنة
إنما المسلم منيع غوره فخذوا من كل علم أحسنه « (٤١)

ولقد كتب هارون الرشيد الى الأمصار بغطاء كل متعلم على قسدر
عليه في رسالة وجهها الى الأمصار يقول فيها : « أما بعد : فانظروا من
القرن الأذان عندكم فاكثبوه في ألف من العطاء ، ومن جمع القرآن واقبل
على العلم وعمر مجالس العلم ومقاعد الأدب فاكثبوه في ألفي دينار من
العطاء ، ومن جمع القرآن وروى الحديث وثقة في العلم واستبحر فاكثبوه
في أربعة آلاف من العطاء ، وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا
الأمر من المعروفين بة من علماء عصركم وفضلاء دهركم فاسمعوا قولهم
وأطيعوا أمرهم فان الله تعالى يقول : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول
وأولى الأمر منكم » (سورة النساء : الآية ٥٩) وهم أهل العلم « (٤٢) ورغم
اشتهار كل عالم بفرع أو أكثر من فروع العلم كالطب والهندسة أو الفلك
أو الفقه أو الأدب ... (٤٣) الخ ، ورغم أنه على أساس تلك الشهرة ،
كان ينال الحظوة من الأمراء والكبراء ، إلا أن كتب الحضارة الإسلامية
تذكر أنه كان لكل طائفة من العلماء رزق محدود من لدن الأمراء ، وأن
بعض العلماء كان يأخذ رزقا أكثر من طائفة واحدة أمثال الزجاج المتوفى
عام ٣١٠ هـ فقد كان له رزق في الندماء ، ورزق في الفقهاء ، ورزق في
العلماء (٤٤) . وكان سيف الدولة بن حمدان « اذا أكل الطعام حضر
على مائدته أربعة وعشرون طبيبا ، وكان بينهم من يأخذ رزقين لأجل
تعاطيه علمين ، ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم ، وكان من جملته
عيسى الرقي المعروف بالتفليسي ، وكان مليح الطريقة وله كتب في المذهب
وغيرها . وكان ينقل من السرياني الى العربي ، ويأخذ أربعة أرزاق ،

ورزقا بسبب الطب ، ورزقا بسبب النقل ، ورزقين بسبب علمين آخرين » (٤٥) . بل ان مدى ما يتقن الانسان من علوم كان احد العوامل التى تؤثر حتى على ثمن الجوارى . فقد عرضت جارية موهوبة للبيع على هارون الرشيد بثمن باهظ ، ووافق الخليفة على دفع هذا الثمن بشرط أن تجيب الجارية على أى سؤال يوجهه اليها أعلم الحاضرين فى تلك الفروع من المعرفة التى كانت تدعى النبوغ فيها . وبدأ كبار علماء الدين والتفسير والطب والفلك والفلسفة والبلاغة والشطرنج يمتحنونها الواحد تلو الآخر ، وفى كل فرع من هذه الفروع لم تكف الجارية بإجاباتها البارعة ، على كل ما وجه اليها من أسئلة ، ولكنها كانت تطرح على أستاذ كل فرع فى نهاية الامتحان عددا من الاسئلة لم يحرلها جوابا . وكان الامتحان الخاص بالطب يشتمل على موجز علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء وتشخيص الأمراض من واقع الأعراض ، وعلم الأمراض والصحة والتغذية الى غير ذلك من فروع الطب (٤٦) . واذا كان هذا هو تقدير المجتمع لثقافة الجوارى ، فماذا عن تقديره لثقافة العلماء ؟ وهل نستغرب بعد ذلك هذا الاقبال على التخصص العلمى بالمعنى العميق ، وهذا التبحر فى علوم الطب وغيرها من العلوم الخادمة أو المساعدة ؟ وهل انضح لنا بعض اسرار هذا التفوق العلمى فى ميدان الطب الذى حققه العلماء المسلمون فى مدة وجيزة ، بحيث حولوا العلوم الطبية من دراسات دخيلة الى علوم عربية اسلامية أصيلة ؟ .

ثالثا - مؤسسات التعليم الطبى :

بعد أن تحدثنا عن العوامل المادية والأدبية التى دفعت الى دراسة الطب ، وبعد أن بينا أن الاتجاه الى تعليم الطب كان اتجاها يأخذ بالتخصص العميق ، نريد أن نعرض هنا لأهم المؤسسات التربوية التى مارست هذا التعليم الطبى .

١ - المستاجد :

منذ أنشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده فى المدينة كمكان للعبادة والتعليم وإدارة شئون المسلمين (٤٧) ، ومنذ نزل قوله تعالى :

« الذين ان مكنهم في الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور » (الحج ، الآية ٤١) ، أصبح تقليدا اسلاميا أن يهتم الحكام المسلمون بانشاء المساجد كرمز لقيام دولة الاسلام وسيادته على الاقطار الداخلة فيه . وتمثل المساجد الجامعة الكبيرة في العواصم الاسلامية رموزا حضارية لسيطرة الاسلام السياسية والدينية والثقافية ، وكانت تلك المساجد عبر العصور أماكن علم وعبادة وقيادة وتوجيه ، ويذكر المؤرخون أمثلة لذلك : جامع عمرو بن العاص بالفسطاط الذى أنشئ سنة ٢١ هـ ، وجامع العسكر الذى أنشئ عام ١٣٣ هـ وجامع أحمد بن طولون الذى أنشئ عام ٢٥٩ هـ ، والجامع الأزهر الذى أنشئ عام ٣٦١ هـ ... الخ (٤٨) . اذ كانت هذه المساجد الجامعة مركزا للنشاط الدينى والاجتماعى ، ومكانا للاحتفالات الدينية فى الأعياد والمناسبات الاسلامية ، ومقرا لرجال القضاء والخسبة يباشرون منه تنفيذ أحكامهم ، ومؤسسة للتعليم بشتى أنواعه العقلية والعقلية ، يجلس بجوار أعمدته الأساتذة والمعلمون فيلتف الطلاب حولهم وينهلون من علومهم ومعارفهم . ولعل فيما يذكره ابن تغرى بردى ، والمقرئى عنها كان يدور فى الجامع الأزهر أن يعطى صورة عامة عما كانت تعج به تلك المساجد الجامعة من أوجه النشاط الدينى والثقافى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى (٤٩) .

وبجوار هذه المساجد الجامعة فى العواصم ، انتشرت المساجد فى مدن العالم الاسلامى ، وقراه ، لكى تقوم بدورها الدينى والتربوى فى حياة المسلمين (٥٠) . ولقد اشرنا فى الفصل السابق الى دور المسجد فى التعليم الابتدائى ، ويهنا هنا أن نبرز دوره فى التعليم الأعلى المتخصص Further Education ، وبالذات التعليم الطبى موضوع الدراسة . فقد يظن البعض أن « التعليم الطبى » كان خارج اهتمام دائرة المساجد ، لأن علم الطب كان نوعا من مروع « العلم الطبيعى » وهو من العلوم العقلية لا العقلية ، او على أساس أن دراسة الطب تحتاج الى أدوات وتجهيزات خاصة ، وممارسات عملية ليس مكانها المسجد ، ولكن هناك إشارات عديدة تنفى ذلك ، وتؤكد أن أعلام الطب الاسلامى قد مارسوا

تدريس الطب في المساجد الجامعة وغير الجامعة ، فالمبتهى عند ترجمته للقاضى الفيلسوف محمد الأفضل عبد الرازق يقول : « وكان القاضى عبد الرازق ببخارى يدرس في مسجد محلته الطب والحساب حتى توفى بها ، وكان محترماً مكرماً » (٥١) . وابن أصيبعة يذكر أن موفق الدين عبد اللطيف البغدادي كان يدرس الطب في الجامع الأزهر طوال مدة إقامته في مصر . وينقل عن سيرته الذاتية التى كتبها البغدادي نفسه : « وكانت سيرتى في هذه المدة ، اننى أقرئ الناس بالجامع الأزهر من أول النهار الى نحو الساعة الرابعة ، ووسط النهار يأتى من يقرأ الطب وغيره ، وآخر النهار أرجع الى الجامع الأزهر فيقرأ قوم آخرون ، وفي الليل أشتغل مع نفسي » (٥٢) . ولقد نزل البغدادي مصر في عهد صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٣ هـ ، وظل بها حتى سنة ٥٩٧ هـ ، واشتغل في تلك الفترة بالتدريس ودراسة الخواص النباتية والطبيعية ومزاولة الطب ، والثناء حوله جمهرة من الاساتذة والطلاب (٥٣) . ومثل هذه الشواهد تؤكد ان الطب عندما عرب ، واشتغل به الأطباء المسلمون ، فانهم ادخلوه ضمن فروع العلم الاسلامى ، أو شجرة المعرفة الاسلامية ، ومن ثم وجد طريقته الى المسجد ، اهم المؤسسات التعليمية في حياة المسلمين . ومن المرجح أن يكون « التعليم الطبى » الذى مارسه العلماء في المساجد مقتضرا على « الجانِب النظرى » من الدراسات الطبية ، تاركين الجانب العملى والتطبيقى الى المدارس والبيمارستانات . ويظل التعليم الطبى يدرس في رحاب المسجد بصورة أو بأخرى طوال العصور الاسلامية وحتى مطلع العصر الحديث ، عندما يصبح « التعليم الطبى » مقتصراً مرة أخرى باللغة الأجنبية ، وبالأخذ من مصادر غير عربية أو اسلامية ، وعندما يسود الاعتقاد الخاطىء ان المساجد للعبادة ، وللتعليم الدينى فى أجسن الأحوال ، أما العلوم الحديثة فلها مؤسساتها المستحدثة المأخوذة عن الغرب (٥٤) . وهنا يتفصل الطب عن شجرة « المعرفة الاسلامية » ، وينمو بعيداً عن « روح المسجد » وهيئة تعاليم الاسلام وسيطرة اللغة العربية على أبحاثه ودراساته .

٢ - المدارس الطبية :

ظهرت المدارس كمؤسسات تعليمية متخصصة في تقديم الوان العلوم العقلية والعقلية ومنها الطب ، ووقف الدارسون امام ظهورها محاولين تفسير اسبابه ، ولماذا لم يكتف المسلمون بالمساجد لتحقيق تلك الغاية ؟ وراوا ان ظهورها كان تطورا طبيعيا لتنوع العلوم وشدة اقبال الناس على حلقات العلم حتى جفلت كثير من المساجد بعدة حلقات دراسية لا بحلقة واحدة ، وكان ينبعث من كل حلقة من هذه الحلقات صوت المدرس يلقى الدرس ، واصوات الطلاب يسألون ويناقشون وكانت تتلاقى الاصوات المتصاعدة من الحلقات المختلفة فتحدث في المسجد شيئا قليلا أو كثيرا من الضجيج يمنع الصلاة والعبادة من أن تؤدي على وجهها ، وشيء آخر هو ان العلوم تطورت بتطور الزمن وتقدم المعارف وأصبحت هناك مواد تستدعي دراستها كثير من الحوار والنقاش والجدل كعلم الكلام وعلم الجدل والمناظرة ، ومثل هذه المواد تنافي طبيعة تدريسها مع ما يجب ان يكون عليه رواد المساجد من هدوء وجلال ، ثم تبعا لرأى Von Kremer « كان هناك جماعة اشتغلوا بالتعليم معظم وقتهم وحاولوا ان يرتزقوا عن طريق حرف بسيطة كانوا يقومون بها مع التدريس ولكنهم فشلوا في الحصول على مستوى مناسب من العيش ، فلم يكن بد حينئذ من انشاء المدارس لتضمن لهم جرايات تقوم بحاجاتهم » (٥٥) . ورغم وجاهة هذه الاسباب السابقة الا انها تتغافل السبب الجوهرى الذى يتمثل فى « روح الخير العسام » الذى يسود المجتمع الاسلامى ، والذى يلتمس افضل ابواب الاتفاق فى سبيل الله ، وافضل اسباب الحصول على رضا الله . ولا شك ان الاتفاق على نشر العلم والتعليم كان من أهم ابواب هذا الاتفاق - يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، او علم ينتفع به ، او ولد صالح يدعو له » . وفهم المسلمون ان الوقف على التعليم هو افضل انواع الصدقات الجارية فظهرت الأوقاف التعليمية وزادت إيراداتها ، واندفع الخلفاء والأمراء والأثرياء والعلماء الى انشاء أنواع متعددة من المدارس يتفرغ فيها الطلاب والاساتذة لدراسة علوم معينة يحددها (م ٨ - الاعداد التربوى للطبيب)

الواقف (٥٦) . ولقد امتاز التعليم في المدارس بأنه تعليم نظامى طولى الوقت (٥٧) Full time ويقول « خودابخش » : « ان عددا كبيرا من الطلاب كان يسكن هذه المدارس التى يمكن تشبيهها بالكليات الداخلية في جامعتى أوكسفورد وكمبريدج » (٥٨) .

ولقد كانت معظم هذه المدارس آية من آيات الفن الإسلامى انفقت في بنائها الأموال الطائلة وحُبست عليها الأوقاف العظيمة ، وجعلت الرواتب السخية لأساتذتها وطلابها والموظفين بها . فمدرسة السلطان حسن (٧٥٧ هـ) على سبيل المثال تعد من أعظم الآثار الإسلامية في العالم وأروعها في مصر . وتلخص لنا واجهتها الرئيسية جميع خصائص الفن الإسلامى . ففيها الخط الكوفى والخط النسخى وفيها الزخارف التى نقلها المسلمون من الأمم والزخارف التى ابدعوها وصارت من أخص مميزات فنهم (٥٩) . وتصميم المدرسة من الداخل وما به من أفنية ومبان رائعة يعطى صورة جيدة لتصميم المبانى المدرسية ، ومحتويات المبنى الدراسى . ونفس الصورة نجدها في تصميم المدرسة المستنصرية وما اشتملت عليه من حمامات ومطابخ وحدائق وساعة عجيبة الصنع عملت لترشد الناس الى أوقات الصلاة والدراسة كما أنها عملت بشكل غريب لطيف لتكون زينة تخلى باب المدرسة . ولقد استوقف جمال هذه الساعة أنظار المؤرخين فنقلوا لنا وصفها واسم صانعها نور الدين على بن تغلب الساعاتى . ويقول صاحب الحوادث الجامعة : « وقى سنة ٦٣٣ هـ تكامل بناء الأيوان الذى أنشئ مقابل المدرسة المستنصرية وعمل تحته صفة يجلس فيها الطبيب وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه بعلم الطب ، ويقصده المرضى ويدأويهم ، وبنى في حائط هذه الصفة دائرة وصور فيها صورة الفلك وجعل فيها طاقات لحاف لها أبواب لطيفة ، وفي الدائرة بازان من ذهب في طابستان من ذهب ، وراءهما بندقتان من شبه (نحاس يصبغ فيصفر ويشبه الذهب بلونه) لا يدركهما الناظر . فعند مضي كل ساعة يفتح فما البازين ويطلع منهما البندقتان وكلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطاقات ، والباب من ذهب فيحير حيثئذ مفضضا ، وإذا وثبتت البندقتان في الطابستان تذهبان الى موضعهما ثم تطلع أقمار من ذهب

في سماء لازوردية في ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقية ، وتدور مع دوراتها وتغيب مع غيوبتها فإذا جاء الليل فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها كلها تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر ، ثم يبتدىء في الدائرة الأخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس فيعلم بذلك أوقات الصلاة » (١٠) . كذلك نلاحظ أن المسجد كان يمثل جزءا هاما من المبنى المدرسي ، وأن افتتاح المدرسة كان يؤرخ له بتاريخ أول صلاة أقيمت فيها . فعند التاريخ لافتتاح مدرسة الطب التي أنشأها مهذب الدين يقول ابن أصيبعة : « وأبتدا بالصلاة في هذه المدرسة يوم الجمعة صلاة العصر ثامن ربيع الأول سنة ثمان وعشرين وستمئة » (١١) . ولا شك أننا لو درسنا تصميم المباني المدرسية الإسلامية وما اشتملت عليه من مرافق ، وما روعي فيها من أصول هندسية وفنية وإسلامية ، لاستفدنا كثيرا في تطوير تصميمات حديثة لمدارسنا نراعى فيها تلك القيم الجمالية والإسلامية .

ويروى لنا المؤرخون أن علماء ما وراء النهر أصابهم الهم والحزن عندما كوشفوا ببناء المدارس ببغداد ، وأنهم أقاموا مأتم العلم وقالوا : كان يشغل به أرباب الهمم العالية والآنفس الذكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به فيأتون علماء ينتفعون بهم ويعلمهم ، ، وإذا صار عليه اجرة تدانى اليه الأخساء وأرباب الكسل (١٢) . إلا أن هذا الخوف سرعان ما تبدد ، إذ ارتفع أكثر علماء المدارس وطلابها الى مستوى المسئولية العلمية ، ومارسوا واجبه العلمى دون الخضوع لاهواء الحكام ، بحيث كانوا محترمين لهم كرامة وحرمة ، يسمى اليهم الخلفاء والملوك والأمراء وهم لا يسمعون الى أحد منهم (١٣) . وبذلك انتشرت المدارس انتشارا كبيرا ، حتى أن المقرئى يذكر لنا ثلاثا وستين مدرسة كانت في القاهرة وحدها ، والرجالة ابن جبر يصف لنا حوالى ثلاثين مدرسة كانت في بغداد ، وكانت جميعها تفوق أجمل القصور جمالا وروعة (١٤) . والنعمى الدمشقى يفرد مؤلفا خاصا يصف فيه مدارس دمشق وحدها (١٥) . ويهنا أن نلفت النظر هنا الى توفر التجهيزات العلمية لتلك المدارس وبالذات المدارس الطبية موضوع الدراسة ، ونسبة المدرستين الى عدد الطلاب ، والمستوى

المعيشى الجيد للطلاب والعلماء . ويكفى أن نذكر هنا أنه في مدرسة الطب بالمستنصرية ، كان هناك طبيب ، يعلم عشرة طلاب فقط ، وكان هذا الطبيب مسئولاً عن علاج طلاب وأعضاء هيئة تدريس المستنصرية بمدارسها المختلفة ، مما يعتبر مجالاً حيويًا له ولتلاميذه لإجراء التجارب ومعالجة المرضى ، كذلك ضمت المستنصرية دار كتب عابرة بأنواع المؤلفات بلغ عددها عند الافتتاح ثمانين ألف كتاب عدا ما حمل إليها بعد ذلك ، وكانت هذه الدار تساعد طلاب المستنصرية على النسخ والمطالعة والتأليف ، كذلك فقد توفرت للطلاب والعلماء المستوى المادى والأدبى والحرية العلمية مما أتاح لهم التفرغ للعلم والبحث (١٦) .

كذلك ينبغي الإشارة هنا إلى أن إنشاء المدارس لم يكن عملاً حكومياً رسمياً فقط ، وأن الحركة الواسعة التى قام بها نظام الملك في بلاد الشام ، وصلاح الدين الأيوبي في مصر من إنشاء عدد كبير من المدارس لا يمكن أن يحجب الحقيقة ، وهى أن الأفراد أيضاً قد أنشأوا الكثير من المدارس ومنها المدارس الطبية ، ولقد سبق أن ذكرنا كيف أن المسلمين قد أدركوا الحاجة إلى تعريب التعليم الطبى والحاجة إلى كسر احتكار غير العرب والمسلمين لصناعة الطب مما دفعهم إلى الاهتمام بإنشاء المدارس الطبية حكماً وأفراداً . وكان بعض الأطباء مثل رضى الدين الرجبى « يرى أن لا يقرئ أحد من أهل الذمة أصلاً صناعة الطب ، ولا أن يجده أهلاً لها . وكان يعطى الصناعة حقها من الرئاسة والتعظيم . وقال لى أنه لم يقرئ في سائر عمره من أهل الذمة سوى اثنين لا غير أحدهما الحكيم عمران الأسرائيلى والآخر إبراهيم بن خلف السامري بعد أن ثقلاً عليه بكل طريق وتشغلاً عنده بجهات لا يمكن ردهم . وكل منهما نبغ وصار طبيباً فاضلاً » (١٧) . ومما يدل على أن إنشاء المدارس الطبية لم يقتصر على الطبقات الحاكمة ما رواه ابن أضيعة في ترجمة شرف الدين الرجبى : « ولما وقف شيخنا مهذب الدين عبد الرحيم بن على رحمه الله الدار التى له بدمشق وجعلها مدرسة يدرس فيها صناعة الطب وانتفع المساهون بقراءتهم فيها » أوصى أن يكون مدرستها شرف الدين بن الرجبى ،

لما قد تحققت من علمه وفهمه ، فتولى التدريس بها مدة ... الخ « (٦٨) ، ثم صار المدرس فيها بعد الحكيم بدر الدين المظفر رئيس الأطباء في ذلك الوقت (٦٩) . ولقد وقف مذهب الدين لتلك المدرسة « ضياعا وعدة أماكن يستغل ما ينصرف في مصالحها ، وفي جامكية المدرس وجامكية المستغلين بها » (٧٠) .

ويقف أحمد شلبي عند ظاهرة قلة عدد مدارس الطب ، بالقياس الى عدد المدارس الأخرى ، ويرجع ذلك الى أن الطب كان لا يدرس في مدارس خاصة الا قليلا ، والغالب أن يدرس في المستشفيات ليتمكن التطبيق العملي للنظريات الطبية التي يلقيها الأساتذة على الطلاب (٧١) . ويمكن أن يضاف الى ذلك أن عدد المؤسسات التعليمية الطبية إنما يتوقف على مقدار حاجة المجتمع الى عدد معين من الأطباء ، وهو عدد أقل عظاما من عدد غيرهم من المثقفين . ولعل في وجود ستة آلاف دارس للطب وحوالي ألف ممارس طبي في بغداد وحدها (٧٢) ، ما يكفي لكي يجعل الواقفين يتجهون بأوقافهم الخيرية الى مؤسسات تعليمية أو خدمات اجتماعية أخرى يشعرون بحاجة المجتمع اليها أكثر وأكثر . كذلك فإنه مع تعريب التعليم الطبي وتيسيره للدارسين ، دخل الطب المساجد ، وعقدت له حلقات في منازل الأطباء ودور الكتب وغيرها من مؤسسات التعليم ، مما قلل الحاجة بالفعل لتخصيص مزيد من الأوقاف لإنشاء « مدارس الطب » ، وهذا يفسر لنا لماذا جاءت « مدارس الطب » أقل عددا من غيرها من المدارس في المراجع والمصادر العربية . ولكنها على كل حال ، قللة تلغى دورها كمؤسسة تخصصت في تقديم التعليم الطبي .

٣ - البيمارستانات :

كلمة البيمارستان ، كلمة فارسية مركبة من كلمتين (بيمار) بمعنى مريض أو عليل أو مصاب ، (وستان) بمعنى مكان أو دار ، فهي إذن دار المرضى ، ثم اختصرت في الاستعمال فصارت بيمارستان كما ذكرها الجوهري في صحاحه (٧٣) . ويرى المسلمون أن إمبراطور كان أول من اخترع البيمارستانات وأوجدتها ، وذلك أنه عمل بالترب من داره في موضع

من بستان كان له موضعا مفردا للمرضى وجعل فيه خدما يقومون بمداواتهم وسماه أخصندوكين ، أى مجمع المرضى (٧٤) . أما فى الاسلام ، فان الوليد ابن عبد الملك الخليفة الأموى (فى سنة ٨٨ هـ / ٧٠٦ م) يعتبر أول من بنى البيمارستان ، وجعل فيه الأطباء وأجرى لهم الأرزاق ، وأمر بالحجر على المجذومين لئلا يخرجوا فتنتشر العدى بين الناس ، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق (٧٥) . ومنذ هذا التاريخ أصبح بنساء البيمارستانات عملا من أعمال الخير يقوم به الخلفاء والسلطين والملوك والأمراء وأهل الخير على العموم صدقة ، وحسبة ، وخدمة للإنسانية وتخليدا لذكراهم (٧٦) . وانتشرت البيمارستانات فى كل العواصم العربية والاسلامية فى مرو والرى ودمشق وإنطاكية ومكة والمدينة والقاهرة والقروان ومراكش وغرناطة وغيرها (٧٧) . ولدينا معلومات موثقة على نحو أربع وثلاثين من هذه المؤسسات الموزعة فى أرجاء العالم الاسلامى من ايران الى المغرب ومن شمال سورية الى مصر (٧٨) . لعل من أشهرها بيمارستان المقتدرى والسيدة فى بغداد وبيمارستان ابن طولون والداودى فى القاهرة ، ومستشفى السلطان صلاح الدين الأيووبى ، ومستشفى يعقوب المنصور فى مراكش (٧٩) .

ولقد تم اختيار الأماكن المناسبة لاقامة تلك المؤسسات الطبية ، واختيار أشهر أطباء العصر للعمل بها كأطباء وأساتذة فى نفس الوقت . من ذلك أن عضد الدولة عندما أراد بناء البيمارستان العسدى جمع الأطباء واستشارهم فى الموضع الذى يجب أن يبنى فيه المارستان ، وكان الرازى فى جملة من اجتمع على هذا الأمر ، فأمر أن يعلق بعض الغلمان فى كل ناحية من جانبي بغداد شقة لحم ، ثم اختار الموضع الذى لم تتغير فيه رائحة اللحم بسرعة موضعا لبناء تلك المستشفى ، ثم أمر عضد الدولة أن يحضروا له ذكر الأطباء المشهورين حينئذ ببغداد وأعمالها ، فكانوا متوافرين على المائة ، فاختار منهم نحو خمسين بحسب ما علم من جودة أحوالهم وتمهرهم فى صناعة الطب ، فكان الرازى منهم ، ثم أنه اقتصر من هؤلاء أيضا على عشرة ، فكان الرازى منهم ، ثم اختار من العشرة ثلاثة فكان الرازى أحدهم . ثم أنه ميز فيما بينهم فبان له أن الرازى أفضلهم ، فجعله سامورا.

(مثقف المرضي ورئيس الأطباء) البيمارستان العضدى ، وعين معه أربعة وعشرين طبيباً من مختلف التخصصات ، فكان من الطبائعين أبو الحسن بن كسكرايا المعروف بظليذ سنان ، وأبو يعقوب الأهوازي وبنو حسنون وغيرهم . وكان في البيمارستان من الكحالين الفضلاء أبو نصر بن الدحلى ، ومن الجراحين أبو الخير وأبو الحسن بن تقاح وجماعته ، ومن المجبرين المشار إليهم أبو الصلت (٨٠) .

وقد أغدق الملوك والسلاطين والأمراء وأهل الخير على إنشاء تلك البيمارستانات واعدادها وتجهيزها بكل ما تحتاج إليه من أطباء وادوية وأسرة وخدمات ، بحيث اتسعت خدماتها لتشمل القادرين وغير القادرين المقيمين من أهل البلدة والغرباء والوافدين عليها ، المسلمين وأهل الذمة على السواء (٨١) . كذلك فقد توافر لتلك المؤسسات أن تكون أماكن صحية من حيث تصميم حدائقها وأبنيتها وناموراتها جنباً إلى جنب مع تصميم بنائها الهندسى واقتسامها الطبية بجوار ما نالته من رعاية وعناية الحكام . يقول ابن جبير عند وصفه لبيمارستان صلاح الدين بالقاهرة : « وما شاهدناه أيضاً من مفاخر هذا السلطان المارستان الذى بمدينة القاهرة . وهو قصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً ، أبرزه لهذه النفضية تاجراً واحتساباً ، وعين قيماً (رئيس الأطباء) من أهل المعرفة ووضع لديه خزائن العقاقير ، ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها . ووضعت في مقاصير (غرف) ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى . وبين ذلك القصر خدمة (أطباء ممارسون) يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية ، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم . وبازاء هذا الموضع ، موضع مقتطع للنساء المرضى ، ولهن أيضاً من يكفلهن ، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء به مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت مجالس للمجانين ، ولهن أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهن ، ويقابلها بما يصلح لها ، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التاكيد » (٨٢) . أما في المغرب فإن عبد الواحد المراكشى يقدم لنا وصفاً لمستشفى مراكش ، يكاد يعكس نفس الملامح

العانة للبيمارستانات في الاسلام . يقول : « بنى يعقوب المنصور في مدينة
مراكش بيمارستانا ما اظن أن في الدنيا مثله ، وذلك أنه تخير له مساحة
مسيحة بأعدل موضع في البلد ، وأمر البنائين باتقائه على احسن الوجوه ،
فاتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح ،
وأمر أن يغرس فيه مع ذلك جميع الأشجار والمشهورات والماكولات ،
وأجرى فيه مياه كثيرة ، تدور على جميع البيوتات (حجرات المستشفى) ،
زيادة على أربع برك في وسط احداها رخام أبيض ، ثم أمر له من الفرش
النفيسة من انواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على
الوصف ويأتى فوق النعت ، وأجرى له ثلاثين دينارا في كل يوم يرسم
الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجا عما جلب اليه من الادوية ، وأقام فيه
من الصيادلة لعمل الأشرطة والأدهان والأكحال ، وأعد فيه للمرضى ثياب
ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء ، فإذا برىء المريض فإن كان
فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل ، وإن كان غنيا
دفع اليه ماله وتركته وضيئه . ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء ،
بل كل مريض بمراكش من غريب حمل اليه وعولج الى أن يستريح
أو يموت . وكان المنصور في كل جمعة بعد ضلّاته يركب ويدخل
(البيمارستان) يعود المرضى ويسأل عن أهل بيته (الأقسام الداخلية) ،
يقول : كيف حال القومة (الأطباء الممارسين) عليكم ؟ إلى غير ذلك
من السؤال ثم يخرج . ولم يزل مستمرا على ذلك الى أن مات ،
رحمه الله » (٨٣) .

ولم تكن مهمة هذه البيمارستانات في الغالب قاصرة على مداواة
المرضى بأقسامها الداخلية والخارجية ، بل كانت في نفس الوقت معاهد
علمية ، ومدارس لتعليم الطب يتخرج منها المتطببون والجراحون
« الجراحيون » والكحالون كما يتخرجون اليوم من مدارس الطب (٨٤) .
بل لفصل طلبة الطب في العصر الاسلامي قد أتىخ لهم من فرص التدريب
العملي والملاحظة السريرية ، وتفرغ الأساتذة للتعليم To train doctors
واعطاء المثل الجيد للممارسة To set an example to practice ما لم يتح

لاكثر طلاب الطب لدينا الآن . فقد تعسدد وجود الأطباء في البيمارستان الواحد ، مما اتاح للطلاب رؤية كثير من أمثلة الفحص والعلاج Clinical demonstration والحكم السريري الجيد Clinical judgement (٨٥) . وعلى سبيل المثال ، فان البيمارستان الكبير بدمشق كان يضم بجوار مذهب الدين الدخوار رئيس أطباء عصره ، والحكيم عمران « وهو من اعيان الادباء واكابرهم في المداواة والتصرف في انواع العلاج ، فتضاعفت الفوائد المقتبسة من اجتماعهما ، ومما كان يجرى بينهما من الكلام في الامراض ومدائنها ومما كانا يصفاه للمرضى » (٨٦) . وكان معهما ايضا في نفس البيمارستان الشيخ رضى الدين الرحبى - الذى كان مسئولا عن العيادة الخارجية - « وهو من اكبر الأطباء سنا وأعظمهم قدرا واشهرهم ذكرا ، وكان يجلس على دكة ويكتب لمن يأتى الى البيمارستان ، ويستوصف منه للمرضى اوراقا يعتمدون عليها يأخذون بها من البيمارستان الاشرية والادوية التى يصفها » . ويذكر لنا ابن اصبعة انه كان بعد ان « يفرغ الحكيم مذهب الدين والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان (الأقسام الداخلية) وأنا معهم ، أجلس مع الشيخ رضى الدين الرحبى فاعين كيفية استدلاله على الامراض ، وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم ، وأبحث معه في كثير من الامراض ومدائنها » (٨٧) .

كذلك فقد ضمت تلك البيمارستانات « مكتبات طبية » يرجع اليها الطلاب والأساتذة ، اذ لا يكتفى الاساتذة بالشرح ، بل يأخذون الطلاب الى المكتبة ، ويدلونهم على المراجع في موضوع الدرس . وتذ يظل الطلاب في قراءات ومناقشات مع الاساتذة داخل المكتبة بالساعات الطوال . ويصف لنا ابن اصبعة صورة من ذلك عند ترجمته لأبى المجد بن أبى الحكم الذى كان طبيبيا بالبيمارستان الكبير الذى انشاه نور الدين زنكى (١١١٨ - ١١٧٤) بدمشق . فقد كان أبو الحكم « يدور على المرضى به ، ويتفقد احوالهم ، ويعتبر امورهم ، وبين يديه الاشارفون والقوام لخدمة المرضى فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخر عنه ولا يتوانى في ذلك ... وكان بعد فراغه من ذلك وطلوعه الى القلعة

وافتحاده المرضى من اعيان الدولة * ، يأتي ويجلس في الايوان الكبير الذي للبيمارستان وجميعه مفروش ، ويحضر الاشتغال . وكان نور الدين رحمه الله قد وقف على البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية ، وكانت في الخريستانين (الخزانتين) اللتين في صدر الايوان ، فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون اليه ، ويقعدون بين يديه ثم تجرى مباحث طبية ويقرىء التلاميذ ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات ، ثم يركب الى داره « (٨٨) . ولعل ما كان يفعله ابو الحكم يعطى صورة لعمل عضو هيئة التدريس بالبيمارستانات الاسلامية . فهو يمارس الكشف والعلاج وحوله الطلاب ، ثم بعد ذلك ينصرف معهم الى القراءة والمناقشة والبحث الطبى في الحالات المرضية التى تستدعى ذلك ، ويعجب الدارس لاهتمام المسلمين بالكتبات المهمة بتلك البيمارستانات وتزويدها بأعداد ضخمة من الكتب والمراجع المختلفة ، حتى ذكر أن عدد الكتب التى وجدت في مستشفى قلاوون بالقاهرة قد بلغت حوالي مائة ألف مجلد ، اخذت أغلبها من دار الحكمة بالقاهرة (٨٩) . مما أتاح للطلاب والأساتذة جوا علميا مناسباً .

وطبيعى في ظل هذه الظروف العلمية ، أن يشمر طلاب الطب في البيمارستانات بعد تخرجهم بالثقة العلمية والعملية في أنفسهم ، إذ كان العمل كطبيب ممارس بالبيمارستان دليلاً كافياً على حق الطبيب وكفاءته ، ويروى ابن أصحمة قصة تعكس ذلك ، ذلك أن الفضل أخبر جبرائيل بنصيب الرشيد ذات مرة ، أن ماسويه يزعم أنه أعرف الناس بالكحل مما أشار الغيرة في نفس جبرائيل — وكان بينه وبين ماسويه منافسة — فقال للفضل : ومن هذا ؟ لعله الذى يجلس بالباب ؟ فقال له : نعم . قال جبرائيل : هذا كان أكارا (فلاحاً) لى فلم يصلح للكروث (للزراعة)

* لاحظ كيف بدأ أبو الحكم يتفقد الأقسام الداخلية للجمهور العادى ، ثم بعد ذلك توجه الى افتقاد المرضى من اعيان الدولة ، ثم بعد ذلك انتقل الى التدريس . وقارن ذلك بما يحدث بكلية الطب من انصراف الأساتذة بميادانهم الخاصة عن واجبهم التعليمى والأكاديمى .

نطردته ، وقد صار الآن طبيباً ! وما عالـج الطب قط ! فان شئت فاحضره
وانا جاضر . وتوهم جبرائيل — لانه طبيب الخليفة ورئيس اطباء عصره —
انه يدخل بين يديه ويتذلل له . فامر الفضل باحضاره ، فدخل وسلم
وجلس بحذاء جبرائيل . فقال له جبرائيل : يا ماسويه ، اصرت طبيباً ؟
فقال له : لم ازل طبيباً ، انا اخدم البيمارستان منذ ثلاثين سنة ، تقول
لى هذا القول ! ففزع جبرائيل ان يزيد فى المعنى ، فبادر وانصرف فى
الحال وهو خجل ، كذلك عندما دخل ماسويه على الخليفة هارون الرشيد
وساله : تحسن شيئاً من الطب سوى الكحل ؟ فقال : نعم يا امير المؤمنين ،
وكيف لا احسن وانا قد خدمت المرضى بالبيمارستان منذ ثلاثين سنة ؟
فادناه منه (٩٠) مما يدل على ان الخدمة فى البيمارستان (الطبيب الممارس) ،
كان دليلاً كافياً على كفاءة الطبيب .

٤ — منازل الأطباء :

لم يكتف الأطباء المسلمون بتدريسهم فى المساجد ، والمدارس ،
والبيمارستانات بل نجد لاكثرهم « مجالس طبية » كانت تعقد فى منازلهم
ويحضرها الطلاب . ويبدو ان تلك المجالس كانت اقرب الى « السيمينارات
العلمية » المتخصصة التى تمتاز « بالتعمق العلمى » من ناحية وشيوع
روح « الزمالة العلمية » من ناحية اخرى . ويصف لنا ابن اصبهنة تلك
الجلسات العلمية ، وكيف كانت تدار ، من ذلك الجلسة التى كان يحضرها
ابن اصبهنة لكى يقرأ على موفق الدين يعقوب بن سقلاّب شيئاً من كلام
أبقراط . يقول : « مكنت ارى من حسن تأنيه فى الشرح وشدة استقصائه
للمعانى باحسن عبارة وأوجزها وأتمها معنى ، ما لا يجسر احد على مثل
ذلك ولا يقدر عليه . ثم يذكر خلاصة ما ذكره ، وحاصل ما قاله ، حتى
لا يبقى فى كلام أبقراط موضع الا وقد شرّحه شرحاً لا مزيد عليه فى
الجودة ، ثم انه يورد نص ما قاله جالينوس فى شرحه لذلك الفصل على
التوالى الى آخر قوله : ولقد كنت اراجع شرح جالينوس فى ذلك فاجده
قد حكى جملة ما قاله جالينوس بأسره فى ذلك المعنى ، وربما الفاظ كثيرة
من الفاظ جالينوس يوردها بأعيانها بن غير أن يزيد فيها ولا ينقص . وهذا

شيء تفرد به في زمانه » (٩١) . أما جلسة مذهب الدين عبد الرحيم بن على فكانت تأخذ صورة أخرى ، وذلك أنه كان رحمه الله ، إذا تفرغ من البيمارستان وافتقد المرضى من أعيان الدولة وأكابرهم وغيرهم ، يأتى الى داره ثم يشرع فى القراءة والدرس والمطالعة ، ولا بد له مع ذلك من نسخ ، فإذا فرغ منه أذن للجماعة فيدخلون اليه ، ويأتى قوم بعد قوم من الأطباء والمستغلين . وكان يقرأ كل واحد منهم درسه ، ويبحث معه فيه ، ويفهمه اياه بقدر طاقته ، ويبحث فى ذلك مع المميزين منهم ، ان كان الموضوع يحتاج الى غمض بحث ، اوفيه بحث يحتاج الى تحرير . وكان لا يقرأ أحدا الا ويده نسخة من ذلك الكتاب يقرأه ذلك التلميذ ، ينظر فيه ويتبادل به ، فان كان فى النسخة الذى يقرأ غلط أمر باصلاحه . وكانت نسخ الشيخ مذهب الدين التى تقرأ عليه فى غاية الصحة ، وكان أكثرها بخطه . وكان أبدا لا يفارقه الى جانبه مع ما يحتاج اليه من الكتب الطبية ومن كتب اللغة كتاب الصحاح للجوهري ، والمجل لابن فارس وكتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى . فكان اذا فرغت الجماعة من القراءة يعود هو الى نفسه ، فيأكل شيئا ثم يشرع بقية نهاره فى الحفظ والدرس والمطالعة ويسهر أكثر ليله فى الاشتغال (٩٢) . أما فى منزل الشيخ الرئيس ابن سينا فقد كان يجتمع كل ليلة فى داره طلبة العلم ، وتلميذه أبو عبيد يقرأ من كتاب الشفاء نوبة ، ويقرأ المعصومى من القانون نوبة ، وابن زيلة يقرأ من الاشارات نوبة ، ويهمن يار يقرأ من الحاصل والمحصل نوبة ، فإذا فرغوا حضر المفقون واشتغلوا بالشراب ؟ وكان التدريس بالليسل لعدم الفراغ بالنهار (٩٣) . وهكذا تتمدد صور تلك الجلسات العلمية من الشرح والتفسير ، لمراجعة المؤلفات الطبية وتصحيح الترجمات والطبعات ، للمناقشة والبحث وتحرير الرسائل (٩٤) . ولا شك أن تلك الجلسات العلمية الخاصة كانت فرصة لمزيد من الاحتكاك العلمى ، وتبادل الآراء والامكار الطبية المختلفة .

٥ — المتنبات المتخصصة للدراسات العليا : (Further Education)

يعجب الدارس للعناية التى وجهها المسلمون لاقامة الكثير من المكتبات ، وهذا العدد الهائل من دور الكتب ودور العلم المنتشرة فى انحاء

العالم الاسلامى . لقد كان عددها يزداد باستمرار كما وكيفا . وتنوعت اغراضها حتى شملت جميع الاغراض التى تؤسس المكتبات من أجلها . لذلك « نجد فى دنيا الاسلام جميع أنواع المكتبات : المكتبات العامة المفتحة للجمهور على اختلاف أنواعه وأجناسه وثقافته ، والمكتبات الخاصة التى يمتلكها أفراد معينون لخدمة اغراضهم الشخصية ، والمكتبات الملحقة بالمساجد والجوامع والربط والخانقاة ، ومكتبات الدولة التى ينشئها الخليفة أو الأمير أو حاكم الولاية ، والمكتبات المخصصة للدراسات العليا ، والمكتبات التابعة للمدارس والجامعات على اختلاف أنواعها ، والمكتبات الموجودة فى المشافى والمؤسسات ، وما شابه » (٩٥) . ولقد تعودت كثير من الدراسات أن تنسب فضل ظهور « دار الحكمة » — المكتبات المتخصصة للدراسات العليا — الى عصر المأمون العباسى ، اذ شاهد عصره أكبر حركة للترجمة وجمع الكتب وتيسيرها ، للباحثين والدارسين . ولكن بالمعنى الى المصادر الاسلامية وجدت شواهد كثيرة تدل على أن فكرة جمع الكتب وترجمتها وتيسيرها للدارسين والباحثين يمكن أن ترجع الى زمن الخليفة معاوية ، أو الأمير خالد بن يزيد . ولقد أوضح يوسف العشى فى دراسته القيمة حول المكتبات العربية "Les Bibliothèques Arābs, P. 17" ، أن خالد بن يزيد احتفظ بمكتبة جده معاوية (بيت الحكمة) وأغناها بمجموعات الحديث وكتب الكيمياء والفلك والطب والفلسفة ، وأنه أنشأ حركة لترجمة الكتب الأجنبية الى اللغة العربية وجمع حوله العلماء فى كل مجال . وهذه الأعمال تجعل منه الرجل الذى أعطى لمؤسسة بيت الحكمة طابعها الخاص الذى تطور فى عصر المأمون « (٩٦) . كذلك ورد فى ترجمة ماسرجويه الطبيب المصرى الذى كان معاصرا للخليفة مروان بن الحكم (٦٤ — ٦٥ هـ) أن ماسرجويه « كان فى أيام بنى أمية ، وأنه تولى فى الدولة مروانية تفسير كتاب ابرن بن امين الى العربية الذى وجدته عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله فى خزائن الكتب ، فأمر بإخراجه ووضع فى مصلاه ، واستخار الله فى إخراجه الى المسلمين للائتنفاع به ، فلما تم له فى ذلك أربعون صباحا أخرجه الى الناس ويثه فى أيديهم » (٩٧) . كذلك يذكر المؤرخون أن أبا

جعفر المنصور طلب من ملك الروم أن يرسل اليه بكتب التعاليم مترجمة
فبحث له بكتاب اقليدس وبعض كتب الطبيعيات (٩٨) . أى أن شكره نقل
الكتب من اللغات الأجنبية الى العربية وتيسيرها لطلاب الدراسات العليا
مكرة سابقة لعصر المأمون ، الا أن المأمون قد أعطى تلك البدايات الأولية
دفعة قوية بحبه للعلوم العقلية وشغفه بنشر العلم ، ولم تقتصر مهمة
دار الحكمة في عصره على الترجمة ، وجمع الكتب بل ألحقت بها مكتبة
واسعة للمخطوطات . عدد كبير من الاختصاصيين الأكفاء بترجمتها وأنشئ
الى جانبها مرصد فلكي ، والى جانب المرصد مدرسة لتدريس الفلك (٩٩) .
وبذلك صارت مثوى العلماء للدراسة والمناقشة والبحث العلمى المتخصص ،
حتى لقد اعتبرها هانز « أول جامعة اسلامية » تمارس التعليم العالى
والبحث العلمى بالمعنى المعاصر (١٠٠) . وصارت دار الحكمة بصورتها
الآخيرة في عصر المأمون هى المثال الذى احتذاه كثير من الملوك والسلطين
والأمراء في القاهرة وقرطبة وبلاد ما وراء النهر وغيرها (١٠١) .

وسيقرا الباحث كيف ان الكتب الأجنبية لم تكن تترجم مرة واحدة ،
بل كانت تترجم أكثر من مرة ، يترجمها أكثر من مترجم ، وأن الباحثين
في ذلك العصر كانوا يقارنون بين الترجمات الجيدة والردئية . فكتب
جالينوس في الطب على سبيل المثال ترجمها حنين بن اسحاق ، وكان
فصيحا بليغا عالما بآراء جالينوس ، وترجمها غير ابن اسحاق ، ولذلك
يقول ابن أصيمة : « وجدت بعض الكتب الستة عشر لجالينوس ، وقد
نقلها من الرومية الى السريانية سرجس المتطبب ، ونقلها من السريانية
الى العربية موسى بن خالد الترجمان ، فلما طالعتها وتأملت ألفاظها تبين
لى بين نقلها وبين الستة عشر التى هى نقل حنين تبين كثير وتفاوت
بين . وأين الألكن من البليغ والثرى من الثريا » (١٠٢) . وسيقرا الباحث
كيف أن المأمون كان يعطى حنينا من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى
العربى مثلا بمثل ، ولذلك كان حنين يتعمد أن تأتى الترجمة في أكبر عدد
من الصفحات ، وفي أثقل نوع من الأوراق فكان يكتب حروفا كبيرة في
أسطر متفرقة ، ورقها كل ورقة بغلظ ما يكون من هذه الأوراق الممنوعة
بومئذ ثلاث ورقات أو أربع . « وكان قصد حنين بذلك تعظيم حجم الكتاب

وتكثير وزنه ، لأجل ما يقابل به من وزنه دراهم ، وكان ذلك الورق يستعمله .
بالقصد ، ولا جرم أنه لفظه بقى هذه السنين المتطاولة من الزمان « (١٠٣) .
وسيقرا الباحث الشيء الكثير عن حرص الملوك والامراء والسلاطين على
تزويد تلك المكتبات بالجديد من المؤلفات ، وأرسلهم البعث بحثا عن
الكتب الجديدة لشرائها واستجلابها الى تلك المكتبات ، وحرصهم الا تخرج
الكتب من بلادهم بالبيع . . من ذلك أن الأفضل بن أمير الجيوش سمع أن
رجلا من العراق كان قد أتى الى الديار المصرية ليشتري كتباً ويتوجه
بها ، وأنه اجتمع مع افرائيم بن الزفان الطبيب المصري المشهور ، واتفق
معه على أن يشتري منه عشرة آلاف مجلد من الكتب التي يكتبتها
الخاصة — وكان بها أكثر من ثلاثين ألف مجلد — ولكن الأفضل حرصا
منه على أن تظل الكتب بالديار المصرية ولا تنقل الى موضع آخر ، بعث
الى افرائيم بثمن الكتب ونقلها الى دار الكتب (١٠٤) . ولما سمع صاحب
أمين الدولة وزير الملك الصالح اسماعيل بكتاب « طبقات الأطباء لابن
أصيبعة من جماعة من الأطباء ، وكان في دار كتبه عشرين ألف مجلد ،
حرص على شراء الكتاب الجديد وأرسل في طلبه وكافا يؤلفه على ذلك
بان أرسل اليه « المال الجزيل ، والخلع الفاخرة وتشكر ، وقال أشتهى
منك كلنا تضمه من الكتب تعرفنى به » (١٠٥) . وعندما يطالع الباحث مجرد
أسماء المؤلفات الطبية الواردة في كتاب واحد مثل كتاب « طبقات الأطباء »
لابن أصيبعة فإنه سيستدرك ضخامة هذا الكم الهائل من الكتب الطبية
المترجمة والمؤلفة ، ما بين مختصرات ومراجع موسعة ورسائل صغيرة * ،

* حاول الباحث أن يضم هذا البحث ثبنا بأسماء الكتب الطبية الواردة
في كتاب ابن أصيبعة كأحد ملاحق البحث ، وأن يرتبها ترتيبا أبجديا بحسب
الأقطار الإسلامية : العراق والجزيرة ، بلاد ما وراء النهر ، بلاد المغرب ،
مصر ، الشام ، وشرع في ذلك فعلا ، ولما وصل الى صفحة ٥٦ من الكتاب
وهو حوالى ثمانمائة صفحة كان قد جمع أسماء حوالى أربعمائة مؤلف مما
جعل أعداد هذا الثبت يأخذ وقتا وجهدا طويلا ، ويفطى صفحات عديدة
لا تتحملها الدراسة الحالية .

ويشعر بهذا الجو العلمي الغنى الذى أتيح للنمو الأكاديمى للطبيب . . . وهى ظروف قلما تتوافر لكثير من مكاتبنا الطبية وغير الطبية فى عصرنا الحديث (١٠٦) . . . يضاف الى ذلك التسهيلات والخدمات المكتبية التى كانت تقدمها تلك المكاتب المتخصصة (١٠٧) ، مما وفر للطلاب والأساتذة ظروفًا بحثية مساعدة على البحث والدراسة فى شتى المجالات ومنها الطب .

رابعاً - مناهج التعليم الطبى النظرى :

من الطبيعى أن تتأثر مناهج اعداد الطبيب عند المسلمين فى بداية الامر بآخر المدارس اليونانية واشهرها وهى مدرسة الاطباء الاسكندرانيين ولقد ظهر هذا الاثر اليونانى فى امرين : الامر الاول : هو الاعداد الثقاق العام اللازم لى يصبح المتعلم طبيباً حكيماً . والامر الثانى : الاعداد المهني المتخصص لتلك المهنة . اما من الاعداد الثقاق العام فان حنين بن اسحاق بعد ان يسرد بعضاً من حكم وآداب أرسطو - طاليس يقول : « وهذا الصنف من الآداب اول ما يعلمه الحكيم للتفنيذ فى اول سنة مع الخط اليونانى ، ثم يرفعه من ذلك الى الشعر والنحو ثم الى الحساب ثم الى الهندسة ، ثم الى النجوم ثم الى الطب ثم الى الموسيقى ثم بعد ذلك يرتقى الى المنطق ، ثم الى الفلسفة ، وهى علوم الآثار العلوية ، فهذه عشرة علوم يتعلمها المتعلم فى عشر سنين » (١٠٨) . . . وتكرر هذه العلوم فى منهج اعداد جالينوس الطبيب فهو يتسول : « ان أبى لم يزل يؤدبنى بما كان يحسنه من علم الهندسة والحساب والرياضيات التى تؤدب بها الأحداث حتى انتهيت من السن الى خمس عشرة سنة ، ثم انه سلمنى فى تعليم المنطق ، وقصد بى حينئذ فى تعليم الفلسفة وحدها ، فرأى رؤيا دعتة الى تعليمى الطب فأسلمنى فى تعليم الطب ، وقد اتت على من السنين سبع عشرة سنة » (١٠٩) . . . ويشير هذان النصان الى أن دراسة الطب كانت احدى الدراسات العقلية اللازمة لاعداد الفيلسوف ، وأنه كان يسبق دراسة الطب : دراسة الشعر والنحو والحساب والنجوم . . . وسنجد ان هذه الدراسات السابقة لتعلم الطب تتكرر دراستها عند الأطباء المسلمين مما يوهى أنها أصبحت متطلباً تعليمياً سابقاً لدراسة الطب . فابن سينا قبل أن يدرس الطب يتعلم حساب الهندسة والجبر والمقابلة على يد

أستاذه محمود المساح ، ويتعلم المنطق وتشيئا من الفلسفة الطبيعية على يد الحكيم أبى عبد الله الفاتلى (١١٠) . والكندرى قبل أن يدرس الفلسفة يدرس الحساب والمنطق وتاليف اللحون وطبائع الاعداد وعلم النجوم والطب (١١١) . ويبدو أن دراسة المنطق كأحد المباحث العقلية ، اكتسبت أهمية كبيرة في اعداد الطبيب لأنها تمكن الطبيب من دقة النظر وسلامة القياس (١١٢) ، وسنجد أن أحمد بن الأشعث يؤلف كتابه « الأدوية المفردة » لئن تجاوز درجة تعلم الطب الى درجة الفقه في الطب ، وهو الذى يستطيع أن يفرع ويقرس ويستخرج منه ما هو فيه بالقوة مما لم يذكره المؤلف (١١٢) . ومنذ أن ألف جالينوس كتابه باسم « أن الطبيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفا » ، وجدنا أن كبار الأطباء المسلمين هم أيضاً من الفلاسفة المشهورين . ويقول الرازى في تسمية الطبيب الناجح : « أن من يريد أن يصل الى مرتبة عالية في الطب فيجب أن يكون قادرا على فهم ما يقرأ ، وأن يكثر القراءة في الكتب ، ودائم الاتصال بالفلاسفة والمفكرين ، وأن يدرس الهندسة والنجوم ، والا فانه لا يعرف الأزمنة وحال البلدان ، كما يجب أن يعرف المنطق والا فلن يحسن تقسيم اجناس الأمراض الى أنواعها ، ولا يعرف صواب من أصاب وخطا من أخطأ ، وكان ابن رضوان الطبيب المصرى يرى أيضا أن لقب الطبيب يجب الا يطلق الا على من يتعاطى الفلسفة والطب معا ، والا فليس طبيا بل متطببا » ، ولكن هذا الاتجاه الذى ربط الطب بالفلسفة سرعان ما واجهه اتجاه معارض رأى أن ابقاء الطب مرتبطا بالفلسفة قد يعوق تقدمه وتطوره الى الأحسن ، وكان أول دعاة هذا الاتجاه عبد الله بن جبرائيل (ت ٤٥٠ هـ) « الذى دعا الى قطع العلاقة بين الطب والفلسفة وتدريس الطب كموضوع مستقل بنوعية معارفه ، وأن يكون تعليمه بالتطبيق أكثر من اعتماده على الجانب النظرى » (١١٤) . ولقد تدعم هذا الاتجاه الأخير بكثرة المؤلفات الطبية التى تعتمد على الملاحظات السريرية وتجارب الأطباء العملية ، وكثرة البمارستانات التى كانت مجالا خصبا لتقديم أمثلة عملية للفحص والعلاج والممارسة الاكلينيكية .

كذلك فان منهج الاعداد المهنى للطبيب عند المسلمين قد تأثر أيضا

(م ٩ - الاعداد التربوى للطبيب)

في البداية بمدرسة الأطباء الاسكندرانيين من حيث تقديم كتب جالينوس الستة عشر على سبع مراحل ، تشمل كل مرحلة مجموعة معينة من الكتب . أما المرحلة الأولى ، فقد جعلوها بمثابة المدخل الى صناعة الطب ، فان كان الطالب متفرغا للدراسة وله استعداد عقلى لمواصلة التعليم انتقل الى المرحلة الثانية ، وهكذا يزال الطالب يتقدم في دراسته حتى المرحلة السابقة حيث يصبح طبيباً « لا يخفى عليه شيء من صناعة الطب » . أما الطالب الذى يظهر عدم استعداده للدراسة ، فانه يتوقف عند المرحلة الأولى التى يستفيد بها ، بأن يستطيع تعاطى أعمال الطب الجزئية السهلة (١١٥) . ولكن هذا المنهج الاسكندري في دراسة الطب سرعان ما وجه اليه النقد من حيث عدم كفاية المحتوى الدراسى ، وعدم سلامة تنظيم الموضوعات . فقد رأى الأطباء المسلمون أن هذه الكتب الستة عشر ليست كافية ، وأن هناك كتباً لجالينوس وغير جالينوس لابد أن تضاف وتدرس . كذلك فان ترتيب تقديم هذه الكتب للطالب لابد أن يعاد النظر اليه ، بحيث يؤخر التشريح مثلاً وتقدم دراسة وظائف الأعضاء ، يقول « أبو الفرج بن هندو في كتاب « مفتاح الطب » : أن هذه الكتب التى اتخذها الاسكندرانيون من كتب جالينوس وعملوا لها جوامع وزعموا أنها تغنى عن متون كتب جالينوس ، وتكفى كلفة ما فيها من التوابع والفصول ، قال أبو الخير الخمار ، وهو استاذ أبى الفرج بن هندو : « أنا أظن أنهم قد قصروا فيما جمعوه من ذلك ، لأنهم يعوزهم الكلام في الأغذية والأهوية والأدوية » . قال : والترتيب أيضاً قصروا فيه ، لأن جالينوس بدأ من التشريح ثم صار الى القوى والأفعال ثم الاسطقسات » . ورغم ذلك حاول بعض الأطباء المسلمين أن يدافع عن هذا المنهج من حيث المحتوى والترتيب . يقول أبو الحسن على بن رضوان في « كتاب المنافع » : إنما اقتصر الاسكندرانيون على الكتب الستة عشر من سائر كتب جالينوس في التعليم ليكون المشتغل بها إذا كانت له قريحة جيدة وهمة حسنة وحرص على التعليم ، فانه إذا نظر في هذه الكتب اشتاقت نفسه بما يرى فيها من عجيب حكمة جالينوس في الطب الى أن ينظر في باقى ما يجد من كتبه » . ولعل دافع أبى الفرج بن هندو امام هجمات استاذه أبى الخير الخمار هو

أوفى دفاع وأشمه ، فهو يذكر أن الاختصار على تلك الكتب الستة عشر إنما جاء لأنها كتب دراسات تحتاج إلى معلم يدرسها مع الطالب ، أما ما سوى ذلك ، فيستطيع الطالب أن يحصله بنفسه دون مراجعة أو مذاكرة أو مطارحة . كذلك فإن الموضوعات أو الكتب التي يريد أبو الخير أن يضيفها إلى الدراسة كتب ستأتي حتما لأن الطبيب مضطر إلى معرفتها بنفسه وإضافتها إلى الموضوعات التي درسها مع أساتذته فيما قبل ، وسيمكنه أن يفعل ذلك بسهولة ما دام قد درس الكتب الستة عشر وفهمها واستوعبها . أما الهجوم على ترتيب الموضوعات الدراسية ، فإن الترتيب المنطقي لها غير مهم في نظر ابن هندو ، والمهم عنده أن تدرس تلك الموضوعات على أي حال . ورغم أنه يعترف أن ترتيب أبي الخير المقترح هو أكثر منطقية إلا أنه يفضل أن يحافظ على ترتيب الاسكندرانيين « لأن المعلم حاصِّل على كل حال ، وخرق أجماع الحكماء بمعدود من الخرق » (١١٦) .

وإذا كان المنهج الاسكندري في تعليم الطب أن يستمر مع هذا النقد ، فقد كان استمرارا إلى حين . إذ يظهر أعلام الطب الاسلامي وظهور ألوان متعددة من التأليف الطبي ، بدأ واضحا أن المؤلفات العربية تمثل مرحلة أعلى في تطور التعليم الطبي ، إذ استفادت بكل المؤلفات السابقة وزادت عليها وتجنبت ما فيها من قصور . وهذه هي سنة تطور العلوم . يقول الرازي : « فإن الصناعات لا تزال تزداد وتقرب من الكمال على الأيام وتجعل ما استخرجه الرجل القديم في الزمان الطويل (في مثاويل) الذي جاء من بعده في الزمان القصير حتى يحكمة ، ويصير سببا يسهل له استخراج غيره به ، فيكون مثل القدماء في هذا الموضع مثل المكتسبين ، ومثل من يجيء من بعد مثل المورثين ، المسهل لهم ، ما ورثوا اكتسابا أكثر وأكثر » (١١٧) . وهذا اعتراف من الرازي بفضل القدماء مع التأكيد على تطور الطب بتقدم المصور . ولقد تعددت أنواع المؤلفات الطبية في العصر الاسلامي بحيث يمكن تقسيمها إلى أربعة أنواع :

(١) النوع الأول : كتب ابتدائية على صفة مدخل لعلم الطب ، وهي كتب مختصرة وسهلة المنال والحفظ مثل كتاب : « ما الفارق » للرازي

وهو مؤلف من أسئلة وأجوبة دقيقة على كل سؤال للتشخيص التشريعى بين الأمراض المتشابهة . وكتاب تقويم الأبدان لابن جزلة ، وهو تقويم مؤلف من مريمات ومستطيلات ليس على الطالب الا أن ينظر فى الكلمة التى يبحث عنها حتى يجد الجواب مقسما كما يريد (١١٨) . وكتاب الأسباب والعلامات لنجيب الدين السمرقندى ، وما لا يسع الطبيب جهله لجمال الدين الكتبى وغيرها من المختصرات (١١٩) .

(ب) النوع الثانى : الكتب المطولة المستقصى فيها كل شئ من الطب وأقسامه ولعل كتاب القانون لابن سينا ، وكتاب « الحاوى » فى الطب للرازى يثملان هذا النوع من الكتب المطولة ، التى تعتبر موسوعات طبية * .

Physiology	فقاون ابن سينا على سبيل المثال شمل افعال البدن
Pathology	وتشريح البدن Anatomy وعلم الاحوال
Symptomatology	وعلم الاسباب Aetiology وعلم الملاحظات
Sphygmology	وعلم التشخيص Diagnosis ، والنض
Stool	والقارورة Urinology ، والبراز
Hygiene, (Preservation of Health)	وعلم حفظ الصحة
Pediatrics, (Regimen for infants)	وتدبير الاطفال
Regimen for Adults	وتدبير البالغين
Geriatrics (Regimen for old ages)	وتدبير المشايخ
Exercise, Gymnastice	والرياضة
Regimen for Travellers	وتدبير المسافرين
Various Methods of treatment	وطرق العلاج المختلفة سواء العلاج
Homeopathy	بالضد Heteropathy او العلاج بالمثل والعلاج بالتدبير

* كان الباحث يود أن يضمن بحثه فهرست كتابى القانون لابن سينا ، والحاوى للرازى كملاحق للدراسة ، حتى يأخذ القارئ فكرة عن موسوعية هذه المؤلفات ، ولكن اتضح أن ذلك سوف يأخذ صفحات كثيرة (خمسة وعشرون صفحة على الأقل) فكتفى بما ذكره هنا .

Treatment by Nutrition والعلاج بالغذاء Regiminal Treatment
والعلاج بالدواء Treatment by Medicine ، والعلاج باليد
Manipulation (surgery) (١٢٠) .

أما كتاب الحاوي للرازي فربما كان أشمل مؤلف كتبه رجل طب ،
اذ يحتوى على المعلومات الطبية الكاملة التى وردت فى اللغة اليونانية
والسريانية والعربية بالإضافة الى تجاربه وخبرته الطبية الخاصة .
والكتاب يتناول جميع أمراض البدن من الرأس وحتى القدم : فالجزء الأول :
يتناول أمراض الرأس ، والثانى : أمراض العين ، والثالث : أمراض الأذن
والأنف والاسنان ، والرابع : أمراض الرئة ، والخامس : أمراض المريء ،
والمعدة ، والسادس : الاستفراغات والتسمين والهزال ، والسابع : أمراض
الثدى والقلب والكبد والطحال ، والثامن : فى قروح الأمعاء وأورامها
والمفص ، والتاسع : فى أمراض الرحم والحمل ، والعاشر : فى أمراض الكلى
ومجرى البول وغيرها ، والحادى عشر : فى أمراض الحيات والديدان
فى البطن والبواسير والحدب والنقرس والدوالى وداء الفيصل وغيرها ،
والثانى عشر : فى السرطان والأورام والدمامل وغيرها (١٢١) . ونرى الرازى
عند مناقشته لآى مرض من هذه الأمراض يبدأ بذكر كل ما أورده الاغريق
والسريان والعرب والفرس والهنود عن هذا المرض ثم ينتهى بعرض آرائه
وتجاربه الخاصة (١٢٢) .

(ج) النوع الثالث : الكتب المعدة للأطباء الممارسين يرجعون اليها
عند ممارسة المهنة ، وهى كتب مجردة فى الأغلب من ذكر أقوال السابطين
فى كل حالة ، وتكتفى بعرض الحالة والعلاج الشائع لها ، وكانت تسمى
فى الغالب « كناشات » . و « الكناش » كتاب طبى يضمه أحد الأطباء
المشهورين لنفسه أو طلابه أو لغيره من الأطباء الممارسين يؤدعه خلاصة
تجاربه الطبية مثل : « التذكرة المفيدة والذخيرة الحميدة » لعز الدين
ابن السويدى (١٢٣) ، وفردوس الحكمة فى الطب لأبى الحسن على بن سهل
الطبرى (١٢٤) ، أو مجرد كناش « ملان » ، اذ كثيرا ما يورد ابن أصيعة
عند ترجمته لأطبائه عبارة : وله من الكتب كناشه ، وهو الذى يعرف به

ويُنسب إليه ، وهو ما استخرجه وجربه في أيام حياته ، أو وله « كتابي لطيف » ... الخ (١٢٥) . وفي الغالب فإن الأطباء لم يؤلفوا هذه الكتابات إلا في أواخر أيام حياتهم ، بعد أن تكون لهم خبرات واسعة في ميدان الممارسة العملية تستحق التسجيل . يقول علي بن رضوان : « وكنت منذ السنة الثانية والثلاثين إلى يومي هذا أعمل تذكرة لى وأغيرها في كل سنة إلى أن قررتها على هذا التقدير الذى استقبل به السنة الستين من ذلك » (١٢٦) . والذى يقرأ ابن أصيعة سوف يلاحظ الكثرة الهائلة لهذا النوع من المؤلفات .

(د) النوع الرابع : كتب ورسائل وضعت في موضوعات طبية خصوصية واقتصرت على معالجة هذا الموضوع الخاص مثل : كتاب منافع الأغذية ودفع مضارها ، للرازي (١٢٧) ، وكتاب في الفالج ، وكتاب في هيئة العين له أيضا ، وكتاب في القولنج ، وآخر في النبض لابن سينا ، والجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار ، وتذكرة الكحالين لعلى بن عيسى الكحال ، والمشر مقالات في العين المنسوب لحنين بن إسحاق ، ومنهاج الدكان ودستور الأعيان في أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان لابن أبى نصر العطار (١٢٨) إلى غير ذلك من المؤلفات العديدة التى تتناول موضوعا واحدا مثل أمراض المفاصل ، والمولودين بسبعة أشهر ، وأمراض القلب ... الخ (١٢٩) .

والإدريس لكتاب واحد مثل عيون الأتباء في طبقات الأطباء يستطيع أن يجسد اثباتا طويلة من أسماء الكتب والمؤلفات الطبية . ولقد حاول الباحث بالفعل أن يحصى تلك المؤلفات وأن يصنفها على تلك الأقسام الأربعة السابقة ، أو يصنفها حسب بلدان المؤلفين ، ولكن وجد أنه عمل يحتاج إلى وقت وجهد كبير ، يرجو أن يتفرغ له فيما بعد ، ولكن المهم هنا أن نلفت الانتباه إلى أن « التعليم الطبى » تحسول بالتدريج من التركيز على المنهج السكندري في « تعليم الطب » إلى التركيز على تلك المؤلفات الإسلامية . ولذلك فإن السمرقندى (٥٠٠ — ٥٥٢ هـ) عندما يعرض لناهج اعداد الطبيب ، فإن المؤلفات الإسلامية في الطب تحتل أهمية بارزة

في هذا المنهج ، يقول السمرقندي : « وعلى الطبيب أن يحصل في علم الطب . . فصول بقراط ، ومسائل حنين بن اسحاق ومرشد محمد بن زكريا انرازي وشرح النيلي الذي أجعل هذه المؤلفات . وعليه أن يطالعها بعد قراءتها على أستاذ مخلص . ثم ان عليه أن يستقصى استقصاء تأمل الكتب المتوسطة وهي : ذخيرة ثابت بن قرة ، أو المنصوري لحمد ابن زكريا الرازي ، أو الهداية لأبي بكر الأجويني أو الكفاية لأحمد بن مرج ، أو الأفاضل لسيد بن اسماعيل الجرجاني وذلك على أستاذ مخلص . ثم عليه بعد ذلك أن يحصل على أحد الكتب المفصلة مثل : « الست عشرة رسالة » لجالينوس ، أو الحاوي لحمد بن زكريا الرازي ، أو كامل الصناعة أو صدياب (مائة باب) لأبي سهل المسيحي أو القانون لأبي على ابن سينا ، أو الذخيرة للخوارزمي . وأن يقرأ هذا الكتاب في وقت الفراغ . فإذا أراد أن يستغنى عن هذه الكتب كلها ، فقد يكتفى بالقانون ، فإن سيد الكونين وإمام الثقلين يقول : « كل الصيد في جوف الفرا » . فكل ما ذكرت موجود في القانون مع زيادات كثيرة . وكل من يحيط علماً بما في المجلد الأول من القانون لا يخفى عليه شيء من أصول علم الطب وكنياته . ولو بعث بقراط وجالينوس إلى الحياة لحق لهما أن يسجدا لهذا الكتاب (١٢٠) .

ولقد كان طالب الطب يتلمذ في الغالب لأستاذ مشهور ، يقرأ عليه تلك الكتب ، ويتدرج معه من المختصرات إلى المتوسطات ، ثم إلى الكتب المفصلة . وكانت التلمذة ضرورية لحسن تخرج الطالب . لأن « المعلم » يعطي فكرة عن الكتاب ، وصاحبه ، وأسلوبه في التأليف ويشرح الغامض منه ويناقش المحتوى ويتأكد من حسن فهم الطالب . وبعد مرحلة « القراءة على المعلم » ، تأتي مرحلة « الاطلاع الذاتي » والتبحر في الدراسات الطبية . ويبدو أنه بازدياد التأليف الطبى وكثرة الشروح والمبسوطات ظهر « اتجاه تعليمي » محدود يرى أن تعليم الطب ليس محتاجاً إلى وجود المعلم ، وأن الطب أصبح من العلوم السهلة التي يستطيع أن يحصلها الطالب بنفسه ويقرأ فيها منفرداً . وكان ابن سينا وابن رضوان خير مثلين لهذا الاتجاه ، إذ تعلموا الطب بدون معلم ، ولابن رضوان كتاب

يعرض فيه رأيه في هذا الموضوع ، ويوضح فيه أن تحصيل الطب من الكتب أوفق في تحصيله على يد معلمين . وقد رد ابن بطلان على هذا الكتاب في مؤلفه أفردته لذلك وأورد فيه البطل التي لأجلها صار المتعلم من أفواه الرجال أفضل من التعلم من الكتب . إذ لا شك أن التعلم من انسان ناطق أدمى لصحة الفهم من التعلم من جهاد ، وهو الكتاب — كذلك فإن الكتب قد تكون صعبة الأسلوب ، أو مشتملة على مصطلحات علمية لا يدركها الطالب منفردا ، وقد توجد بهما من الأخطاء ما يصد عن العلم أو يفسد المعنى المراد « مثل التصحيف العارض من اشتباه الحروف مع عدم اللفظ ، والخلط بزوغان البصر وقلة الخبرة بالاعراب ، أو عدم وجوده مع الخبرة به ، أو فساد الوجود منه . واصطلاح الكتاب ما لا يقرأ وقراءة ما لا يكتب ، ونحو التعليم ونمط الكلام ومذهب صاحب الكتاب ، وسقم النسخ ورداءة النقل ، وادماج القارئ مواضع المقاطيع وخلط مبادئ التعليم ، وذكر الفاظ مصطلح عليها في تلك الصناعة ، والفاظ يونانية لم يخرجها الناقل من اللغة كالثوروس ، وهذه كلها معوقة عن العلم وقد استراح المتعلم عن تكلفها عند قراءته على المعلم ، وإذا كان الأمر على هذا فالقراءة على التلمذ أفضل واجدى من قراءة الانسان لنفسه » (١٤١) . وإذا تتبعنا سيرة حياة أكثر الأطباء المسلمين الذين ترجم لهم ابن أصيبعة لوجدنا أن الغالبية العظمى تعلمت على يد أستاذ أولا ، ثم تابعت القراءة ولازمت الاطلاع الذاتي فيها بعد ، مما يؤكد على غلبة هذا الاتجاه في التعليم الطبى النظرى .

ويلاحظ أننا نستخدم هنا مصطلح « التعليم الطبى النظرى » وثيق التعريف السينوى الذى يشمل دراسات الطب نسواء ما اتصل بأصول الطب وعلومه الأساسية ، أو ما يتصل بكيفية مباشرته . أما الممارسة الطبية الفعلية ، أو التعليم السريرى فسوف نعالجه فيما بعد عند حديثنا عن أساليب الاعداد التربوى والمهنى للطبيب . ويعرف ابن سينا ميدان هذا التعليم النظرى فيقول : « الطب علم تتعرف منه أحوال بدن الانسان من جهة ما يصح وتزول عنه النعثة ؛ ليحفظ الصحة حاصلة ويستردها زائلة » ويرى ابن سينا ، أن من الطب ما هو نظرى ، ومنه ما هو عملى ،

لكن لا يصح الظن « أن أحد قسمي الطب هو تعلم العلم ، والقسم الآخر هو المباشرة للعمل » لأن كلا من القسمين « علم ، لكن أحدهما علم أصول الطب والآخر علم كيفية مباشرته » . والقسم الأول يفيد التصور بالفكر من غير بيان كيفية عمل ، مثل القول : « بأن أصناف الحميات ثلاثة » . والقسم الثاني يفيد رأيا يبين كيفية عمل ، وإن لم يصاحبه مزاولة حركة بدنية مثل القول : « بأن الأورام الحارة يجب أن يقرب اليها في الابتداء ما يردع ويبرد » (١٣٢) . فالتعليم الطبى النظرى بهذا المعنى يقابل التعليم بالممارسة ، والتعليم بالملاحظة السريرية ، ومن ثم فقد شمل هذا التعليم خبرات الأطباء السابقين في الميدان . ولقد أدرك المسلمون أهمية هذا التعليم النظرى للنجاح في ميدان الممارسة العملية ، يوضح ذلك ما ذكره الرازى في كتابه المنصورى في الطب : « هذه صناعة لا تمكن الانسان الواحد ان لم يحتذ فيها على مثال من تقدمه ، أن يلحق فيها كثير شيء ولو أفنى جميع عمره فيها ، لأن مقدارها أطول من مقدار عمر الانسان بكثير ، وليست هذه الصناعة فقط ، بل كل الصناعات كذلك . وإنما أدرك من أدرك من هذه الصناعة الى هذه الغاية في الوفاء من السنين الوف من الرجال . فاذا اقتدى المتتدى أثرهم صار أدركهم ، حكم عساه يمكنه أن يشاهده في عمره ، وكم مقدار ما تبلغ تجربته واستخراجه ولو كان أذكى الناس واشدهم عناية بهذا الباب ، على أن من ينظر الى الكتب ولم يفهم صورة الملل في نفسه قبل مشاهدتها ، فهو وإن شاهدها مرات كثيرة أغفلها ومر بها صفحا ولم يعرفها البتة » (١٣٣) . وإذا كان الرازى يؤكد هنا على أهمية التعليم النظرى في أعداد الطبيب فإنه لم يقلل من أهمية الممارسة ومزاولة المهنة ، بل هو يوضح هذه العلاقة المتبادلة بين الأعداد النظرى الجيد ، والممارسة العملية والملاحظة السريرية المستمرة عندما يقول في كتابه المرشد أو الفصول : « ليس يكفى في أحكام صناعة الطب قراءة كتبها ، بل يحتاج مع ذلك الى مزاولة المرضى ، إلا أن من قرأ الكتب ثم زاول المرضى يستفيد من قبل التجربة كثيرا . ومن زاول المرضى من غير أن يقرأ الكتب يفوته ويذهب عنه دلائل كثيرة

ولا يشمر بها البتة ، ولا يمكن أن يلحق بها في مقدار عمره ولو كان أكثر
لناس مزاولة للمرضى ، ما يلحقه قارئ الكتب مع أدنى مزاولة ، فيكون
كما قال الله عز وجل : « وكأين من آية في السموات والأرض يجهلون عليها
وهم عنها معرضون » (١٢٤) (سورة يوسف : الآية ١٠٥) .

خامسا : طرق الاعداد التربوى والمهنى :

لقد تعددت طرق التدريس وأساليب الاعداد التربوى والمهنى
عند المسلمين ، تعددا ساعد على جودة « التعليم الطبى » ، وزاد
من كفاءته الداخلية والخارجية ، ويمكن أن نلمس جودة هذا التعليم الطبى
بما انتجه لنا من حضارة طبية زاهرة ، وبما وصل اليه من مستحدثات
في ميدان الوقاية والعلاج . ولعلنا نستطيع ان نوجز الطرق المستخدمة
في تربية الطبيب واعداده وتدريبه على النحو التالى :

١ - الملاحظة السريرية والممارسة :

ادرك المسلمون ان التعليم الطبى النظرى لا يمكن أن يغنى
عن الملاحظة السريرية ، والممارسة العملية ، فالطبيب لا يصبح طبيبا
الا اذا جمع بين التعليم الطبى والنظرى والملاحظة السريرية والممارسة
العملية . وفى ذلك يقول الفارابى : « فان الطبيب انما يصير معالجا كاملا
بقوتين : احدهما القوة على الكليات والقوانين التى استفادها من كتب
الطب والآخرى القوة التى تحصل له بطول المزاولة لأعمال الطب فى المرضى ،
والحنكة فيها بطول التجربة والمشاهدة لأبدان الأشخاص . وبهذه القوة
يمكن الطبيب أن يقدر الأدوية والعلاج بحسب بدن بدن فى حال حال » (١٢٥) .
« بل يحتاج مع ذلك الى مزاولة المرضى » (١٢٦) . ولقد كان لانتشار
البيمارستانات فى العالم الاسلامى أثره فى ازدهار التعليم الطبى عن طريق
الملاحظة السريرية والممارسة . ويخفى كتاب ابن ابي عمير بالحديث
عن مشاهدات الطلاب لكبار الأطباء وهم يجرون فحوصاتهم المختلفة بدقة
وعناية (١٢٧) . فهذا موفق الدين يعقوب بن سقلاّب « وكان شديد البحث
واستقراء الأعراض بحيث أنه كان اذا افتقد مريضا لا يزال يستقصى منه

عرضا عرضا ، وما يشكوه وما يجده من مرضه حالا حالا ، الى ان لا يترك
عرضا يستدل به على تحقيق المرض الا ويمتبره ، فكانت معالجاته
لا مزيد عليها في الجودة « (١٢٨) . وعلى بن رضوان يوضح لطلابه طريقة
التشخيص الكاملة بقوله : « تعرف العيوب هو ان تنظر الى هيئة
الأعضاء والسحنة والمزاج ولمس البشرة ، وتفقد أفعال الأعضاء
الباطنة والظاهرة ، مثل أن تنادي من بعيد فتعتبر بذلك حال سمعه ،
وأن تعتبر بصره بنظر الأشياء البعيدة والقريبة ، ولسانه بجودة الكلام ،
وقوته بشغل الثقل والمسك والضبط والمشي وأنحاء ذلك ، مثل أن تنظر
مشيه مقبلا ومدبرا ، ويؤمر بالاستلقاء على ظهره ومدود اليدين قد نصب
رجليه وصفهما ، وتعتبر بذلك حال أحشائه ، وتعرف حال مزاج قلبه
بالنبض وبالأخلاق ، ومزاج كبده بالبول وحال الأخلاط ، وتعتبر عقله
بأن يسأل عن أشياء ، وفيه وطاعته بأن يؤمر بأشياء ، وأخلاقه
الى ما تميل بأن تعتبر كل واحد منها بما يجره أو يسكنه ، وعلى هذا
المثال أجز الحال في تفقد كل واحد من الأعضاء والأخلاق . أما فيما يمكن
ظهوره للحس فلا تقتنع فيه حتى تشاهده بالحس ، وأما فيما يتعرف
بالاستدلال فاستدل عليه بالعلامات الخاصة . وأما فيما يتعرف بالمسألة
فابحث عنه بالمسألة . حتى تعتبر كل واحد من العيوب فتعرف هل هو
غييب ، حاضر ، أو كان أو متوقع ، أم الحال حال صحة وسلامة « (١٢٩) .
وهي طريقة كما ترى شاملة في الفحص السريري لا تكاد تترك عرضا
من الأعراض الا وتوقف عنده ولا وسيلة من وسائل التشخيص
الا أوصيت به . ولما كان التشخيص عن طريق النبض يحتاج الى مهارة
فائقة خصوصا في غياب « الأجهزة الطبية الخاصة بقياسه » فقد لفت
الأطباء المسلمون نظر الطلاب الى ضرورة التدريب عليه لاكتساب المهارة
الخاصة بالتشخيص عن طريقه . يقول المجوسى : « ان العلم بأمر النبض
صعب ومعرفته عسرة المأخذ ، وذلك من ثلاثة أشياء : أحدها أنه لا يسهل
على الإنسان أن يتدرب في مجسدة العروق درية يصير بها الى معرفة
التغير اليسير الحادث في النبض . والثانى : أنه يحتاج (الطبيب) عند جسي
الشريان أن يعرف أجناس النبض كلها في زمان يسير وهي عشرة أجناس ،
والثالث : أن نبضات العروق ليس لها شبيه ولا مقياس يقاس به ويتعلم

عليه ، ولذلك قد يجب على الطبيب أن يرتاض في جس العروق زمانا طويلا .
رياضة تامة بعناية وفهم « (١٤٠) » .

ولقد أعطى كبار الأطباء أمثلة جيدة لممارسة مثل هذه الفحوصات الدقيقة عمليا أمام الطلاب . ويحدثنا ابن أبيسبة عن مشاهدة « تجربة أن الحكيم عمران » كان يظهر أمام طلابه من حسن المعالجة وتحقيقه للأمراض ما يتعجب منه ، حتى أنه عالج أمراضا كثيرة زممنة كان أصحابها قد سئموا الحياة ويئس الأطباء من برئهم فبرئوا على يديه بأدوية غريبة يصفها ، ومعالجات بديعة عرفها « (١٤١) » . ولعل أسلوب التعليم السريري الذي مارسه الرازي أن يعطى فكرة عما كان عليه أسلوب التعليم السريري عند المسلمين . فقد كانت تعرض الحالات السريرية ، فيتصدى لها الطلاب بمناقشة الحالة ، فاذا صعب عليهم تشخيص الحالة ووصف العلاج دخل بينهم الرازي ليوضح لهم ما عسر عليهم فهمه (١٤٢) . أما الطبيب أبو المجد بن أبي الحكم ، فكان يهر على المرضى في البيمارستان ومن ورائه عدد من التلاميذ فيستجوب المريض عن شكواه ، ثم يفحص بدنه ، ثم ينظر الى قارورته وبصاقه ونبضه وما الى ذلك من شواهد المرض وعلاماته . ثم ينسحب أبو المجد ، بعد ذلك الى ايوان خاص بالبيمارستان فيقعد على دكة فيه ويقعد التلاميذ من هولة على بسط مفروشة . ويبدأ المعلم في استعراض ما يشكو منه المريض أمام التلاميذ والأعراض المرضية التي لاحظها عليه ويربط بين هذه وبين شكواه ، ويوصل بالاستنتاج الى تشخيص المرض ثم يذكر طريقة معالجته . فاذا صعب على المعلم تشخيص المرض أو طريقة علاجه التفت كتابا من مكتبة البيمارستان وقرأ به عن ذلك المرض . ويطول هذا الدرس التعليمي أو يقصر بحسب عدد المرضى وغرابة الحالات المرضية التي تحتاج الى كثير من التدارس وتعليم الطلاب عليها (١٤٣) . وأما في العمليات الجراحية ، فان استيعاب دروسها يعتقد في الدرجة الأولى على نباهة التلميذ ومتابعة خطواتها العملية ، ولابد أن الدروس الجراحية كانت قليلة بسبب قلة العمليات الجراحية التي يمارسها الأطباء . يعكس عمليات

الفصد التي كانت شائعة ، وكان المعلمون يدرّبون تلاميذهم على هذه العمليات باستعمال أوراق النباتات التي تبرز فيها عروق الماء كالخس والسلق ، فيتمرن التلميذ على العثور على هذه العروق بالنظر واللمس وقطعها بالموس الى أن تستقيم ضربات يده قبل تطبيقها على عروق جسم الانسان (١٤٤) . ولقد كان أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى (٥٠٠ هـ) اكبر من برع في الجراحة وأجرى العمليات الجراحية واستعان بالآلات والادوات في ذلك (١٤٥) . ويعطينا كتابا « آلات القلب والجراحة والكحالة عند العرب » و « دعوة الأطباء على مذهب كيلة ودمنة » (١٤٦) ، صورة مجملّة لآلات الجراحة المستخدمة في ذلك العصر ، والتي تدرب الطلاب على استخدامها تحت اشراف اساتذتهم .

٢ — القراءة الذاتية :

تعددت المؤلفات الطبية تعددا كبيرا من مبسّطة ومختصرة . وكان لكل مؤلف مميزاته وخصائصه واضافاته التي يضيفها الى ميدان الطب ، بحيث بدا من المحال أن يدرس الطالب هذه الموضوعات كلها على يد أستاذ ويقراها تحت اشراف معلم . يقول الحكيم أبو سعيد : « كثرت التصانيف في الصناعات الطبية مبسّطة ومختصرة ، ولكل جامع نظم وترتيب مفرد ، وكل مجموع لا يخلو عن فوائد غريبة ونكت عجيبة ، ولكل واحد غرض صحيح ليس لسواه » (١٤٧) . ولذلك فإن تعليم الطب النظري كان يستلزم بجوار القراءة على يد أستاذ ضرورة اللجوء الى القراءة الذاتية والاطلاع الخارجى . ولقد أظهر الأطباء المسلمون ادراكا كبيرا لاهمية القراءة وأبدوا حرصا فائقا على الاطلاع . ورغم عدم توافر الطباعة فقد اقبلوا على استنساخ الكتب واقتنائها بخطوطهم ، أو خطوط النساخ والكتبة . ويمجّب الدارس كيف استطاع الأطباء في ظل هذه الظروف أن يجمعوا هذا العدد الهائل من الكتب في مكتباتهم الخاصة . فابن أصيبعة يروى لنا على سبيل المثال أن أبا كثير أفرائيم بن الحسن ، كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها ، وكان ابدا عنده النساخ يكتبون ولهم ما يقوم بكفائتهم منه . ولقد باع أبو كثير عشرة آلاف مجلد من مكتبته الخاصة قبل وفاته ، وخلف من الكتب ما يزيد على عشرين ألف

مجلد (١٤٨) . وموفق الدين أبو النصر مات وفي خزائنه من الكتب الطبية وغيرها ما يناهز عشرة آلاف مجلد خارجا عما استنسخه . وكان في خدمته ثلاثة نساخ يكتبون له أبدا ، ولهم منه الجمايكة والجراية . كما كتب موفق الدين أيضا بخطه كتب كثيرة « وقد رأيت عدة منها ، وهى فى نهاية حسن الخط والصحة والأعراب ، وكان كثير المطالعة للكتب لا يفتر عن ذلك فى أكثر أوقاته ، وأكثر الكتب التى كانت عنده توجد وقد صححها وأقن تحريرها وعليها خذله بذلك » (١٤٩) . فهو لا يكتفى بالقراءة ولكنه يصحح ما يقرأ ويحرره ويعلق عليه بخط يده . وعلى بن رضوان بعد المستين من عمره يرى أن حاجته الى القراءة قد قلت بعد هذا العمر الطويل من الدراسة ، ويريد أن يقتصر مكتبته ويستغنى عن غير الضرورى فى مثل هذه السن ، فيرى أن يقتصر منها على : « خمسة كتب من كتب الأدب ، وعشرة كتب من كتب الشرع ، وكتب أبقراط وجالينوس فى صناعة الطب وما جانسها مثل كتاب الحشائش لديسقوريدس ، وكتب روفس ، وأريباسيوس ، وبولس ، وكتاب الحاوى للرازى . ومن كتب الفلاحية والصيد أربعة كتب ، ومن كتب التعاليم المجسطى ومداخله ، وما انتفع به فيه ، والريسة لبطليموس ، ومن كتب العارفين كتب أفلاطون ، وأرسطو طاليس ، والاسكندر ، وثامطيوس ، ومحمد الفارابى ، وما انتفع به فيها ، وما سوى ذلك إما أبيعه بأى ثمن اتفق ، وإما أن أخزنه فى صناديق ، وبيعه أجود من خزنه » (١٥٠) . فحتى هذه السن المتأخرة ، وبعد هذه الشهرة الذائعة التى حققتها ابن رضوان ، يذكر لنا هذا الثبت من المؤلفات الأمهات التى يرى أنه لا يجوز الاستغناء عنها لطبيب . وقل أن يترجم ابن أصيبعة لطبيب دون أن يذكر عبارات مثل : « وكان أبدا سائر أوقاته لا يوجد الا معه كتاب ينظر فيه » أو « وكان كثير المطالعة للكتب لا يفتر عن ذلك فى أكثر أوقاته » أو « فكان أبدا لا يفارق فى كبه مجلدا يطالع به أين توجه » الى غير ذلك من العبارات التى تدل على مقدار شيوخ القراءة الذاتية كاسلوب من أساليب الأعداد الجيد للطبيب .

الطالب ينتقل من القراءة على يد أستاذ (١٥١) ، الى القراءة الدقيقة المتأنية التى يعلق فيها الطالب على ما يقرأ ، ويحقق ويقارن ويستخرج

مختارات لنفسه ، ثم الى القراءة السريعة الخاطفة التى يتجه فيها من الكتاب الى الموضع المحدد الذى يريده ، حيث الاضافات الجديدة التى يضيفها الكتاب . ويصف لنا البيهقى هذا النوع الأخير من القراءة من خلال صحبة أبى عبيد الجوزجاني ومعاشرته لابن سينا بقوله : « ومن عجائب أحوال الشيخ ، أن أبا عبيد صحبه ثلاثين سنة ، قال : انه ما رآه ينظر فى كتاب جديد على الولاء ، بل يقصد المواضع الصعبة والمسائل المشككة منه فينظر ما قاله المصنف فيها ، فيتبين عنده مرتبته من العلم (١٥٢) . ولا شك أن هذا النوع من القراءة كان فى مرحلة متأخرة من حياة ابن سينا ، أما طريقة قراءات ابن سينا فى مدة الأعداد الحقيقية فنجدها أيضا عند البيهقى وغيره حيث يذكر عن ابن سينا « وفى هذه المدة ما نام ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغل بشئ سوى المطالعة ، وجمع بين يديه ظهورا من القراطيس ، وكل حجة ينظر فيها يثبت مقدماتها القياسية ويكتبها فى تلك الظهور ، وراعى شرائط المقدمات ومفضل ما هو منتج مما هو عقيم . وإذا تحير فى مسألة ما ، وما ظفر فيها بالحد الأوسط تردد الى الجامع وصلى وابتهل الى الله تعالى حتى يفتح الله له المنفلق منها . وكان يعمود كل ليلة الى داره ويضع السراج ويشتغل بالقراءة والكتابة » (١٥٢) . والواقع أن أى قراءة لتراجم الأطباء سوف تظهر الدور الكبير الذى لعبته القراءة الذاتية فى حياة الأطباء ، والأهمية البالغة التى منحها الأساتذة والطلاب للاطلاع الذاتى كاحدى الأدوات الضرورية للتمكن فى العلم والتبريز فحسه .

٣ — الملازمة :

يستخدم ابن أصيبعة كثيرا مصطلح « الملازمة » للدلالة على مصاحبة الطالب للأستاذ لأوقات طويلة ، سواء فى دروسه النظرية أو حلقاته الخاصة المنزلية ، أو ممارساته العملية فى البيمارستان . و « الطالب الملازم » غير « الطالب القارئ » ، وكلاهما موجود عند ابن أصيبعة ، فنجد كثيرا ، أن فلانا قرأ على فلان « أو » اشتغل بالطب على يد فلان . ويجوز أن ذلك نقرأ مثلا : أن سعيد الدين محمود بن عمر قرأ الطب على فخر الدين المارديني ، ولزمه مدة طويلة ولم يكن يفارقه فى سفره

ولا حضره (١٥٤) . وإن ابن جميع قرا صناعة الطب على الشيخ الموفق أبي نصر عذنان بن العين ولزمه مدة (١٥٥) ، وأن رشيد الدين أبو سعيد اشتغل بعلم الطب على رشيد الدين علي بن خليفة « ، ولم يكن في تلامذته مثله ، فإنه لازمه حق الملازمة ، وكان لا يفارقه في سفره وحضره ، وأقام عنده بدمشق وهو دائم الاشتغال عليه « (١٥٦) . وأبو عبيد الجوزجاني كان من خواص أبي علي بن سينا ، وملازمه مجلسه ، وظل متصلا به حوالي خمس وعشرين سنة إلى آخر عمر الشيخ (١٥٧) . وطبيعي أن هذه الملازمة الطويلة لكبار الأطباء قد اتاحت للطلاب مزيدا من الاحتكاك العلبي بالأسساتذة أكثر بكثير من الذين اكتفوا بمجرد الشراء على يد أستاذ ، وخصوصا أن الطلاب لم يكونوا يالزمون غالبا إلا الأطباء الأعلام ، كما يدل على ذلك أسماء الأطباء الذين ذكر ابن أصيبعة أن لهم « تلاميذ ملازمين » (١٥٨) .

٤ — الأملاء :

في غيبة الطباعة واعتماد العلم والتعليم على النسخ ، اشتدت الحاجة إلى أن يملأ الأساتذة على طلابهم بغض الأمالي . وكثفت الأمالي تشتمل على ذكر آراء السابقين في المسألة ، ومناقشة الأستاذ لتلك الآراء ثم طرح لآراء الأستاذ أو تجاربه العملية في الموضوع . وكان الطالب يكتب في أول الدرس : « أملاه شيخنا فلان » ثم يدعو لأستاذه بالخير . فعلى إحدى أمالي أبو الفرج بن الطيب الطبيب وجدت هذه العبارة : « هذه الكراسية بخط سيدنا الأجل أبي النصر محمد بن علي بن برزج تلميذ أبي الفرج ، أملاها الشيخ أبو الفرج ، أطال الله بقاءه ، ونكب أعداءه عليه ببغداد » (١٥٩) . وعلى أمالي أخرى قد نجد مثل هذه العبارة « مقسالة أملاها فلان » في جواب ما سئل عنه من أن « كذا » وتذكر المسألة موضوع المحاضرة . ويفتخر الطالب في الغالب أنه كان من تلاميذ « فلان الطبيب » ، وأنه حضر أماليه الطبية « وكتبها بنفسه » . فابن الدهمان ، أحد تلاميذ أبي البركات هبة الله يروي أنه حضر أمالي أبي البركات مع غيره من الطلاب الذين يذكر أسماءهم ، وكان من بينهم علي

يوسف والد الشيخ عبد اللطيف البغدادي الطبيب المشهور (١٦٠) . ولكن الاعتماد على « الإملاء » كطريقة للتعليم الطبي تقل بالتدريج لتحل محلها طريقة « القراءة من كتاب » وشرحه ، وذلك برواج صناعة الورق ، وانتشار الكتب ، وإن لم تختلف طريقة الإملاء تهما من التعليم الطبي أو غيره من العلوم (١٦١) .

٥ - المناقشات والمناظرات والاستشارات الطبية :

كان الفكر التربوي الإسلامي — بعكس ما هو سائد — يؤمن عموماً بضرورة توافر عنصر المناقشة والمناظرة والمطالبة في التعليم ، وليس مجرد المذاكرة والحفظ لموضوعات الدراسة . « إذ لا بد لطالب العلم من المذاكرة والمناظرة والمطالبة » لأن فائدة المطالبة والمناظرة أقوى من فائدة مجرد التكرار ، لأن فيه تكراراً وزيادة ، وقيل بمطالبة ساعة خير من تكرار شهر « (١٦٢) .

ولقد انعكس ذلك على « التعليم الطبي » فكانت المناقشات بين الأطباء بعضهم بعضاً ، وبينهم وبين طلابهم . ونصح الطبيب مهما كان حاذقاً أن يستشير غيره من الأطباء في الحالات المرضية الصعبة . فالعماني الطبيب يقول : « من استبد بمعالجته في حال مرضه وإن كان طبيباً حاذقاً فقد يعرض للخطأ بجهده ، والاستشارة أداة كاملة » (١٦٣) . ولذلك وجدنا موفق الدين بن سقلاّب كثيراً ما كان يجلس مع مذهب الدين ابن على « في الموضع الذي يجلس فيه الأطباء عند دوار السلطان ويتباحثان في أشياء من الطب . . » (١٦٤) كذلك كان مذهب الدين يتباحث أيضاً مع عمران الأسرائيلي ويتناقشان معاً في الحالات المرضية التي كانت تعرض لهما في المستشفى الكبير بدمشق . وقد استفاد طلابهما بتلك المناقشات والاستشارات الطبية « (١٦٥) . أما ابن خطيب الرى ، فكان يشرك طلابه في مناقشة الحالات . « وكان إذا جلس للتدريس يكون قريباً منه جماعة من تلاميذه الكبار ، مثل زين الدين الكشي والقطب المصري وشهاب الدين النيسابوري ، ثم يليهم بقية التلاميذ وسائر الخلق على قدر مراتبهم ، فكان من يتكلم في شيء من العلوم يباحثه أولئك التلاميذ الكبار ، (م ١٠ - الإعداد التربوي للطبيب)

فإن جرى بحث مشكل أو معنى غريب شاركهم الشيخ فيما هم فيه ، وتكلم في ذلك المعنى بما يفوق الوصف » (١٦٦) . وتحرص أدبيات التريفة الإسلامية أن تتم المناقشات والمناظرات في جو علمي يتسم بالبحث عن الحقيقة ، ولا يتدخل فيه الغرور ، أو تقليل شأن الآخرين . إذ « ينبغي أن تكون المناظرة والمطالبة بالانصاف والتأمل والتأمل ، ويتحرز عن الشغب والغضب ، فإن المناظرة مثاورة ، والمشاورة لاستخراج الصواب ، وذلك إنما يحصل بالتأمل والانصاف » (١٦٧) . وإذا كان ابن أصبغة يسوق لنا في مواضع مختلفة من كتابه صورا لهذا النقاش العلمي الرصين ، وتلك الاستشارات الطبية التي كان يتبادلها الأطباء ، فقد توقف أحيانا مستنكرا تلك المناقشات التي لم تكن في خدمة العلم بقدر ما كانت للتشنيع على جهود الآخرين . فهو يقول عند حديثه عن علي بن رضوان : « وكان ابن رضوان كثير الرد على من كان يعاصره من الأطباء وغيرهم ، وكذلك على كثير ممن تقدمه . وكانت عنده سفاهة في بحثه وتشنيع على من يريد مناقشته . وأكثر ذلك يوجد عندما كان يرد على حنين بن اسحاق وعلى أبي الفرج بن الطيب ، وكذلك أيضا على أبي بكر محمد بن زكريا الرازي » (١٦٨) ولا شك أن هذه المناقشات والمناظرات والاستشارات كانت أداة طبية لتبادل الآراء والأفكار الطبية بين الأساتذة والطلاب .

٦ — المراسلات الطبية :

سوف يلاحظ الدارس هذا العدد الهائل من « الرسائل الطبية » التي كتبها الأطباء الكبار ، إما ردا على سؤال طالب ، أو زميل في المهنة ، أو لشرح موضوع من الموضوعات الطبية الخاصة ، ويكفي أن نذكر هنا أن طبيباً واحداً هو « ابن مندويه الأصفهاني » كانت له أربعون رسالة مشهورة في الطب كتبها إلى أصحابه وطلابه وتناول موضوعات طبية مختلفة . فهناك رسالة إلى أحمد بن سعد في تدبير الجسد ، ورسالة إلى حمزة بن الحسن في تركيب طبقات العين ، ورسالة إلى أبي جعفر أحمد بن محمد في القولنج وغيرها » (١٦٩) . وقل أن يوجد طبيب مشهور لم توجد بينه وبين طلابه وزملائه مراسلات طبية مما يبرز أهمية « المراسلات » كأحدى « الوسائل التعليمية » في هذا العصر . ولم تقتصر تلك المراسلات الطبية على أطباء الاقليم الواحد ، بل كانت هناك أيضا

مراسلات « عبر البحار » . إذا جاز هذا التعبير — فإن بطلان الطبيب البغدادي كان معاصرا لعلي بن رضوان الطبيب المصري ، وكان بينهما « المراسلات العجيبة والكتب البديعة الغريبة » ، ولم يكن أحد منهم يؤلف كتابا ولا يبتدع رأيا الا ويرد الآخر عليه » (١٧٠) كذلك كان البيروني الدمشقي على مراسلات طبية مع ابن رضوان المصري ومع غيره من الأطباء المصريين (١٧١) . ولا شك أن هذا « التواصل العلمى » بين الأطباء قد هيا المناخ العلمى المناسب لتبادل الآراء والأفكار الجديدة فى ميدان الطب . لم يجعل الأطباء يمثلون « دوائر علمية مغلقة » غير مفتوحة على ممارسات الأطباء الآخرين . ولقد ثبت أن الباحث الجيد فى أى تخصص ينبغى أن يكون على صلة علمية بثلاثة من الباحثين المهتمين بمجال دراسته على الأقل (١٧٢) ، ولعل تلك المراسلات العلمية التى قامت بين « الأطباء المسلمين » كانت تمثل نوعا من أنواع هذا « الاتصال العلمى » بين المهتمين بمجال الطب .

٧ - الرحلة :

فى عالم اسلامى واحد ، لا يعرف الحدود بين أقاليمه ودوله ، وفى ظل ظروف حياتية وفرتها الأوقاف الاسلامية ، استطاع الطالب أن ينتقل من مكان الى مكان باحثا عن الطبيب المشهور الذى يقتلذ عليه ، فيلازمه حتى يتخرج ويتقن الصنعة ، ولقد كان الفكر التربوى الاسلامى يحث على الرحلة فى طلب العلم ، لما فى الغربة من تفرغ بالبعد عن الأهل والوطن ، ومن فوائد الاحتكاك بروافد ثقافية جديدة ومختلفة ، ولما فى تحمل مشاق الرحلة من تقوية ارادة الطالب وعظيم الثواب وإدراك لذة العلم (١٧٣) . يقول الزرنوجى : « ولابد لطالب العلم من تقليل العلائق الدنيوية بقدر الوسع ، فلهذا اختاروا الغربة . ولابد من تحمل النصب والمشقة فى سفر التعلم ، كما قال موسى صلوات الله على نبيينا وعليه فى سفر التعلم ، ولم ينقل عنه ذلك فى غيره من الأسفار : « لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا » (الكهف : آية ٦٢) ، وليعلم أن سسفر العلم لا يخلو من التعب ، لأن طلب العلم أمر عظيم وهو أفضل من الغزاة عند أكثر العلماء . والأجور على قدر التعب والنصب ، فمن صبر على ذلك التعب وجد لذة العلم تفوق لذات الدنيا . ولهذا كان محمد بن الحسن إذا سهر الليالى وانحلت

لله المشكلات يقول : « أين أبناء الملوك من هذه اللذات ؟ » (١٧٤) . ولذلك تجد البيرونى الدمشقى يستنال عن امام وقته فى معرفة صناعة الطب والمفرمة بها جيندا فذكروا له ان ببغداد ابا الفرج بن الطبيب وله خبرة ومفضل فى صناعة الطب وفى غيرها من الصنائع الحكيمة ، فنجده يتأهب للسفر الى بغداد ، ويأخذ سوارا كان لأمه لتفقتة ويتوجه الى بغداد ، ويشتغل على ابي الطبيب الى ان مهر فى صناعة الطب (١٧٥) . وكذلك ابو الفضل بن ابي الوفا الدمشقى يرحل الى بغداد ويقرأ على افاضل الأطباء من أهلها ويعود الى دمشق وقد اصبح مثبزا فى صناعة الطب علمها وعملها (١٧٦) . ومهذب الدين بن النقاش البغدادى يرحل الى دمشق ، ثم يتوجه الى الديار المصرية ويقيم بها مدة لكى يجتمع بأفاضل اطبائها ، وأبو زكريا يحيى البياسى الأندلسى يأتى الى ديار مصر متعلما ثم يتوجه الى دمشق طبيباً حاذقاً ... (١٧٧) الخ ... الخ . وتعدد رحلات الطلاب والأطباء الممارسين من قطر الى قطر بحثا عن الأستاذ الحاذق ، وبحثا عن مزيد من الخبرات والتجارب والممارسات الطبية الجديدة .

وفى الغالب ما تتم تلك الرحلات فى أول مرحلة الشباب ، ويحكى لنا ابن أصبغة كيف ان عمه رشيد الدين بن خليفة ، وهو فى أول شبابه « قصد السفر الى الموصل ليجتمع بالشيخ كمال الدين بن يونس ويشتغل عليه ، لما بلغه من علمه وفضله الذى لم يلحقه فيه أحد وتجهز للسفر ، فلما علمت بذلك والدته ، جدتى ، بكت وتضرعت اليه أن لا يفارقتها ، وكان يأخذ بقلبه فلم يمكنه مخالفتها ، وأبطل الزواح اليه » (١٧٨) . ولقد لعبت فريضة الحج دورا مشجعا على التواصل العلمى بين الأطباء ، إذ جعل طلاب الطب وأساتذته من الهند وإسبانيا وآسيا الصغرى وأفريقيا يهرون فى طريقهم الى مكة والمدينة ببلاد عديدة ، حيث يزورون المدارس الطبية والبيهارساتات والمساجد ومعاهد العلم التى تضم الأطباء البارزين فيكون هناك حوار ونقاش وتعلم وتعليم (١٧٩) . كذلك يسر على الطلاب والأطباء التيسر بتلك « الرحلات العلمية » ما كان يخصصه الأمراء والسلاطين لطائفتى العلم الوافدين من منظمات تلبى احتياجاتهم المادية والضحية . من ذلك ما يذكره ابن جرير عن زيارته الى مصر : « ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة فى الحقيقة الى سلطانه : المدارس والمحارس

(جمع محرس ، وهى ماوى مخصص للدارسين والزهاد والمسافرين والفقراء) الموضوعة فيه لاهل الطب والتبهد ، يقدون من الاقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا ياوى اليه ، ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه واجراء (مرتب) يقوم به فى جميع احواله . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرياء الطارئين حتى امر بتعيين حمايات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم الاطباء يتفقدون احوالهم ، وتحت ايديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء . وقد رتب ايضا فيه اقوالهم برسم الزيارة للمرضى الذين يتزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرياء خاصة وينهون للأطباء احوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم « (١٨٠) . وهذه العناية بالطلاب والعلماء الوافدين يسرت بدون شك اسباب الرحلة فى طلب « التعليم الطبى » لملاقاة كبار الاطباء والاستفادة من علمهم وتجاربهم الطبية .

٨ — الحفظ :

لقد مضت مدة طويلة واغلب الدراسات تؤكد على أن الحفظ ولو بدون فهم هو أكثر الأساليب شيوعا فى التعليم الإسلامى . ولقد أشاع هذا الاعتقاد ما كتبه المستشرقون حول هذا الموضوع . ونقل الدارسون المسلمون هذا الخطأ الشائع بدون تحقيق علمى (١٨١) . حتى أن الباحث الحالى كتب فى دراسته عن ابن سينا لفيل درجة الماجستير عام ١٩٦٩ : « فالعالم فى التصور الإسلامى هو الحافظ ، وبقدر ما يكون الطالب حافظا لشئى الكتب يكون عالما . ويبدو أن الحفظ والاستظهار لم يكن قاصرا على العلوم الثقيلة التى تستدعى هذا الحفظ والاستظهار بل اجأ اليه طلاب الدراسات العقلية أيضا « (١٨٢) . وبذلك أصبحت الفكرة السائدة فى الأذهان أن الطالب المسلم كان يعكف على الكتب — فى أى موضوع — لى يحفظها ولو بدون فهم حتى يكون عالما . وأن التعليم فى الاسلام يقوم على الرواية لا الدراية . أى على الحفظ لا الفهم . وسنجد أن باحثا معاصرا بعد أن يعرض لبعض أراجيز ابن سينا فى الطب يصدر هذا الحكم القاطع : « وأهمية هذه الأراجيز من الناحية التربوية أنها

تؤكد على أهمية كم المعلومات ، اذ ان الغرض الاساسى من نظمها هو ولا شك تيسيرها للحفظ بغض النظر عن الفهم والتطبيق » ، ويدل ذلك على امرين ، اولهما : تقسيم الالفية للطب تقسيما منطقيا الى نظرى وعلمى ولكل من هذين اجزاؤه . فالنظرى ينقسم الى سبع طبيعيات ، وست ضروريات ، وثلاثة امور خارجة عن الطبيعة ، اما الطلب العلمى فهو من قسمين : الباطنى منه ، وهو ما يدبر بالاغذية والادوية ، والجراحى وهو ما يعمل باليد . . . وهكذا . اما الدليل الثانى : فهو ما حكى عن ابن سينا انه « ما كان يسمح لتلاميذه بالجلوس اليه والتلقى عنه الا بعد ان يحفظوا ارجوزته عن ظهر قلب » (١٨٢) .

والواقع اننا اذا رجعنا الى ادبيات التربية الاسلامية ، والى تراجم اعلامها المختلفة ، لتأكد لنا مقدار ما فى هذه الفكرة من مجانية للواقع العلمى والتعليمى . فقد اكد فلاسفة التربية المسلمون على ضرورة توافر عنصر الفهم قبل الحفظ ، وان يبدأ الطالب بالكتب الصغيرة السهلة قبل الكتب المطولة . وفى ذلك يقول الزرنوجى : « وينبغى ان يبدأ بشئ يكون اقرب الى فهمه ، وكان الشيخ الامام الاستاذ مشرف الدين العقيل رحمه الله يقول : « الصواب عندي فى هذا ما فعله مشايخنا رحمه الله ، فانهم كانوا يختارون للمبتدئ صفارات المبسوط ، لانه اقرب الى الفهم والضبط ، وابعد من الملالة واكثر وقوعا بين الناس » ، ويحذر الزرنوجى : « من ان يكتب المتعلم شيئا لا يفهمه ، فانه يورث كلاله الطبع ، ويذهب الغفلة ويضيع اوقاته » ، ويدعو الى الاجتهاد فى الفهم والتأمل فيما يتعلم لأن « فهم حرفين خير من حفظ سطرين ، وان تهاون فى الفهم ولم يجتهد مرة او مرتين يعتاد ذلك فلا يفهم الكلام اليسير » ، فينبغى الا يتهاون فى الفهم ، بل يجتهد ، ويدعو الله ويتضرع اليه فانه يجيب من دعائه ولا يخيب رجاه » (١٨٤) . ويؤكد طاش كبرى زاده هذا المعنى فيقول : « وينبغى لطالب العلم ان يكون متاملا فى جميع الأوقات فى دقائق العلم ، ويعتاد ذلك ، فانما يدرك الدقائق بالتأمل . ولذلك قيل تأمل تدرك ، خصوصا قبل الكلام ، فان الكلام كالسهم لابد من تقويمه بالتأمل أولا » (١٨٥) . فاذا تركنا مؤلفات رجال التربية ، وطالعنا كتابا مثل عيون الانباء فى طبقات

الأطباء وذهبنا نقرا عن أسلوب هؤلاء الأعلام الذين يترجم لهم ابن أصيبعة ، وكيف تعلموا بالفعل ؟ وحظهم من الحفظ أثناء حياتهم الدراسية ، وجدنا أن أسلوب الحفظ لا يظهر إلا في المرحلة الأولى لحفظ شيء من الأدب ، وحفظ القرآن الكريم ، أما في المرحلة التالية فإن عناصر الفهم والتأمل والمناقشة تمثل عناصر أساسية من العملية التعليمية على نحو ما ذكرنا في الصفحات السابقة . مما يؤكد بالفعل على أن اعتماد التعليم الإسلامي على الحفظ والاستظهار إنما هو تعميم خاطيء أشاعه المستشرقون تحت وهم أن العرب كانوا أميين لا يقرؤون ولا يكتبون ، أو أنهم لم يعرفوا الورق إلا متأخرا . . . الخ فاعتمدوا على الذاكرة ، أو أن عدوى الحفظ قد انتقلت إليهم من علوم اللغة وعلوم الدين إلى سائر العلوم ، وهي دعوى يكذبها الواقع التربوي الإسلامي على المستوى النظري ممثلا في آراء فلاسفة التربية المسلمين ، وعلى المستوى العملي ممثلا في الممارسات التربوية الفعلية للطلاب والعلماء على نحو ما ذكرنا . وإذا كان المسلمون في عصور الانحطاط العلمي والثقافي ، والكبت الفكري والسياسي قد أهملوا ملكات الفكر الحر الناقد ، واعتمدوا بصورة أكبر على استرجاع ثقافة العصور السابقة ، فإن هذا التردى التربوي لا يمكن أن يتخذ دليلا على أن « التعليم الإسلامي » قد اتخذ من الحفظ ولو بدون فهم وسيلة تربوية شائمة (١٨٦) .

أما الأراجيز الطبية التي استعملها بعض الأطباء المسلمين في التعليم الطبي سواء كانت لابن سينا أو غيره من الأطباء فلم تكن تحفظ بدون فهم ، بل كان الطالب مطالبا بأن يفهم محتواها ، والا فما الفائدة أصلا من حفظها ؟ واستخدام الشعر لأغراض تعليمية له تاريخه عند اليونان والرومان ، ثم استخدمه المسلمون فيما بعد ، ونظموا شعرا تعليميا في شتى المجالات ومنها الطب (١٨٧) . ولابن سينا سبع أراجيز طبية مشهورة هي (١٨٨) :

١ — أرجوزة التشريح مطلقها :

الحمد لله على تهذيبي

وعاصمي من أيم تهذي بي

٢ — أرجوزة في تدبير الصحة مطلعها :

الحمد لله اللطيف الكافي

الواحد الفرد الحكيم الشافي

٣ — أرجوزة في الوصايا الطبية في ٧١ بيتا مطلعها :

أول يوم تنزل الشمس الحمل

تشرب ماء فاترا على عجل

٤ — أرجوزة في المجربات الطبية في خمسة وثلاثين بيتا مطلعها :

بدأت باسم الله في النظم الحسن

أنكر ما جربته طول الزمن

٥ — أرجوزة في الفصول التي فيها تناول الطعام مطلعها :

يقول راجي ربه ابن سينا

ولم يزل بالله مستعينا

٦ — أرجوزة في حجر الذخيرة وتسمى أيضا أرجوزة في الباه مطلعها :

يا سائل من وجع في الوسط

ونقطة تأتي له لم تخطى

٧ — أما الأرجوزة السابعة أشهر الأراجيز وأطولها والمسماة بالفية ابن سينا

في الطب، ولو أنها تحتوى على ألف وثلاثمائة وعشرين بيتا وموضوعها

حفظ الصحة ومطلعها :

الطب حفظ صحة برء مرض

ومن سب في بدن عنه عرض

وشعر العنترى الطبى كثير نذكر منه قطعة مختارة هنا كنموذج لهذا

الشعر ولدوره التعليمي ، في تقديمه المعلومات الطبية على شكل أشعار

يسهل تذكرها . يقول العنترى (١٨٩) :

احفظ بنى وصيتى واعمل بها
فالطب مجبوع بنص كلامى
قدم على طب المريض عناية
فى حفظ قوته مع الأيام
بالشبه تحفظ صحة موجودة
والضد فيه شفاء كل سقام
أقل نكاحك ما استطعت فانه
مناء الحياة يراق فى الأرحام
واجعل طعامك كل يوم مرة
واخذ طعاما قبل هضم طعام
لا تحقر المرض اليسير فانه
كالنار يصيح وهى ضرام
واذا تغير منك حال خارج
فاحتل لرجعه حل عقد نظام
لا تهجرن القيء واهجر كل ما
كثيره سبب إلى الاسقام
ان الحمى عون الطبيعة مسعد
شاف من الأمراض والآلام
لا تشربن بمقرب أكل عاجلا
او تأكلن بمقرب شرب مدام
والقيء يقطع والقيام كلاهما
بهما وليس بنوع كل قيام
وخذ الدواء اذا الطبيعة كررت
بالاحتلام وكثرة الاحتلام

واذا الطبيعة منك نقت باطنا
فدواء ما في الجسد بالحمام
ايك تلزم اكل شيء واحد
فتتقود طبيعتك للأذى بزمام
وتزيد في الأخلاط ان نقتت به
زادت فنقص فضلها بقوام
والطب جهلته اذا حقتته
حل وعقد طبيعة الأجسام
ولعقل تدبير المزاج فضيلة
يشفى المريض بها وبالأوهام

ومن الذين ألفوا الشعر الطبى سعيد بن عبد ربه (١٩٠) ، وسديد الدين ابن رقيقة الذى يقول عنه ابن أصيبعة : « وأما الرجز فأننى ما رأيت فى وقته من الأطباء أحد أسرع عملا له منه ، حتى انه كان يأخذ أى كتاب شاء من الكتب الطبية وينظمه رجزا فى أسرع وقت مع استيفائه للمعانى ومراعاته لحسن اللفظ » (٩١١) . ولا شك أن ذلك يدل على تمكن ابن رقيقة فى الحلب والشعر معا . وقس على هؤلاء غيرهم من الأطباء الأدباء الذين ألفوا الشعر الطبى ، كإحدى الوسائل التعليمية المعينة للطلاب على تذكر بعض المعلومات الطبية الهامة .

وفى النهاية ، نحب أن نؤكد هنا على امرين : الأمر الاول : انه اذا كان قد ورد عن بعض الأطباء مثل ابن سينا ضرورة حفظ بعض « المتون الطبية » أو تذكر بعض الحقائق المتعلقة بالطب ، فان هذا الأمر لم يكن خاصا بالعرب المسلمين ، بل سيوجد دائما بين المعلمين على مر العصور من يؤكد على أهمية تذكر الطالب لبعض حقائق العلم ، وأن تكون حاضرة فى ذهنه عند الطلب ، ويروى ابن أصيبعة أن سقراط لم يصنف كتابا ولا ألقى على أحد من تلاميذه ما أثبتته فى قرطاس ، وإنما كان يلقنهم علمه تلقينا لا غير ، وأنه تعلم ذلك من أستاذه طيماتاوس فانه قال له فى صباه :

لم لا تدعنى أدون ما أسمع منك من الحكمة ؟ فقال له : ما أوثقت بجلود
البهائم الميتة ، وأزهتك في الخواطر الخية ، هب أن انسانا لقيك في طريق
فسالك عن شيء من العلم ، هل كان يحسن أن تحيله على الرجوع
إلى منزلك والنظر في كتبك ؟ فإذا كان لا يحسن فالزم الحفظ ، فلزمها
سقراط » (١٩٢) . الأمر الثانى : أنه في كل علم وتعليم فإن هناك قدرا
معينا من حقائق العلم لابد أن تستظهر ، وليس ذلك بقادح في عملية العلم
والتعليم ، ما كان هذا الاستظهار مصاحبا للهمم والتأمل وحسن استخدام
المعلومة المحفوظة . وفي هذه الحدود يمكن أن نفهم الدور الذى لعبه
الحفظ في التعليم الطبى عند المسلمين دون أى تضخيم لهذا الدور ،
أو إلغاء لآثره القوى في نجاح هذا التعليم عند المسلمين .

سادسا — عدد سنوات التعليم الطبى :

سبق أن ذكرنا عند حديثنا عن « مرحلة التعليم الأولى » أن المسلمين
لم يتقيدوا بتحديد سن معينة لبداية التعلم أو نهايته ، وتركوا ذلك
لإستعداد الطالب وتقدير الأستاذ ومتابعة الوالدين . وسنرى هنا أيضا
أن « التعليم الطبى » لم يخضع لعدد سنوات دراسية معينة ، فابن سينا
على سبيل المثال عندما وصل إلى الثامنة عشر من عمره كان قد قرأ شيئا
من الطب ، واشتهر به حتى أن الأمر نوح بن منصور السامانى قد طلب
مشاركته في علاجه (١٩٣) . وعلى بن رضوان كان يتكسب في مثل هذه
السن أيضا من الطب (١٩٤) . ولكن يبدو أن المقصود بالاشتغال بالطب
في مثل هذه السن هو ممارسة بعض الأمور الطبية البسيطة غير المعقدة ،
خصوصا إذا عرفنا أنه كان من رأى ابن سينا أن الطالب في تلك المرحلة
الدراسية بعد أن يختار العلم الذى سيتخصص فيه ، وبعد أن يقطع فيه
شوطا فمن الأفضل أن يمارس هذا العلم عمليا . فإذا كان قد اختار
الطب حاول أن يزاول عمليا هذه المهنة ، وإن كان يدرس الأدب أو الكتابة
والإنشاء حاول التكسب بهذا العلم ، وفي ذلك كما يرى ابن سينا منفعتان :
أحدهما : إذا ذاق حلوة الكسب بضاعته وعرف غناها وجددها عظيمة
فلم يضيع (يقصر) في أحكامها وبلوغ أقصاها . والثانية : أن يعتاد
طلب المعيشة » (١٩٥) . وابن رضوان أيضا الذى مارس شيئا من الطب

انبسيط في سن مبكرة من أجل التكسب ، يذكر أنه بجوار ذلك واصل الاجتهاد في التعليم كما يذكر « الى السنة الثانية والثلاثين ، فاني اشتهرت فيها بالطب ، وكفاني ما كنت اكسبه بالطب ، بل وكان يفضل مني انى وقتى هذا ، وهو آخر السنة التاسعة والخمسين ، وكسبت مما فضل عن نفقتى املاكا في هذه المدينة أن كتب الله عليها السلامة وبلغنى بسن انشيخوخة كفاني في النفقة عليها » (١٩٦) . فكان ابن سينا وابن رضوان قد درسا الطب لمدة ثلاث سنوات لممارسة بعض الاستشارات الطبية البسيطة ثم درسا الطب بعد ذلك مدة أطول لينالوا الشهرة ويكتسبوا الحنق بالصنعة . أما ابن جلجل صاحب طبقات الأطباء والحكام فقد بدأ طلبه للطب في الرابعة عشرة ، وأفتى فيه في الرابعة والعشرين ، وغلب عليه هذا الفن وبه عرف ، وفي رجاله كانت مؤلفاته (١٩٧) ، أى أنه ظل يدرس الطب حوالى عشر سنوات . وهناك اشعارات كثيرة تدل على أن بعض الطلاب كان سريع التحصيل . فرشيد الدين خليفة يقول له استاذة في حضور ابن أصيبعة : « والله يا رشيد الدين ، هذا الذى علمته في نحو شهر دأب غيرك في خمس سنين حتى يعلمه » (١٩٨) . ولذلك فمن الطبيعى أن يخضع عدد سنوات التعليم الى عوامل مثل : استعداد الطالب العلمى ، ودوافعه للتعلم : وهل يريد أن يكون ممارسا لفرع واحد من الطب للتكسب به ، أم يريد أن يكون « حكيما » ويصل الى درجة الفتى في الطب « الذى يفرع ويقيس ويستخرج » (١٩٩) . كذلك فإن الدارس للكثير من تراجم الأطباء يلاحظ ظاهرة تكاد أن تكون عامة وهى أن المشهورين من الأطباء كانوا دائمي التعلم والقراءة والاطلاع مدى حياتهم الطبية تقريبا (٢٠٠) . وهؤلاء بلا شك هم فقهاء الطب وحكامه كما يصفهم أحمد بن الأشعث في صدر كتابه : « الأدوية المفردة » .

سابعاً - نظام الامتحانات :

يبدو أن الأطباء في بداية الأمر كانوا يمارسون المهنة بعد أن يقرأوا بعض كتبها على أحد الأطباء البارزين ويجدوا في أنفسهم القدرة على مزاولتها دون أن يكون عليهم شروط علمية بامتحان أو حكومية باجازه (٢٠١) . ولكن البعض قد تعجل مزاوله المهنة ، والحق الأذى

بارواح الآخرين ، وادمى آخرون المعرفة بالطب ، لابتزاز أموال المرضى ،
وأطلق على معرفة هؤلاء بالطب أنه « طب الطرقات » كناية عن جهلهم
بالطب الحقيقي ، وابتذالهم المهنة (٢٠٢) ، كما أطلق عليهم أيضا لفظ
« المتطبيين » أى الذين يمارسون الطب وهم ليسوا أطباء على الحقيقة (٢٠٣) .
ولذلك كان لابد أن تنظم ممارسة المهنة بحيث لا يتصدى لها إلا من لديه
الكفاءة العلمية والمهنية . ونستطيع أن نميز بين نوعين من الامتحانات
ظهرت لقياس تلك الكفاءة . أحدهما للأطباء الأحداث عند التخرج ،
والثانى للأطباء الممارسين . أما امتحان التخرج فقد شمل النظرى
والعملى ، وطبيعى أن نجد كل عضو هيئة تدريس يركز أكثر فى امتحانه
على أحد الجوانب أكثر من الأخرى . فالرازى على سبيل المثال لم يكن
يعترف بالطبيب ما لم يكن ملما بتشريح جسم الانسان ويجعل هذا
الموضوع فى مقدمة ما يسأل عنه الطالب ، فاذا فشل فى معرفة التشريح
فإن ذلك يكفى لرسوبه دون حاجة الى اختباراه فى العلوم السريرية .
يقول الرازى : « فأول ما تسأله عنه التشريح ومنافع الأعضاء ، وهل
عنده علم بالقياس وحسن فهم ودراية فى معرفة كتب القدماء . فإن لم يكن
عنده ذلك فليس بك حاجة الى امتحانه فى المرضى . وإن كان عالما بهذه
الاشياء فأكمل امتحانه حينئذ فى المرضى ، فإن رأيته يدرى ففى الأدوية » .
أى أن الرازى كان يبتدأ بالجانب النظرى ويؤكد عليه أما على بن رضوان
فقد كان له رأى مخالف ، إذ كان يركز على الجانب العملى اعتقادا منه
أن القسم النظرى يستطيع الطالب أن يتعلمه فيما بعد دون الحاجة
الى استاذ مشرف . أما القسم العملى فهو الذى يجب التأكد فى الامتحان
من أن الطالب قد أتقنه ومارسه على يد استاذ قبل تخرجه (٢٠٤) .

أما امتحان الممارسين للمهنة ، فقد وضع امتحان الصيدلة فى عهد
المأمون ، ويزوى ابن أصيبعة قصة بداية هذا الامتحان وكيف أن يوسف
ابن ابراهيم قد أخبر المأمون « أن الصيدلانى لا يطلب منه انسان شيئا
من الاشياء كان عنده أو لم يكن إلا أخبره بأنه عنده ، ودفع اليه شيئا
من الاشياء التى عنده ، وقال هذا الذى طلبت . فإن رأى أمير المؤمنين

أن يضنع اسما لا يعرف ، ويوجه جماعة الى الصيدلة في طلبه ليداعه فليعمل ، فقال له المأمون : قد وضعت الاسم وهو سقطيئا — وسقطيئا ضيعة تقرب من مدينة السلام . ووجه المأمون جماعة من الرسل يسألهم عن سقطيئا ، فكلهم ذكر أنه عنده وأخذ الثمن من الرسل ودفع اليهم شيئا من حانوته ، فساروا الى المأمون بأشياء مختلفة ، فمنهم من أتى ببعض البذور ، ومنهم من أتى بقطعة من حجر ، ومنهم من أتى بوبر « ، وكانت هذه الحادثة سببا في امتحان الصيدلة والايتصدي لتلك المهنة أحد الا بعد امتحانه للتأكد من علمه وأمانته (٢٠٥) . أما امتحان ممارسة الطب فقد بدأ في عهد المقتدر . ويروى لنا ابن أصيبعة أيضا قصة بداية هذا الامتحان فيقول نقلا عن ثابت بن سنان : « لما كان في سنة تسع عشرة وثلاثمائة اتصل بالمقتدر أن غلطا جرى على رجل من العامة من بعض المتطببين فمات الرجل — فأمر ابراهيم بن محمد بن بطحا بمنع سنان من المتطببين من التصرف الا من امتحنه والدى سنان بن ثابت . وكتب له رقعة بخطه بما يطلق له من الصناعة ، فساروا الى والدى وامتحانهم ، وأطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرف فيه . وبلغ عددهم في جانبى بغداد ثمانمائة رجل ونيفا وستين رجلا ، سوى من استغنى عن محنته باشتهاره بالتقدم في صناعته ، وسوى من كان في خدمة السلطان » (٢٠٦) . وبذلك أصبحت مهنة الطب والصيدلة لا تمارس الا بعد اجتياز امتحان تديره رئاسة الأطباء بمعونة هيئة الحسبة ، التي مارست وظيفة التفتيش والرقابة على الأطباء والصيدلة في تلك العصور (٢٠٧) . وإذا كان رئيس الأطباء هو الذى يحكم على طائفة الأطباء ويأذن لهم في ممارسة المهنة فقد كان رئيس الكحالين يمارس نفس الدور مع طائفة الكحالين ، ورئيس الجراحية بالنسبة للجراحية والمجبرين (٢٠٨) .

ولقد تطور هذا الامتحان شيئا فشيئا بحكم الزمن وتقدم الصنعة ، حتى إذا حل القرن العاشر الهجرى صار على كل من يكمل تعلم المهنة ويرغب في ممارستها ، أن يقدم طلبا الى رئيس الأطباء مشفوعا بما يشبه الأطروحة تتضمن شيئا من أعماله الشخصية في الطب ، أو تطبيقا على أحد الكتب البارزة فيه . ويمتحنه رئيس الأطباء في بحث هذه الأطروحة ،

وفي كل ما له علاقة بها من علوم الطب ، ويجيزه على ممارسة الصنعة بحسب معلوماته بذلك (٢٠٩) .

ثامناً - أساتذة الطب :

كان اختيار الأستاذ مهما في التعليم الطبى الإسلامى ، ولذا حرص الطلاب على أن يختاروا الأطباء المشهود لهم بالكفاءة ليتلقوا عليهم العلم النظرى والتدريب العملى سواء كان هذا الأستاذ داخل الاقليم أو رحلوا اليه أينما وجد . وتؤكد أدبيات التربية الإسلامية على أهمية حسن اختيار الأستاذ ، وأن يترىث الطالب فى ذلك ، وأن يشاور وأن يسأل عن الأستاذ الأعلام والأروغ والأسن ، « اذ أن أول ما يذكر من المرء أستاذه ، فان كان جليلا جل قدره » فإذا وجد الطالب أستاذا جليلا القدر لازمه وأخذ عنه (٢١٠) . ويحثنا عن الأستاذ الحاذق رحل طلاب الطب من مكان الى آخر (٢١١) . فرضى الدين الرحبى على سبيل المثال يرحل اليه الطلاب لذيوع شهرته ، ولذلك « اشتغل عليه بصناعة الطب خلق كثير ، ونيف منهم جماعة عدة ، وأقرأوا لغيرهم وصاروا من المشايخ المذكورين فى صناعة الطب » (٢١٢) . ولقد كان الطالب ينسب دائما الى أستاذه الذى تخرج على يده ، ولذا فكثيرا ما يذكر ابن أصيبعة فى تراجمه أن فلانا أخذ الطب عن فلان ، وكان من تلامذته فلان وفلان ... الخ (٢١٣) . فعلى سبيل المثال عند الترجمة لأبى الفرج بن الطيب يقول : « أخذ عن ابن الخمار وخلف من التلاميذ أبا الحسن بن بطالان ، وابن بدرج ، والهروى ، وبنى حيون ، وأبا الفضل كتيفات ، وابن أثردى ، وعبدان ، وابن مصوصا ، وابن العليق » (٢١٤) . وعند امتحان ممارسة الطب كان أول ما يسأل عنه الطبيب الممارس : على من تلقى الصنعة ؟ (٢١٥) اذ كان تلقيه الصنعة على يد أستاذ حاذق يرفع من شأنه بعكس ما اذا لم يعرف له أستاذ جليل القدر .

ويرسم لنا ابن أصيبعة فى أكثر من موضع صورة مشرفة لأساتذة الطب سواء فى تطويرهم للتعليم الطبى ، بعد نقله وترجمته واستيعابه ، أو فى تدريبهم للطلاب على ممارسة المهنة عمليا ، أو فى إعطائهم المثل الجيد لطلابهم من حيث أخلاق المهنة ، ومواصلة العلم والدراسة حتى آخر لحظة فى حياتهم لقد كان أساتذة الطب فى البداية يعرفون اللغات الأجنبية

مثل السريانية أو اليونانية أو الرومية أو الفارسية (٢١٨) . ولكنهم بجوار ذلك كانوا يتقنون العربية ويهتمون بها الى أبعد الحدود ، حتى تأتى ترجماتهم جيدة . وبلغ حرصهم على اللغة العربية واحترامهم لها ، أنهم لم يكونوا يسمحون لطلابهم باللحن فى قراءة الكتب الطبية ، فمذهب الدين عبد الرحيم على سبيل المثال كان « أبدا لا يفارقه الى جانبه مع ما يحتاج اليه من الكتب الطبية ومن كتب اللغة ، كتاب الصحاح للجوهري والمجلد لابن فارس » (٢١٧) . وأمين الدولة بن التليذ « كان يحضر مجلسه فى صناعة الطب خلق كثير يقرأون عليه ، وكان اثنان من النحاة يلزمان مجلسه ولهما منه الانعام والافتقاد ، وكان من يجده من المشتغلين عليه يلحن كثيرا فى قراءته أو هو الكن يترك أحد ذينك النحويين يقرأ عنه وهو يسمع » (٢١٨) . ولعل هذا الاهتمام باللغة العربية هو الذى مكّنهم من اجتياز مرحلة الترجمة الى مرحلة الإبداع والتأليف الطبى باللغة العربية ، وذلك ازدهر التعليم الطبى وأصبح ميسرا للطلاب ، كما شاعت « الثقافة الطبية » بين المثقفين وطبقات العامة .

كذلك سنرى الأساتذة فى البيمارستانات يقدمون لطلابهم المثل الجيد للممارسة الطبية وللحكم السريرى الجيد ، ويتيحون لهؤلاء الطلاب فرص التعليم النظرى والتعليم السريرى على نحو ما يصف لنا ابن أصيبعة فى أكثر من موضع (٢١٩) . اذ قل أن يتحدث عن أستاذ ، الا ويذكر طلابه من حوله يدرسون ، أو يطالعون ويناقشون أو يشاهدون ملاحظات سريرية . . ولقد بلغ من حرص الطلاب على الاستفادة بأساتذتهم أن الطلبة والمشتغلين على أبى الفضل بن الناقذ كانوا يقرأون عليه حتى وهو راكب وقت مسيره وافتقاده للمرضى (٢٢٠) . وهكذا قام أساتذة الطب الإسلامى بدورهم كأفضل ما يكون دور الأستاذ الجامعى من حيث تطوير المعرفة الطبية ، وتدريب الأطباء ، واعطاء المثل الجيد للممارسة العلمية والمهنية (٢٢١) .

تاسعا — المرأة والتعليم الطبي :

لقد ترجم ابن أصيبعة في طبقاته لأكثر من أربعمائة وخمسة عشر طبيباً في العصر الإسلامي (انظر الملحق رقم ٢) ، ومع ذلك لم يخص المرأة من هذا العدد ، إلا ترجمة واحدة لزينب طيبة بنى أود . ويقول ابن أصيبعة في ترجمتها أنها « كانت عارفة بالأممال الطبية ، خبيرة بالعلاج ومداواة العين مشهورة بين العرب بذلك » . ويحكى لنا عنها قصة رواها أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني ملخصها « أنها كحلت مريضاً من رمد أصابه ، ثم قالت له : اضطجع قليلاً حتى يدور الدواء في عينيك ، فاضطجع المريض ثم تمثل قول الشاعر :

امخرمى ريب المنون ولم أزر

طبيب بنى أود على الناي زينبا

فضحكت ثم قالت : أتدرى فيمن قيل هذا الشعر ؟ قلت : لا ، قالت :
في والله قيل ، وأنا زينب التي عناها وأنا طيبة بنى أود . أمتدرى
من الشاعر ؟ قلت : لا ، قلت : عمك أبو سهاك الأسدي » (٢٢٢) .

ويقف الدارس أمام هذه الظاهرة ، عدم وجود تراجم للطبيبات المسلمات ويحاول أن يسأل : لماذا لم يترجم ابن أصيبعة لطبيبات سوى زينب ؟ وهل يعقل أنه لم تكن هناك طبيبات سواها ؟ وأن المرأة المسلمة لم تتعلم الطب ؟ وأن هناك ظروفاً خاصة كانت تحول بينها وبين تعلم الطب ؟ ولكن لقد مرت بنا قصة الجارية التي كانت تعلم الطب ، وأجابت على أسئلة الأطباء في مجلس الرشيد ، وكان ذلك سبباً في أن يشتريها المأمون بثمن باهظ ، فهل يعقل أن تتعلم الجوارى والاماء ولا تتعلم الحرائر ؟؟

لقد وقف أحمد شلبي وقتاً سريعة أمام ما سباه قلة نسبة عدد المتعلمات بين النساء كثيراً عن نسبتها بين عدد المتعلمين من الرجال في العصر الإسلامي ، وأرجع ذلك إلى أن تعليم المرأة كان بواسطة أحد ذويها أو يقوم به معلم خاص . وكلا هذين لا يتيسر للجبهة العظمى (م ١١ — الإعداد التربوي للطبيب)

من النساء في حين ان الوسيلة لتعليم الولد سهلة ، فهو يلتحق بالكتاب صبيا ، وينضم الى حلقات العلم في المؤسسات التعليمية المختلفة اذا شب ونمت ثقافته (٢٢٢) . فهل كان هذا هو سبب قلة عدد الطبيبات المسلمات ؟ ام ان هناك اسبابا اخرى مثل تعذر الرحلة في طلب الأستاذ ؟ وصعوبة الممارسة والملاحظة السريرية في البيمارستانات ، وانشغال المرأة بأمورها المنزلية ؟ ... الخ ، واذا كان ابن اصبهانة لم يذكر لنا أسماء الطبيبات المسلمات ، فاننا نجد باحثين آخرين يذكرون لنا أسماء طبيبات منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . كرفيدة وأم عطية وأممية بنت قيس الغفارية والربيع بنت معوذ ، وأم الحسن بنت القاضي أبو جعفر الطنجالي وأخت الحفيد بن زهر وابنتها « وكانتا عالمتين بصناعة الطب والداواة » ولهما خبرة جيدة فيها يتعلق بمداواة النساء ، وكانتا تدخلان الى نساء المنصور ولا يقبلن لمداواة أهل المنصور سواهما » (٢٢٥) . كذلك فان الفقهاء المسلمين كانوا لا يرون ان يداوى الرجل المرأة الا لضرورة ولا ينظرون من جسدها الا ما لا بد منه (٢٢٦) ، مما يؤكد لنا انه كان بجوار الأطباء المسلمين وجدت طبيبات مسلمات ، وان كن اقل عددا من الأطباء . فلماذا لم يترجم لهن ابن اصبهانة ؟

يبدو ان ابن اصبهانة لم يترجم الا لمن اشتهر بوظيفة الطب ، وتخصص فيه ، وكانت له فاعليات في هذا المجال ، كان يكون له طلاب ، أو تكون له مؤلفات طبية ، أو تكون له ممارسات أودعها في كتاب ، ويبدو ايضا ان أغلب من مارس الطب من النساء لم تمارسنه كمهنة أو تخصص ، أو مصدر رزق ، ولم تكن لهن فاعليات في مجال الطب وتعليمه وممارسته . وانما كن في الغالب متطوعات يقمن بالدور الذي تقوم به في العهد الحاضر منظمات الصليب الأحمر كما ترى Mugannam (٢٢٧) ، أو بالدور الذي يقوم به الطبيب العام الممارس General praction القادر على مواجهة مشاكل الجراحة الصغيرة والتوليد وأمراض الأطفال والكحل ... الخ من الأعمال الطبية البسيطة التي تحدث كثيرا ويمكن ان تقوم بها الطبيبات المسلمات دون ان يستلزم ذلك تخصصا دقيقا في الطب ، ودون ان يكون لهن كتب أو مؤلفات أو خبرات طبية خاصة

تستحق أن توضع للدراسة والاحتذاء لغيرهن من الأطباء . ولهذا لم يترجم
لهن ابن أصيعة لأنه كما ذكر في صدر كتابه ، أنها كتب هذا المؤلف ليذكر
فيه « جماعة من أكابر أهل هذه الصناعة ، وأولى النظر فيها والبراعة
ممن قد ثارت الأخبار بفضلهم ، وثقلت الآثار بملو ثدرهم ونبلهم ،
وشهدت لهم بذلك مصنفاتهم ، ودلت عليهم مؤلفاتهم » (٢٢٨) . ولكن ذلك
لا ينفي أن موضوع تعليم المرأة بصفة عامة ، وتعليم الطب بصفة خاصة
ما زال موضوعا يتطلب دراسة خاصة على كل حال .

مراجع الفصل الثالث ومصادره

- (١) الباحث : « الفكر التربوي والنفسى فى تراثنا العربى الاسلامى »
من : بحوث فى التربية الاسلامية ، مرجع سابق ، ص ٥ - ص ١٢ .
- (٢) و (٣) ابن سينا : البرهان من الشفاء ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٣٧٥ هـ ، ص ٥٧ .
- (٤) راجع فهرست موضوعات : « مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم » ، مرجع سابق ، الاجزاء الثلاثة .
- (٥) راجع : احمد زكى بك : موسوعات العلوم العربية ، المطبعة الاميرية ببولاق ، ١٨٨٩ ، حيث يستعرض الكتاب اهم تلك المؤلفات التى اعتبرها جميعا موسوعات Encyclopedia ثم راجع مقدمة عثمان امين على كتاب : احصاء العلوم ، الفارابى ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٣ - ص ٢٣ ، ومقدمة كامل كامل بكرى ، وعبد الوهاب ابو النور على كتاب : مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، مرجع سابق ، ص ٣٥ - ص ٧٦ ، حيث نجد تفرقة مهمة بين نوعين من هذه المؤلفات : مؤلفات تعتبر موسوعات او دائرة معارف عربية للعلوم ، ومؤلفات تعتبر مجرد كتب تعريف وتصنيف Classification
- (٦) الفارابى : احصاء العلوم ، تحقيق عثمان امين ، مرجع سابق ، ص ٥٣ - ص ٥٥ .
- (٧) ابن سينا : « كتاب السياسة » ، نشر لويس معلوف ، مجلة المشرق ، عام ١٩٠٦ م ، ص ١٠٧٥ .
- (٨) نفس المرجع والمكان .
- (٩) راجع النظرية الاسلامية فى حكمة اختلاف البشر فى الميول والقدرات كما عرضها ابن سينا ، الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ٧٣ - ص ٧٤ ، وهذه النظرة نجدها لدى اغلب المفكرين المسلمين ، كالفارابى وابن خلدون واخوان الصفا ... الخ .

- (١٠) ابن سينا : كتاب السياسة ، مرجع سابق ، ص ١٠٧٥ —
ص ١٠٧٦ .
- (١١) برهان الاسلام الزرنوجي : تعليم المتعلم طريق التعلم ،
مرجع سابق ، ص ٦٣ .
- (١٢) طائش كبرى زادة : مفتاح السعادة ومصباح السيادة ،
مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٣٢٦ .
- (١٣) ابن ابي عمير : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٧ .
- (١٤) المولوي التهانوي : كشف اصطلاحات الفنون ، ج ١ ،
ص ٧٣ ، نقلا عن : عبد اللطيف محمد العبد ، محقق اخلاق الطبيب ،
للازلي ، دار التراث ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٦٥ .
- (١٥) برهان الاسلام الزرنوجي : تعليم المتعلم طريق التعلم ،
مرجع سابق ، ص ١٣٤ ، ص ١٤٠ .
- (١٦) خضر بن علي الخطاب : « مخطوطة شفاء الاسقام ودواء
الآلام » في سلمان قطاية : مخطوطات الطب والصيدلة في المكتبات العامة
بطلب ، معهد التراث العلمي العربي ، حلب ، ١٩٧٦ ، ص ١٠١ ،
ص ١٠٢ .
- (١٧) مظفر الدين الفيتابي المعروف بابن الامشاطي : « مخطوطة
شرح اللحة العنيفة المسمى تأسيس الصحة » ، نفس المرجع ، ص ١٣٠ .
- (١٨) راجع : ابن ابي عمير : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ،
مرجع سابق ، ص ١٨٣ — ص ٢٨٤ ، حيث تبدو تلك الظاهرة : ظاهرة
احتكار وتوارث التعليم الطبي بين أسر معينة من اهل الزمة غير العربي .
- (١٩) ادوارد ج. براون : الطب العربي ، مرجع سابق ، ص ٢٤ .
- (٢٠) ابن ابي عمير : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٣٥٤ — ص ٢٥٥ .
- (٢١) محمد كرد علي : مقدمته لتاريخ حكماء الاسلام ، للبيهقي ،
مطبعة التركي بدمشق ، ١٩٤٦ ، ص ٧ .

- (٢٢) ابن ابي عمير : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ٢٦١ .
- (٢٣) ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، مطبعة المصانف ، بغداد ، ١٩٦٥ ، ص ٥٥ — ص ٥٦ .
- (٢٤) سعيد اسماعيل علي : معاهد التعليم الاسلامي ، مرجع سابق ، ص ٢٢٧ .
- (٢٥) داود الانطاكي : تذكرة اولى الالباب والجامع للعجب العجيب ، المطبعة الحسينية ، القاهرة ، ١٩٢٦ ، ج ١ ، ص ٥ .
- (٢٦) الحافظ الذهبي : الطب النبوي ، البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٠٧ ، ص ١٠٨ .
- (٢٧) أحمد حسين القرني : قصة الطب عند العرب ، مرجع سابق ، ص ٩٤ ، ص ٩٥ .
- (٢٨) ابن بطالان : دعوة الأطباء على مذهب كليلة ودمنة ، المطبعة الخديوية بالاسكندرية ، ١٩٠١ م .
- (٢٩) فؤاد سركين : محاضرات في تاريخ العلوم ، مطابع جامعة الازهر ، سعيد بن سمود ، الرياض ، ١٩٧٩ ، ص ١٠٥ ، ص ١٠٦ .
- (٣٠) انظر مثلا : ص ١٨٦ ، ص ١٨٨ ، ص ١٩٠ ، ص ١٩٢ . الخ ، وكذا الملحق رقم (١) .
- (٣١) ظهير الدين البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٢١ .
- (٣٢) نظامي العروضي السمرقندي : جواهر مقال (المقالات الأربع) ترجمة عبد الوهاب يحيى الخثعم ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٢٠ .
- (٣٣) الرازي : اخلاق الطبيب ، مرجع سابق ، ص ٨٧ ، ص ٨٨ .
- (٣٤) ادوارد ج. براون : الطب العربي ، مرجع سابق ، ص ١٤٠ — ص ١٤١ .

- (٣٥) انظر : تفاصيل التصور الاسلامى للمعرفة في :
Zeyyed Hossein Nasr : *Islamic Science, World of Islam Festival*
publishing Company LTD, London, 1976
- : *An Introduction to Islamic Cosmological Doctrines*,
Cambridge, London, 1976.
- : *Science and Civilization in Islam*, Cambridge, London,
1970.
- John Rowland : *Mysteries of science, A study of the Limitations* (٣٦)
of the scientific Method, Werner Laurie, London, 1955,
p. 182.
- (٣٧) قارن التصور الاسلامى للمعرفة بالتصور المادى للعلم كما
يعرضه :
E.A. Burtt : *The Metaphysical Foundation of modern science*, Long-
man, New York, 1954.
- H. Butterfield : *The origins of Modern Science*, Wiley, New York,
1951.
- (٣٨) ابن سينا : *النجاة* ، البابى الحلبى ، القاهرة ، ١٣٥٧ هـ ،
ص ٧٣ ، ص ٧٤ ، *البرهان من الشفاء* ، مرجع سابق ، ص ١٦٢ . ولاخذ
صورة كاملة عن هذا التصور انظر رسالته : « أقسام العلوم العقلية »
مطبوع ضمن مجموعة « *مجموع الرسائل* » ، مطبعة كردستان العلمية —
القاهرة ، ١٣٢٨ هـ ، ص ٢٢٥ — ص ٢٤٥ .
- (٣٩) عبد المجيد عابدين : *تقديم كتاب : مقدمة في تاريخ الطب العربى*
— التجانى الماحى ، مطبعة مصر ، الخرطوم ، ١٩٥٩ م ، ص ٤ .
- (٤٠) طائش كبرى زادة : *مفتاح السعادة ومصباح السيادة* ، مرجع
سابق ، ص ٢ ، ص ٣ .
- (٤١) *نفس المرجع* ، ص ٣ ، ص ٤ .

(٤٢) محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية والإدارية المائدة للعصر العباسي الأول ، دراسة ونصوص ، مؤسسة الرسالة ، القاهرة — ١٩٧٧ ، ص ٢٥٨ ، ص ٢٥٩ .

(٤٣) ظهير الدين البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١٩ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٨٠ ، ٩٥ ، ١٠٣ ، ١٣٧ ، الخ . . حيث نرى اشتهاً لكل عالم بمجال من المجالات العلمية .

(٤٤) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ، ترجمة عبد الهادي أبو ريده ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ج ١ ، ص ٣٠٩ .

(٤٥) ابن أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ٦١٠ من ترجمة عيسى الرقي .

(٤٦) ألف ليلة وليلة ، ص ٤٤٩ — ص ٤٥٤ ، نقلاً عن : نظير أحمد : « بعض مشكلات البحث والدراسة للطب الإسلامي في العصور الحديثة » من أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الثاني للطب الإسلامي ، مرجع سابق ، ص ٨٩٨ .

(٤٧) ابن هشام : سيرة ابن هشام ، مرجع سابق ، ص ٢٩٧ — ص ٣٠٠ ، السهيلي : الروض الأنف ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٩ — ج ٤ ، ص ٢٣٢ ، ص ٢٣٤ ، و .

— The Encyclopaedia of Islam, Luzac, London, Vol III, 1936, pp. 317, 318.

(٤٨) التفرى بردى : النجوم الزاهرة ، المؤسسة المصرية ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ١ ، ص ٦٦ — ص ٦٨ ، ص ٣٢٦ — ص ٣٢٧ ، ج ٣ ، ص ٨ ص ١٢ ، ج ٤ ، ص ٣٢ ، المقرئى : الخطط المقرئية ، مطبعة النيل ، القاهرة ، ١٣٢٦ هـ ، ج ٤ ، ص ٧٩ — ص ٨٩ .

(٤٩) التفرى بردى : النجوم الزاهرة : ج ٤ ، ص ٧٩ — ص ١٠٤ ، المقرئى : الخطط المقرئية ، ج ٢ ، ص ٣٨٤ — ص ٣٩٤ .

(٥٠) لأخذ فكرة عن هذا الدور قديما وحديثا راجع : عبد الفتاح جلال وآخرون : **المسجد وتعليم الكبار ، في المجتمع المعاصر ،** سرس الليان ، المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكيار في العالم العربي ١٩٧٨ ، عبد الله عبد الخالق المئيد : « وظيفة المسجد في المجتمع المعاصر في التوجيه الاجتماعي في الاسلام » من بحوث مؤتمرات **مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ، مجمع البحوث الإسلامية ، ج ٣ - ١٩٧٢ ،** طلعت بدير الأديب ، « **دور المسجد في تلبية حاجات جمهوره** » ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية جامعة الأزهر ، ١٩٧٩ .

(٥١) **ظهر الدين البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ،** مرجع سابق ، ص ١٣١ .

(٥٢) **ابن أصيعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ،** مرجع سابق ، ص ٦٨٩ .

(٥٣) **محمد عبد الله عنان : « مصر في فاتحة القرن الثالث عشر كما يصورها عبد اللطيف اليفغادى » في : مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ،** مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ١٣١ - ص ١٤٠ .

(٥٤) راجع على سبيل المثال ، ما حدث من تطور الدراسة في الأزهر في :

A. ElnakiB : **The Educational Reform of Al-Azhar 1872-1972.** op. cit, pp. 29 - 34.

(٥٥) **أحمد شطبي : التربية الإسلامية نظمها ، فلسفتها ، تاريخها ،** مرجع سابق ، ص ١١٣ ، ص ١١٤ ، وانظر أيضا :

سعيد اسماعيل على : معاهد التعليم الإسلامي ، مرجع سابق ، ص ١٢٩ ، ص ١٣٤ ، عبد الله عبد الدايم : **التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين ،** مرجع سابق ، ص ١٥٤ ، ص ١٥٦ .

(٥٦) عن أهمية الأوقاف في الحياة الثقافية والتعليمية راجع : **محمد محمد أمين على : « تاريخ الأوقاف في مصر في عصر سلاطين المماليك**

١٢٥٠ - ١٥١٧ « ، دراسة تاريخية وثقافية ، دار النهضة العربية — القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٢٣٣ — ص ٢٧٥ .

(٥٧) انظر الطابع الدراسي في تلك المدارس في :

George Makdisi : "Muslim Institution of learning In Eleventh century Baghdad" In The Bulletin of The School of Oriental and African Studies, University of London, Vol XXIV, pp 1-56. & A.L. Tibawi: "Origin and Character of Al-Madrasah", Ibid, Vol, XXV, pp 225 - 238.

(٥٨) عبد الله عبد الدايم : التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين ، مرجع سابق ، ص ١٥٥ .

(٥٩) محمد مصطفى زيادة وآخرون : تاريخ الحضارة المصرية : العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢ ، ص ٥٨٨ — ص ٥٩٠ .

(٦٠) حسين أمين : من تاريخ التربية والتعليم في الإسلام « المدرسة المستنصرية » ، مطبعة شفيق ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٤٠ — ص ٤١ ، وراجع محتويات المبنى الدراسي من ص ٣٨ — ص ٤٢ .

(٦١) ابن ابي عمير : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ٧٣٣ .

(٦٢) حاجي خليفة : كشف الظنون على أسامي الكتب والفنون ، وكالة المعارف ، استانبول ، ١٩٤٣ ، ج ١ ، ص ٥٣ .

(٦٣) ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، مطبعة المصانف ، بغداد ، ١٩٦٥ ، ج ١ ، ص ٥٧ — ص ٦٠ .

(٦٤) عبد الله عبد الدايم : التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين ، مرجع سابق ، ص ١٥٥ ، سعيد اسماعيل على : معاهد التعليم الإسلامي ، مرجع سابق ، ص ١٥٦ ، ص ١٨٠ .

(٦٥) عبد السادر محمد النعمي الدمشقي : المدارس في تاريخ المدارس ، مطبعة التركي بدمشق ، ١٩٥١ وانظر وصفه لمدارس الطب ،

بالذات : الدخوارية ، الدينسرية ، اللبودية النجمية ، ج ٢ ، ص ١٢٧ -
ص ١٣٨ .

(٦٦) ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، مرجع سابق ج ١ ،
ص ٥٥ - ص ٦٠ .

(٦٧) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٦٧٣ .

(٦٨) نفس المرجع ، ص ٦٧٦ .

(٦٩) نفس المرجع ، ص ٧٣٤ .

(٧٠) نفس المرجع ، ص ٧٣٣ .

(٧١) أحمد شلبي : التربية الإسلامية ، نظمها ، فلسفتها ، تاريخها ،
مرجع سابق ، ص ١٢٤ ، وانظر أيضا عماد عبد السلام رعوف : مدارس
بغداد في العصر العباسي ، مطبعة دار البصري ، بغداد ، ١٩٦٦ ، ص ٦ ،
ص ٧ .

(٧٢) خوسيه لويس بارسلو : « أثر العلوم الإسلامية في تطور
الطب » من أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الأول عن الطب الإسلامي ،
مرجع سابق ، ص ١١٨ ، وقارن هذا العدد الهائل من الأطباء والخدمات
الطبية التي توفرت للمسلمين ، بما يعانيه عالمنا العربي الإسلامي اليوم
من انخفاض المستوى الصحي ، وقلة عدد الأطباء والخدمات الصحية في :
R.E Nassif, J.D. Thaddeus : (Editors): Education for Health Man-
power in the middle East, American University of Beirut, 1967.

وبهيج ملاجويش : نحو دراسة صحية لمستقبل العالم الإسلامي ،
المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٧٥ ، د. نبيل صبحي الطويل : « الحرمان
والخلاف في ديار المسلمين » ، كتاب الأمة ، رئاسة المحاكم الشرعية ،
والشئون الدينية ، دولة قطر ، ١٩٨٤ .

(٧٣) أحمد عيسى بك : تاريخ البيمارستانات في الإسلام ، المطبعة
الهاشمية ، دمشق ، ١٩٣٩ ، ص ٤ .

- (٧٤) ابن أضيعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ٤٧ .
- (٧٥) أحمد عيسى بك : تاريخ البيمارستانات في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١٠ .
- (٧٦) نفس المرجع ، ص ٣ .
- (٧٧) بول غليونجي : « اسهام علماء المسلمين في البحث العلمى في مجال الطب » مجلة اتحاد الجامعات العربية ، العدد السابع عشر ، ١٩٨٠ ، ص ١٩٠ ، مرسى محمد عربى : لمحات من التراث الطبى العربى ، مرجع سابق ، ص ٧٠ — ص ٧٥ .
- Seyyed Hossein Nasr: Islamic Science, Op. Cit PP. 19, 20.
- (٧٨) نور حسين شودرى : « فضائل الطب الاسلامى ، كيفية اكتسابها ، واعادة تنظيمها » من ابحاث واعمال المؤتمر العلمى الاول عن الطب الاسلامى ، مرجع سابق ، ص ١٣٢ .
- (٧٩) احسان كارجاس : « بيان تمهيدى عن الاعمال التحضيرية من أجل اقامة نظام للآداب الطبية الاسلامية » نفس المرجع ، ص ٦٣٤ .
- (٨٠) ابن أضيعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ٤١٥ ، ص ٤١٦ .
- (٨١) نفس المرجع ، ص ٣٠١ .
- (٨٢) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، تحقيق حسين نصار ، مكتبة مصر ، ١٩٥٥ ، ص ٢٠ ، ص ٢١ .
- (٨٣) عبد الهادى التازى : « المنشآت الصحية بالمغرب عبر التاريخ ، بمناسبة السنة الدولية للمعاقين » ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردنى ، العدد المزدوج ١٣ ، ١٤ ، السنة الرابعة ، ١٩٨١ ، ص ٦٩ ، ص ٧٠ .
- (٨٤) محمد عبد الرحيم غنيمية : مقدمة لتاريخ التعليم الجامعى فى الاسلام ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ٦٥ — ص ٧١ ، أحمد عيسى بك : تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٣ ، ص ٤ .

- (٨٥) قارن ذلك الجو التعليمي المناسب بمشاكل التعليم الطبى
فى سورية ومصر على سبيل المثال : د. كنعان وصفى الجابى : « نظرة
الى مشاكل التعليم الطبى فى سورية » فى مهرجان اسبوع العلم الرابع :
المجلس الاعلى للعلوم ، الجمهورية العربية السورية ، ١٩٦٣ ، ص ٢٤ —
ص ٣٤ .
- (٨٦) ابن اصبعة : عيون الانباء فى طبقات الاطباء ، مرجع سابق ،
ص ٧٢٨ ، ص ٧٣١ .
- (٨٧) نفس المرجع ، ص ٧٣٢ ، ص ٦٩٧ .
- (٨٨) نفس المرجع ، ص ٦٢٨ .
- (٨٩) محمد ماهر حمادة : المكتبات فى الاسلام نشأتها وتطورها
ومصائرهما ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٤٤ — ص ١٤٦ .
- (٩٠) ابن اصبعة : عيون الانباء فى طبقات الاطباء ، مرجع سابق ،
ص ٢٤٣ .
- (٩١) نفس المرجع ، ص ٦٩٨ .
- (٩٢) نفس المرجع ، ص ٧٣٢ ، ص ٧٣٣ .
- (٩٣) ظهير الدين البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، مرجع سابق ،
ص ٦٢ .
- (٩٤) ابن اصبعة : عيون الانباء فى طبقات الاطباء ، مرجع سابق ،
ص ٤١٦ ، ٤٦٢ ، ٦٣٦ ، ٦٤٧ ، ٦٦٢ ، ٧٠٠ ، ٧٤٠ ، وغيرها .
- (٩٥) محمد ماهر حمادة : المكتبات فى الاسلام نشأتها وتطورها
ومصائرهما ، مرجع سابق ، ص ٨٢ ، ثم انظر تفصيل ذلك ص ٨٢ —
ص ١٤٧ .
- (٩٦) نقلا عن : ملكة ابيض : التربية والثقافة العربية الاسلامية
فى الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الاولى للهجرة ، مرجع سابق ،
ص ١٠٦ .
- (٩٧) ابن جلجل : طبقات الاطباء والحكماء ، المعهد العلمى الفرنسى
للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٦١ .

(٩٨) محمد جواد رضا : الفكر التربوي الاسلامي مقدمة في اصوله
الاجتماعية والعقلانية ، مرجع سابق ، ص ٢٩ .

(٩٩) نفس المرجع والمكان .

Hans Nicholas: Comparative Education, A study of Educational Factors and Traditions, Routledge & Kegan paul, London, 1958, P. 101.

Mehdi Nakosteen: History of Islamic origins of western Education: University of Colorado Press, Colorado, 1964, PP. 65 - 74.

(١٠٢) ابن ابي شيبة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، مرجع سابق ،
ص ٢٦٢ .

(١٠٣) نفس المرجع ، ص ٢٦٠ ، ص ٢٧٠ ، ص ٢٧١ .

(١٠٤) نفس المرجع ، ص ٥٦٨ .

(١٠٥) نفس المرجع ، ص ٧٢٥ .

Khurshid, A. et-al : Fact Sheets on Libraries in Islamic Countries, University of Karachi, 1974.

(١٠٧) احمد شلبي : التربية الاسلامية نظمها ، فلسفتها ، تاريخها ،
مرجع سابق ، ص ١٤٧ ، ص ١٨٠ .

(١٠٨) ابن ابي شيبة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، مرجع سابق ،
ص ٩٨ .

(١٠٩) نفس المرجع ، ص ١١٠ .

(١١٠) ظهير الدين البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، مرجع سابق ،
ص ٥٣ .

(١١١) ابن ابي شيبة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، مرجع سابق ،
ص ٢٨٩ .

Seyyed Hossein Nasr : Science and Civilization In Islam, Op. (١١٢)
Cit, PP. 41,42.

(١١٣) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ؟
ص ٣٣٢ .

(١١٤) كمال السمرائي : « تعليم الطب في العصور الإسلامية »
في أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الأول للطب الإسلامي ، مرجع سابق ،
ص ٣١٩ .

(١١٥) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ١٥٤ ، وراجع تفاصيل تلك المراحل السبع ، وكتب كل مرحلة
من ص ١٥٤ — ص ١٥٧ .

(١١٦) نفس المرجع ، ص ١٥٧ ، ص ١٥٨ .

(١١٧) البر زكي اسكندر : « دراسة تحليلية لمؤلفات الرازي
وابن سينا مع الاشارة الى اثر كل منهما في تقدم البحوث الطبية »
في أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الأول عن الطب الإسلامي ، مرجع سابق ،
ص ٢٤٨ .

(١١٨) سلمان قطاية : « التعليم الطبى عند العرب » في :

— The Arab Journal of Medicine, Vol. I, No. I, February, 1982,
P. 94.

(١١٩) سلمان قطاية : مخطوطات الطب والصيدلة في المكتبات العامة
بتهلب ، مرجع سابق ، ص ١٠٧ ، ص ١٠٨ ، ص ١١٩ — ص ١٢٢ .

(١٢٠) ابن سينا : القانون ، مؤسسة الطبى وشركاه للنشر
والتوزيع ، ١٢٩٤ هـ (ثلاثة مجلدات) ، مقدمة : قاهوس القانون في الطب
لابن سينا المشتمل على الاصطلاحات المستعملة في الطب : ادارة تاريخ
الطب ، والتحقيق الطبى ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد
الدكن ، الهند ، ١٩٦٧ . والواقع فان الباحث عندما يطالع هذا القاموس
الذى يشتمل على الاصطلاحات الطبية التى استعملها ابن سينا فى كتابه
القانون والذى غطت شتى المجالات يدرك عظمة هذا الطبيب ، الفارسى
الاصل ، والذى اتقن العربية كل هذا الاتقان ، وكان قادرا على خدمتها
بعالم مرد كل هذه الخدمة فى مجال تعريب الطب ووضع المصطلحات

العربية اللازمة لذلك . ثم يقارن الباحث بين هذا الجهد الفردى ولجوء معظم أساتذة الطب عندنا الى اللغات الأجنبية كلفة للتعليم والتأليف فيدرك الفارق الكبير بين رجال ورجال .

(١٢١) الرازى : الحاوى ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، بحيدر اباد الدكن ، الهند ، ١٩٥٥ م ، (١٢ مجلدا) .

(١٢٢) نور حسين شودرى : « فضائل الطب الاسلامى ، كيفية اكتسابها ، واعادة تنظيمها » من أبحاث وأعمال المؤتمر العلمى الأول عن الطب الاسلامى ، مرجع سابق ، ص ١٢٨ ، ص ١٢٩ .

(١٢٣) سلمان قطاية : مخطوطات الطب والصيدلة في المكتبات العامة بحلب ، مرجع سابق ، ص ١١٢ .

(١٢٤) أبو الحسن على بن سهل الطبرى : فردوس الحكمة في الطب ، مطبعة أفتاب ، برلين ، ١٩٢٨ .

(١٢٥) ابن أصيعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ٢٧٥ ، ص ٢٧٨ ، ... الخ .

(١٢٦) نفس المرجع ، ص ٥٦١ .

(١٢٧) وبهامشه أيضا : « دفع المضار الكلية عن الأبدان الانسانية بتدارك أنواع خطا التدبير » : لابن سينا ، المطبعة الخيرية ، القاهرة ، ١٣٠٥ هـ .

(١٢٨) ابن البيطار : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٢٩١ هـ .

— على بن عيسى الكحال : تذكرة الكحالين ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، بحيدر اباد الدكن ، الهند ، ١٩٦٤ م .

— حنين بن اسحاق : المشر مقالات في العين ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٩٢٨ ، تقديم ماكس مايرهوف .

— أبو المنى بن أبى النصر العطار : منهاج الدكان ودستور الاعيان في أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان ، دار الطباعة الخديوية ، القاهرة ، ١٢٨٧ هـ .

- (١٢٩) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٥٥ ، ص ٥٦ ، ص ٤٢٣ ، ص ٤٥٧ ، ... الخ .
- (١٣٠) نظامي المروزي السمرقندي : جواهر مقاله (المقالات الأربع) ،
مرجع سابق ، ص ٧٦ .
- (١٣١) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٥٦٤ ، وانظر تفاصيل ذلك ص ٥٦٣ ، ص ٥٦٤ .
- (١٣٢) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٥٦٤ ، وانظر تفاصيل ذلك ص ٥٦٣ .
- (١٣٣) البير زكى اسكندر : « دراسة تحليلية لمؤلفات الرازي
وابن سينا مع الاشارة الى تأثير كل منهما في تقدم البحوث الطبية »
من أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الأول عن الطب الاسلامي ، مرجع سابق ،
ص ٢٤٣ .
- (١٣٤) نفس المرجع ، ص ٢٤٦ ، ص ٢٤٧ .
- (١٣٥) الفسارابي : احصاء العلوم ، مرجع سابق ، ص ١٢٦ .
- (١٣٦) البير زكى اسكندر : « دراسة تحليلية لمؤلفات الرازي
وابن سينا مع الاشارة الى اثر كل منهما في تقدم البحوث الطبية »
من أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الأول عن الطب الاسلامي ، مرجع سابق ،
ص ٢٤٦ .
- (١٣٧) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٢٧٧ ، ٤١٦ ، ٤٣٨ ، ٤٦٢ ، ٥٣٧ ، ٦١٤ ، ٦٩٧ ، ٧٣١ وغيرها .
- (١٣٨) نفس المرجع ، ص ٦٩٨ .
- (١٣٩) نفس المرجع ، ص ٥٦٥ .
- (١٤٠) سلمان تطاية : مخطوطات الطب والصيدلة في المكتبات العامة
بحلب ، مرجع سابق ، ص ٢٦ — ٢٧ .
- (١٤١) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٦٩٧ .
- (م ١٢ — الاعداد الترتيبي للطبيب)

- (١٤٢) نفس المرجع ، ص ٤١٦ .
- (١٤٣) نفس المرجع ، ص ٦٢٨ .
- (١٤٤) كمال السمرائي : « تعليم الطب في العصور الاسلامية »
من ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الاول عن الطب الاسلامى ، مرجع سابق ،
ص ٣١٨ ، ص ٣١٩ .
- (١٤٥) احمد عيسى بك : آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب ،
مطبعة مصر ، بدون تاريخ ، ص ٥ .
- (١٤٦) نفس المرجع ، ابو الحسن المختار بن بطلان : « دعوة الاطباء
على مذهب كليلة ودمنة » ، مرجع سابق ، ص ٣٦ — ٣٨ .
- (١٤٧) ظهير الدين البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، مرجع سابق ،
ص ١٦٩ ، ص ١٧٠ .
- (١٤٨) ابن ابي عمير : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، مرجع سابق ،
ص ٥٦٧ ، ص ٥٦٨ .
- (١٤٩) نفس المرجع ، ص ٦٥٥ .
- (١٥٠) نفس المرجع ، ص ٥٦٢ .
- (١٥١) عن القراءة على يد استاذ ، نفس المرجع ، الصفحات : ٢٧٧ ،
٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٣٥٣ ، ٤٠٢ ، ٥٧٦ ، ٥٨٠ ، ٦١٠ وغيرها .
- (١٥٢) ظهير الدين البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، مرجع سابق ،
ص ٦٤ .
- (١٥٣) نفس المرجع ، ص ٥٤٣ ، ابن ابي عمير : عيون الانباء
في طبقات الاطباء ، مرجع سابق ، ص ٤٢٨ .
- (١٥٤) ابن ابي عمير : نفس المرجع ، ص ٤٠٢ .
- (١٥٥) نفس المرجع ، ص ٥٧٦ .
- (١٥٦) نفس المرجع ، ص ٥٩٩ .

(١٥٧) الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ١٥٩ .

(١٥٨) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، الصفحات : ٤٠٢ ، ٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٦١٣ ، ٦٣٧ ، ٦٥٦ وغيرها .

(١٥٩) نفس المرجع ، ص ٣٢٥ .

(١٦٠) نفس المرجع ، ص ٣٧٥ .

A.S. Tritton, Materials of Muslim Education In the Middle Ages, Op. Cit, P; 32.

(١٦٢) برهان الاسلام الزرنوجي : كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم ، مرجع سابق ، ص ١٠٣ ، ص ١٠٤ .

(١٦٣) ظهير الدين البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٨٠ .

(١٦٤) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات لأطباء ، مرجع سابق ، ص ٦٩٨ .

(١٦٥) نفس المرجع ، ص ٦٩٧ .

(١٦٦) نفس المرجع ، ص ٤٦٢ .

(١٦٧) طلائع كبرى زادة : مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، في موضوعات العلوم ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٣١ .

(١٦٨) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ٥٦٣ .

(١٦٩) نفس المرجع ، ص ٤٦٠ .

(١٧٠) نفس المرجع ، ص ٣٢٥ ، ص ٣٢٦ .

(١٧١) نفس المرجع ، ص ٦١١ .

Ziauddin Sardar : Science Technology and Development In (١٧٢)
The Muslim World, Croom Helm, London, 1977, PP.
147 - 148.

A.L. Tibawi: Arabic And Islamic Themes, Historical, Educational And Literary studies, op. cit, p. 182. (١٧٣)

(١٧٤) برهان الاسلام الزرنوجي : كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم ، مرجع سابق ، ص ١١٤ ، ص ١١٥ .

(١٧٥) ابن اصبعة : عيون الانبياء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ٦١١ .

(١٧٦) نفس المرجع ، ص ٦٣٥ .

(١٧٧) نفس المرجع ، ص ٦٣٦ .

(١٧٨) نفس المرجع ، ص ٤١٢ .

(١٧٩) نور حسين شودري : « فضائل الطب الإسلامي كيفية اكتسابها واعادة تنظيمها » من ابحاث وأعمال المؤتمر العالمي الأول عن الطب الإسلامي مرجع سابق ، ص ١٣٣ .

(١٨٠) ابن جبر : رحلة ابن جبر ، مرجع سابق ، ص ١٠ .

(١٨١) انظر مثلا ما كتبه المستشرقان :

A.S. Tritton: Materials of Muslim Education In the Middle Ages, Op. Cit, P. 51 & R. Dodge : Muslim Education In the Medieval Times, Op. Cit, PP. 10,11.

(١٨٢) الباحثة : فلسفة التربية عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ١٤٩ . ولقد كان الباحث يريد اعادة النظر في تلك الرسالة قبل نشرها ، ولكن الظروف لم تمكنه من ذلك ، فاكتمى بالاشارة في مقدمة الطبع انها تحتاج الى اعادة النظر في الكثير من مواضعها ، وضرب امثلة على ذلك . فلتراجع مقدمة النشر .

(١٨٣) محمد عماد الدين فضلى : « الحاوى والقانون في ضوء نظريات التعليم الطبى الحديثة » من اعمال وبعوث المؤتمر العالمي الثاني عن الطب الإسلامي ، مرجع سابق ، ص ٨٤٩ ، ص ٨٥٠ .

(١٨٤) الزرنوجي : تعليم المتعلم طريق التعلم ، مرجع سابق ، ص ١٠١ ، ص ١٠٢ .

- (١٨٥) طائش كبرى زادة : مفتاح السعادة ومضباح السيادة
في موضوعات العلوم ، مرجع سابق ، ص ٣٢ .
- Ziauddin Sardar : Science, Technology and Development In (١٨٦)
the Huslim World, Op. Cit., PP. 161,162.
- (١٨٧) عصمة عبد الله غوثة : الشعر التعليمي في القرون الأربعة
الأولى ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ،
١٩٧٠ ، ص ١ — ص ٣٩ .
- (١٨٨) محمد عماد الدين فضلى : « الحاوى والقانون في ضوء نظريات
التعليم الطبى الحديثة » من اعمال وبحوث المؤتمر العالمى الثانى عن الطب
الاسلامى ، مرجع سابق ، ص ٨٤٩ .
- (١٨٩) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٣٩٠ ، ص ٣٩١ .
- (١٩٠) نفس المرجع ، ص ٤٩٠ .
- (١٩١) نفس المرجع ، ص ٧٠٣ .
- (١٩٢) نفس المرجع ، ص ٧٠ ، ص ٧١ .
- (١٩٣) ظهير الدين البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، مرجع سابق ،
ص ٥٤ — ص ٥٦ .
- (١٩٤) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٥٦١ .
- (١٩٥) ابن سينا : السياسة ، مرجع سابق ، ص ١٠٧٦ .
- (١٩٦) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٥٦١ .
- (١٩٧) ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، مرجع سابق ، مقدمة
النسائز .
- (١٩٨) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٧٤٠ .
- (١٩٩) نفس المرجع ، ص ٣٣٢ .

(٢٠٠) نفس المرجع ، الصفحات : ٥٦٢ ، ٥٦٧ ، ٦١٠ ، ٦٢٨ ،
٦٥٥ ، ٧٢٥ وغيرها من الصفحات .

(٢٠١) كمال السامرائي : « تعليم الطب في العصور الاسلامية »
من أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الأول عن الطب الاسلامي ، مرجع سابق ،
ص ٣٢٢ .

(٢٠٢) ابن مبيمة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٣٠ .

(٢٠٣) نفس المرجع ، ص ٣٠٢ .

(٢٠٤) كمال السامرائي : « تعليم الطب في العصور الاسلامية »
من أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الأول عن الطب الاسلامي ، مرجع سابق ،
ص ٣٢٣ ، سلمان قطاية : « التعليم الطبي عند العرب » .

— The Arab Journal of Medicine, Vol, I, No. 1 February, 1982,
P. 96.

(٢٠٥) ابن أصيمة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٢٢٤ .

(٢٠٦) نفس المرجع ، ص ٣٠٢ .

(٢٠٧) أحمد عيسى بك : تاريخ البيمارستانات في الاسلام ، مرجع
سابق ، ص ٥١ .

(٢٠٨) نفس المرجع ، ص ٢٥ .

(٢٠٩) نفس المرجع ، ص ٤٣ .

(٢١٠) برهان الاسلام الزرنوجي : تعليم المتعلم طريق التصلب ،
مرجع سابق ، ص ٧٢ — ٧٤ ، طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة
ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢٠ .

(٢١١) ابن أصيمة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
الصفحات : ٣٢٦ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٦١١ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ وغيرها من المواضع .

(٢١٢) نفس المرجع ، ص ٦٧٣ .

- (٢١٣) نفس المرجع ، الصفحات : ٢٧٧ ، ٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٤٠٢ ، ٥٧٦ ، ٥٩٩ ، ٦١٣ ، ٦٥٦ وغيرها .
- (٢١٤) نفس المرجع ، ص ٣٢٤ .
- (٢١٥) نفس المرجع ، ص ٣٥١ .
- (٢١٦) نفس المرجع ، الصفحات : ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٤٩٣ ، ٤٩٨ ، وغيرها .
- (٢١٧) نفس المرجع ، ص ٧٣٢ .
- (٢١٨) نفس المرجع ، الصفحات : ٤١٦ ، ٤٣٨ ، ٤٦٢ ، ٥٣٧ ، ٦١٤ ، ٦٩٨ ، ٧٣١ و... الخ .
- (٢١٩) نفس المرجع ، ص ٣٥٣ .
- (٢٢٠) نفس المرجع ، ص ٥٨٠ .
- (٢٢١) راجع واجبات الأستاذ الجامعي الطبيب في : عز الدين شكاره ، « نظرات في تفرغ أساتذة الطب » أسبوع العلم الثاني عشر ، المجلس الأعلى للعلوم ، الجمهورية العربية السورية ، دمشق ، ١٩٧١ ، ص ٨١ ، ص ٨٦ .
- (٢٢٢) ابن أصيمنة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ١٨١ .
- (٢٢٣) أحمد شلبي : التربية الإسلامية نظمها فلسفتها تاريخها ، مرجع سابق ، ص ٣٣٣ .
- (٢٢٤) نفس المرجع ، ص ٣٤٧ ، ص ٣٤٨ ، عبد الحى الكتانى : نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٥٣ — ص ٤٥٤ ، أحمد شوكت الشطى : الطب عند العرب ، مرجع سابق ، ص ٥٦ — ص ٦٠ ، محمود الحاج قاسم محمد : ألويز لما اضافته العرب في الطب والعلوم المتعلقة به ، مرجع سابق ، ص ١٢٩ ، ص ١٣٠ .
- (٢٢٥) أحمد شلبي : التربية الإسلامية نظمها فلسفتها تاريخها ، مرجع سابق ، ص ٣٤٨ .

- (٢٢٦) عبد الستار أبو غدة : « فقه الطبيب وأدبه » من أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الأول عن الطب الإسلامي ، مرجع سابق ، ص ٥٩٧ ، ص ٥٩٨ .
- Mugannam : Arab women, London, 1937, P. 25. (٢٢٧)
- نقلا عن أحمد شلبي : التربية الإسلامية نظمها فلسفتها تاريخها ، مرجع سابق ، ص ٣٤٧ .
- (٢٢٨) ابن أصيعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ٧ .

الفصل الرابع

صفات الطبيب وحقوقه وواجباته

أدرك المسلمون أهمية مهنة الطبيب في حياة المجتمع ، ولذلك حرصوا على حسن اختياره واعداده التربوي والمهني المناسبين ، كذلك حددوا له حقوقه وواجباته بصورة واضحة . وسنحاول هنا أن نرسم صورة موجزة للطبيب المسلم : صفاته ، وحقوقه ، وواجباته ، كما رآها المسلمون .

أولا - صفات الطبيب :

(١) الصفات الجسمية أو الطبيعية

لقد بلغ اهتمام المسلمين بحسن اختيار الطبيب وانتقائه أن تحدثوا عن الصفات الحسية والطبيعية التي ينبغي أن تتوافر فيه ، أو على الأقل أنقى يفضلون توافرها فيه . فنجد الحكيم أبا الخير الحسن يقول في كتابه « امتحان الأطباء » : « انه يجب أن يكون الطبيب حسن القد ، صحيح الأعضاء ، متناسبة تقاديرها ، حسنة في شكلها ، قوية في وضعها ، معتدل المزاج ، ناعم الكف ، وأن تكون الفرج بين أصابعه واسعة ، ولونه مائلا الى البياض ، مشرب الحمرة ، معتدل الشعر في الكثرة والقلة والبساطة والجمودة ، أشهل العينين ، يخالط نظره دائما سرور وفرح ، وفيه بشاشة وطلاقة ، فأما في نفسه فأن يكون ذكيا ذكورا ، حية التصور ، تبرى الحسد والتخمين ، صبوراً على التعب والنصب في درك الحق من الأمور ، كتوما متحملا ما يسممه من المرضى ، وهذه الأوصاف موجودة في الأعز بهاء الدين ، ونجيب الدين أبى بكر أبقاها الله تعالى » (١) . فالحكيم أبو الخير لا يكتفى بذكر صفات الطبيب المعنوية والعقلية ولكن يفضل أن يكون الطبيب أيضا حسن الصورة ، يائسا ، صحيح البنية ، ثم يذكر لنا المثل الحى في عصره وهما الدكتور الأعز بهاء الدين ، والدكتور نجيب الدين أبى بكر ، وكيف أنهما جميعا الصفات الجسمية والطبيعية والعقلية والمعنوية . ويطلق ابن أصيبعة أيضا في وصفه لاسقليبيوس : وما كان عليه من عفة ووقار ، ونشاط وهمة ، إذا تأملته « وجدته قائما متشمرًا مجموع الثياب ، ترى الأعضاء منه التى يستحى من كشفها مستورة والأعضاء التى يحتاج الى استعمال الصناعة بها معراة مكشوفة ، حاد

النظر ، كثير السهر ، في غاية الذكاء يمكنه تشخيص المرض الحاضر ،
وأن ينذر بما شأنه أن يحدث « (٢) ، من مضاعفات ويجمع لنا ابن رضوان
صفات الطبيب كما يراها ، فلا يتناسى تلك الصفات الجسمية والطبيعية ،
ويرى أن الطبيب ينبغي أن تجتمع فيه سبع خصال :

الأولى : أن يكون تام الخلق ، صحيح الأعضاء ، حسن الذكاء ،
جيد الرؤية ، عاقلا ، ذكورا ، خيرا الطبع .

الثانية : أن يكون حسن الملبس ، طيب الرائحة ، نظيف البدن
والثياب .

الثالثة : أن يكون كتوما لأسرار المرضى لا يبوح بشيء من أمراضهم .

الرابعة : أن تكون رغبته في إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمسه
من أجره ، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء .

الخامسة : أن يكون حريصا على التعليم والمبالغة في منافع الناس .

السادسة : أن يكون سليم القلب ، عفيف النظر ، صادق اللهجة ،
لا يخطر بباله شيء من أمور النساء ، والأموال التي شاهدها في منازل
الأغلاء فضلا عن أن يتعرض إلى شيء منها .

السابعة : أن يكون مأمونا ثقة على الأمور والأموال ، لا يصف دواء
قتالا ولا يعلمه ولا دواء يسقط ، يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه .

والمعلم لصناعة الطب هو الذي اجتمعت فيه الخصال بعد استكمالها
صناعة الطب ، والمتعلم هو الذي فراسته تدل على أنه ذو طبع خسر ،
ونفس ذكية ، وأن يكون حريصا على التعليم ، ذكيا ذكورا لما قد تعلمه (٣) .
فابن رضوان يذكر لنا صفات الطبيب الممارس ، والطبيب المعلم ، والطبيب
في مرحلة الأعداد وطلب العلم . وبعد أن يذكر صفات الطبيب الممارس
عموما ، يتوقف عند الطبيب المعلم الذي ينبغي أن يحوز صفات الطبيب
الممارس ، بجوار استكمالها لصناعة الطب ، واتقانه له نظريا وعمليا ،

وطالب الطب لابد أن يختار من بين هؤلاء الذين تبدو عليهم سمات الطبع الخير والنفس الزكية والحرص على التعلم . وهنا يبدو ابن رضوان مهتما بحسن اختيار أبناء المهنة : ممارسين وأساتذة وطلابا . ولا شك أننا إذا أحسننا اختيار طالب الطب ، وأحسننا اعداد معلمه ، لارتقت المهنة علميا وأدبيا واجتماعيا . وهذا ما حرص عليه الفكر التربوي الاسلامي في اختيار الطبيب وتربيته واعداده .

(ب) الصفات العقلية والمهنية :

إذا تركنا الصفات الحسية أو الطبيعية الى الصفات العقلية والمهنية لاحظنا الحرص الشديد على أن يكون الطبيب منصرفا الى متابعة نموه العلمي والمهني باستمرار ، وذلك بالمواظبة على قراءة الكتب ، والانتفاع بتجارب الآخرين ، وعدم الاعتماد على التجربة والخطأ في التشخيص والعلاج ، والتفرغ الكامل للمهنة وعدم الاشتغال بسواها . لذلك نجد أن الرازي يرى أن الانسان يجب أن يتأكد من حسن سير وسوابق الطبيب الذي يمهّد اليه بصحته وصحة اقاربه التي هي أعز شيء في الدنيا ، وذلك بأن يتجنب الطبيب الذي يقطع وقته بين الملهي والملذات ويشغل كثيرا بالفنون الأجنبية عن مهنته ويشرب الخمر ويتمادي في الشهوات . وبخلاف ما ذكر يجب أيضا على المرء أن يثق بمن أتم دروس الدب اتماما وافية ، وشاهد كثيرا من المستشفيات وعاشر كثيرا من الأطباء الماهرين ، وعالج عددا وافرا من المرضى ، وأن يثق بالطبيب الواسع الاطلاع على كتب اعظم المؤلفين الذي يضم تجارب الآخرين الى مباحثه وملحوظاته الشخصية لأنه يستحيل على الانسان أن يقوى على رؤية كافة الأشياء واختبارها بنفسه (٤) . وعلى بن العباس المجوسي يرى أن الطبيب الناجح ينبغي ألا يكون تشاغله الا بقراءة الكتب ، والحرص على النظر فيها ، أعنى كتب الطب ، ولا يبل من ذلك ، ولا يضجر منه في كل يوم ويلزم نفسه حفظ ما قد قرأه واستظهاره وتذكره إياه في ذهابه ومجيئه ليحفظ جميع ما يحتاج اليه من علم وعمل . ويروض ذهنه فيه حتى لا يحتاج في كل وقت الى النظر في كتاب فانه ربما نالت كتبه آفة فيكون رجوعه فيما يحتاجه الى حفظه حيث توجه ، وينبغي أن يكون حفظه لذلك في حدائته وشبابه

فإن الحفظ في هذا الوقت أسهل منه في وقت الشيخوخة ، إذ كانت
الشيخوخة أم النسيان . وما ينبغى لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازما
للبيمارستانات ، ومواضع المرضى كثير المداولة لأموهم وأحوالهم
من الأسناذين من الحذاق من الأطباء ، كثير التقصد لأحوالهم والأعراض
الظاهرة فيهم ، مستذكرا لما كان قد قرأ من تلك الأحوال وما يدل عليه
من الخير والشر ، فانه إذا فعل ذلك بلغ من هذه الصناعة مبلغا حسنا « (٥)
فعلى بن العباس يريد من طالب الطب القراءة الواسعة ، والملاحظة
السريية التي يطبق عليها ما يقرأ ، وملازمة حذاق الأطباء ليستفيد
من تجاربهم . وسنرى شعور الأطباء المسلمين « بأن العمر قصير ،
والصناعة طويلة والزمان جديد » ومن هنا وجب أن يقضى الطبيب وقته
في الدراسة والاطلاع حتى يستطيع أن يمارس مهنته بنجاح . ويجب
أن يكون الطبيب « قد أحكم الأصول وقرأ الفروع ، فانه من غير هذين
لا يصح له شيء ، ولا يهتدى لأمر من الأمور في الصناعة فعليهما فاعتد « (٦) .
وسنلاحظ أيضا أن دائرة اطلاع الطبيب ينبغي ألا تكون في حدود التخصص
الضيق بل ينبغي أن تشمل بجوار ذلك اطلاعا عاما General knowledge
يعين على التبحر في التخصص وإدراك العلاقات الأخرى المتصلة مثل
دراسات عن الحشائش الطبية ، وعن تأثير البيئة عن الصحة والمناخ ،
والأدوية ... الخ كأن يعرف « منابت الحشائش والعقاقير ومواضع
المعادن وخواصها ، وقوى أعضاء سائر الحيوان وخواصها ومضارها
ومنافعها ، ويعرف سائر الأمراض والبلدان واختلاف أمزجة أهلها مع تفريق
ديارهم ، ويعرف القوة التي تنتجها تركيب الأدوية ، وما يضاد قوة من قوى
الأدوية ، وما يلائم مزاجا مزاجا وما يضاده ، مع ما يتبع ذلك من سائر
صناعة الطب « (٧) . فالذكاء والاطلاع والاستمرار في التعلم والبحث ،
صفات عقلية ينبغي أن يتحلى بها الطبيب الناجح . وقل أن يترجم
ابن أصيبعة لطبيب في طبقاته دون أن يذكر لنا جظه من تلك الصفات
العقلية اللازمة لحسن اعداد الطبيب (٨) .

(هـ) الصفات الأخلاقية وشرف المهنة :

تحتل الأخلاق بصفة عامة مكانة مهمة في تكوين شخصية المسلم مهما كانت مهنته أو وظيفته . ويكفى أن نذكر هنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما بعثت لأتم مكارم الأخلاق » . وقوله : « لا دين لمن لا خلق له » لنذكر لماذا اهتمت ادبيات التربية الإسلامية بالعنصر الأخلاقي في تكوين المسلم بحيث لا يخلو كتاب منها عن الحديث عن أخلاق الطالب ، والمعلم (٩) . ومن ثم فالطبيب المسلم إنما يستمد أخلاقه من أخلاق هذا الدين . غير أن كتب الطب ركزت بجوار ذلك على بعض الجوانب المهمة في حياة الطبيب اليومية كالرفق بالمرضى ، وحفظ أسرارهم ، وغض البصر عن عوراتهم ، وعدم الانصراف الجنسي ، أو تعاطي المسكرات ، وعدم التكبر أو العجب بما أحرزه الطبيب من نجاح ، يقول الرازي : « وأعلم يا بني أنه ينبغي للطبيب أن يكون رفيقا بالناس حافظا لغيرهم ، كتوما لأسرارهم ، لاسيما أسرار مخدومه ، فإنه ربما يكون ببعض الناس من المرض ما يكتمه من أخص الناس به مثل أبيه وأمه وولده ، وإنما يكتونه خواصهم ويفشونه إلى الطبيب ضرورة . وإذا عالج من نسائه أو جواريه أو غلمانهم أحدا فيجب أن يحفظ طرفه ، ولا يجاوز موضع العلة » فقد قال الحكيم جالينوس في وصيته للمتعلمين ، ولعمري لقد صدق فيما قال : « على الطبيب أن يكون مخلصا لله ، وأن يغض طرفه عن النسوة ذوات الحسن والجمال ، وأن يتجنب لمس شيء من أبدانهم . إذا أراد علاجهن أن يقصد الموضع الذي فيه معنى علاجه ، ويترك اجالة عينيته إلى سائر بدنهن » . قال : « ورأيت من يتجنب ما ذكرت ، فكبر في أعين الناس ، واجتمعت إليه أقاويل الخاصة والعامة . قال : ورأيت من تعاطى النساء فكثرت قالة الناس فيه ، فتجنبوه ورفضوه » (١٠) .

وليحذر الطبيب إذا اشتهر أن يتكبر على العامة أو يترفع عن معالجتهم يقول الرازي : « وأعلم يا بني أن من المتطبيين من يتكبر على الناس لاسيما إذا اختصه ملك أو رئيس ، وقد قال الحكيم جالينوس : رأيت من المتطبيين من إذا داخل الملوك فبسطوه تكبر على العامة وحرهم العلاج ، وغلظ لهم القول ، وبسر في وجوههم ، فذلك المحروم المنقوص

ندما الحكيم الى اعداد هذه الخصال التي ذكرها وحث عليها « (١١) .
ومهما نجح الطبيب في عمله ووفق في معالجته فليتواضع ويحمد الله على
ذلك حتى لا يأخذه العجب بنفسه فيصيبه الغرور والتكبر على زملائه
ومرضاه . يقول الرازي : « ورأيت من المتطبيين من اذا عالج مريضا
شديدا المرض فبرا على يديه ، دخله عند ذلك عجب وكان كلامه كالهم
الجبارين ، فاذا كان كذلك فلا كان ولا وفق ولا سدد » (١٢) . وكلمنا
تواضع الطبيب كلما ازداد علما ونجاحا في عمله : يقول الرازي : « واعلم
ان التواضع في هذه الصناعة زينة وجمال (دون ضعة النفس) ، لكن
يتواضع بحسن اللفظ وجيد الكلام ولينه ، ويترك الفظاظة والغلظة على
الناس ، فمتى كان كذلك فهو المسدد والموفق » (١٣) . ثم يجتهد الطبيب
في التشخيص ووصف العلاج ويسأل الله التوفيق والسداد ، دون أن يظن
أنه وحده بعلمه ومهارته سبب الشفاء ، بل يتكل « في علاجه على الله
تعالى ، ويتوكل البرء منه ، ولا يحسب قوته وعلمه ويعتمد في كل أموره
عليه . فاذا فعل بضد ذلك ونظر الى نفسه وقوته في الصناعة وحذقه
حرمه الله البرء » (١٤) . وينهى الرازي « أن يتناول الطبيب شسبينا من
المسكرات ، حتى يكون عقله حاضرا معه ولا سيما وقت العلاج ، حتى
لا يقع في علاجه من الخطأ ما لا يمكن تداركه ، كذلك فقد يحتاج الى الطبيب
في وقت يكون فيه سكرانا فيسقط ذلك من هيئته » (١٥) . ويجمل بعض
المعاصرين أهم تلك الصفات الأخلاقية التي يجب أن يكون عليها الطبيب
المسلم فيما يلي :

- ١ — الذي لا يحتسى الخمر .
- ٢ — الذي لا يتعاطى المخدرات .
- ٣ — الذي يصون الأعراض فيغض بصره ويحفظ فرجه .
- ٤ — الذي يشهد بالصدق في كل ما يطلب منه أو يشهد به .
- ٥ — الذي لا يكسب الامالا حلالا . والذي يخشى الله فيقول لمريضه
الكلمة الصادقة والنصيحة الخالصة (١٦) .

ولقد بلغ من اهتمام المسلمين بهذا الجانب الأخلاقي في اعداد

الطبيب أنهم نصحوا ألا يتعلم الطب أصلاً إلا ذو أخلاق حسنة ، وتدين قوى . وأن كثيراً من أساتذة الطب رفضوا أن يعلّموا الطب إلا لمن حاز هذه الصفات الحسنة (١٧) ، وكان الحكيم أبو القاسم يرى أن الطبيب ينبغي عليه أن يعالج أخلاقه أولاً حتى يصبح محباً للخير ، كارهها للردئ . ثم بعد ذلك يمارس المهنة : « فالطبيب الحقيقي من عالج بالفضائل نفسه ورأى مضرته في الرذائل ، ثم يهبط بعد ذلك إلى معالجة الأجسام ، فمن لا يهبط من معالجة النفس إلى معالجة الجسد فهو أسفل السافلين » (١٨) .

ثانياً - حقوق الطبيب وواجباته :

حقوق الطبيب :

تمتع الطبيب بمنزلة اجتماعية عالية في المجتمع الاسلامي مثل منزلة المعلم تماماً ، فالمعلم يقدم للمجتمع العلم والمعرفة ، والطبيب يمدّه بالصحة والعافية ، وكلاهما من القيم الغالية التي حرص المجتمع الاسلامي عليهما ، وعلى أدوات تحصيلهما ، يصور لنا ذلك قول الشاعر :

أكرم طبيبك ان أردت دواءه . . وكذا المعلم ان أردت تعلمها

ان المعلم والطبيب كلاهما . . لا ينصنعان اذا هما لم يكرما

فاصبر لدائك ان جفوت طبيبه . . واقنع بجهلك ان جفوت معلما (١٩)

ولذلك أوصى الرازي أن ينال الطبيب منزلة محترمة في نفوس العامة والخاصة فيقول : « ينبغي لمن يختص المتطبب لنفسه من الملوك والأكابر والسوقة أن يتبالغ في تطيب قلبه بلطف الكلام ، وأن يرغمه فوق جميع من في مجلسه من خدمه وغيرهم ، فان هم إلا خدام جسمه والمتطبب خادم روح » ، وإذا أكرم الناس الطبيب بذل أقصى ما لديه من علم وخبرة في خدمتهم ، ذلك لأن « المخدم إذا أحسن إلى من يختصه لنفسه من المتطبيين جد ذلك المتطبب في حفظ صحته ، ومداواة علته ، وقد صدق لعمرى الحكيم ابقراط حيث قال : صانع الطبيب قبل أن تحتاج إليه ومما يضرب به المثل : عمله عمل من طب لمن أحب . . ولا شيء أجدى على الغليل من كون الطبيب مائلاً إليه بقلبه ، مجبلاً له » (٢٠) ويرى الرازي أنه على « من استخدم الطبيب أن يقربه من نفسه ويكلمه كما يكلم أخص الناس به » ، والإيكتم عن الطبيب سرا يمكن أن يؤثر على علاجه لأن (م ١٣ - الاعداد التربوي للطبيب)

« الطبيب لا يهتدى إلى علاجه إذا لم يفش إليه سره » (٢١) كذلك ينبغي أن يثق المريض بطبيبه ولا ينتقل من طبيب إلى آخر كما ذكر الرازي : « ينبغي للمريض أن يقتصر على واحد ممن يوثق به من الأطباء مخطؤه في جنب صوابه يسير جدا » بعكس « من تطيب عند كثيرين من الأطباء يوشك أن يقع في خطأ كل واحد منهم » (٢٢) . والطبيب يمكن أن يخطئ في أثناء أدائه لعمله أخطاء طبية غير جسيمة وليست نتيجة جهل أو إهمال ، فهذه لا يحاسب عليها الطبيب أو يعاقب عليها . كذلك فمن حق الطبيب أن ينال أجره « من غير عقد أجارة ، بل يعطيه (المريض) أجره المثل ، أو ما يرضيه » (٢٣) . ولقد نال الأطباء المسلمون أجورا مناسبة جعلتهم يعيشون في مستوى معيشي مرتفع إذا قارناه بمستوى معيشة غيرهم من الطبقات المثقفة ، فضلا عن العامة (٢٤) ، مما كان سببا في الاقبال على ممارسة تلك المهنة ، وعندما نقرأ تراجم الأطباء كما ذكرها ابن أبي عمير يتضح لنا أن بالفعل الأطباء المسلمين قد نالوا حقوقهم الأدبية والمادية ، على صورة تقدير اجتماعي ، واجور وهدايا مجزية بحيث كانت مهنة الطب محترمة ، ومحبوبة ، ومرغوب فيها . (انظر الملحق رقم ١) .

واجبات الطبيب :

إذا كان الطبيب المسلم قد نال حقوقه الأدبية والمادية فقد كان ذلك تقديرا من المجتمع لدوره ، وما يبذله الطبيب من جهد في سبيل أداء واجباته . ولقد كان من أول هذه الواجبات ألا يتصدى للمهنة إلا بعد أن ينتقنها نظريا وعمليا ، وإلا تعرض للمسئولية في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تطيب — ولم يعلم منه الطب قبل ذلك — فهو ضامن » (٢٥) . وكانت عقوبة من يتصدى للطب بدون كفاءة عقوبة تتناسب مع خطورة تلك الجريمة التي تعرض أنواح الناس للخطر ، وهي جريمة أخطر على المجتمع من اللصوصية وقطع الطرق . ذلك لأن « اللصوص وقطاع الطريق ، خير من أولئك القفر الذين يدعون الطب وليسوا بأطباء ، لأنهم يذهبون بالمال وربما أبقوا على الأنفس وهؤلاء (المتطبيين) كثيرا ما يأتون على الأنفس النفيسة » (٢٦) . ولقد تناول الفقهاء بأسباب المبادئ الشرعية التي تحكم عمل الطبيب

ومسئوليته ومتى يكون طبيبا حائقا ؟ ومتى يقع تحت دائرة العقاب ، اذا اخطأ ؟ ومتى لا يقع . . الخ (٢٧) .

كذلك وضعت مواصفات دقيقة للطبيب الحاذق ، وكيف يمارس المهنة (انظر الملحق رقم ٤) وما ينبغي عليه من تدقيق تشخيص المريض وتتبع حالة المريض ، وتاريخه المرضي حتي يعلم « كل يوم كمية طعامه وكيفية طبعه في ثلثه وكثرته ، وهشاشته لذلك أو كراهته ، فان من قلم مطعم انسان ومشربه ونومه وسهره وفراغه وشغله وسائر أحواله من الباه وغير ذلك ، فما أقل ما يقع في علاج من الخطأ » (٢٨) كذلك عليه ان يعطى المريض الوقت الكافي للفحص الشامل وسماع حالته وشكواه ، وأن يقوم بالكشف الدوري على المريض في الحالات التي تستدعي ذلك ، لأن من « العلل ما لا يمكن الاستغناء فيها عن الطبيب الحاضر المراقب ، لظهور العلامات الدالة على ما تحتاج الطبيعة اليه من معاونته والمبادرة الى تدبير ما يحدث بالمريض ساعة فساعة » (٢٩) . وعلى الطبيب الا يقتصر بخدماته الطبية على الاغنياء وذوى الجاه بل يشمل بها الفقراء والمحتاجين وتحفل تراجم الأطباء لابن اصبينة باسماء اطباء رمضوا أن يقتصروا خدماتهم الطبية على الأمراء والسلاطين ، واضروا على أن يكونوا اطباء للقامة والخاصة في نفس الوقت (٣٠) . كذلك ينبغي على الطبيب الا يستغل مهنته استغلالا ماديا جشما كان يومه المرضي بطل معينة ، أو يبالغ في تقدير جهده ، أو يحتال لكسب أكبر قدر من المال ، « اذ لا ذنب أعظم من ظلم الناس وأخذ أموالهم بغير حق ، لاسيما من كان ضعيفا أو مسكينا ولا عقل له ولا أمر ولا نهى » (٣١) . والمريض عندما تشرف نفسه على الهلاك يكون بين يدي الطبيب ضعيفا مسكينا لا عقل له ولا أمر ولا نهى ، فلا يجوز استغلاله في تلك الحالات الصعبة .

لقد كان الطبيب المسلم يؤدي واجبه ، وهو يراقب الله في حرفته لأنه يؤمن بقول الله تعالى : « وقل اعملوا فسمي الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون » (التوبة : آية ١٠٥) ونرى أن نختم هذا الجزء من الدراسة

بما سماه « إبراهيم الصياد » أساليب ممارسة المهنة ، أو كيفية ممارسة الطبيب لواجبات المهنة والتي ذكر منها مايلي : (٢٢)

(١) بدء الفحص أو العلاج بذكر اسم الله فان ذلك له عدة اعتبارات :

— ادعى للتوفيق في العمل فالرسول يقول « كل عمل ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو ابتر » .

— استشعار لدوره كسبب نفاذ ارادة الله في العلاج وهذا هو موقف العبودية لله .

— توجيه عمله لله حتى يثاب عليه .

— منح المريض دفعة روحية وهو في موقف حساس : « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » (الذاريات : ٥١ ، ٥٢) .

(ب) قد يشهد وفاة المريض ويصفته مسلياً قبل أن يكون طبيباً فعليه أن يلقنه الشهادتين كما يقول : « لقنوا موتاكم لا اله الا الله » .

(ج) تجنب ما حرم الله في العلاج تنفيذاً لقول الرسول : « ما جعل الله شفاءكم فيما حرم عليكم » . وفي الطب الحديث لكل علاج محرم بديله الحلال .

(د) تجنب الممارسات التي نهى الاسلام عنها كالأجهاض والوشم .. الخ فقد قال الرسول : « لعن الله الواشبات والمستوشمات والواشرات والمستوشرات » .

(هـ) الا يقدم على ممارسة الا اذا كان مطمئناً الى كفايته لتنفيذها فالرسول يقول « لا حكيم الا ذو تجربة » ، ويحترم التخصص المهني تنفيذاً لقول الرسول : « من تطيب ولم يعلم عنه طب فهو ضامن » .

(و) ان يحافظ على كفاءته العلمية بالتعليم المستمر فان مهنته تتعداه الي غيره ، وعلمه من النوع التطبيقي والرسول يقول : « الحكمة ضالة المؤمن انى وجدها ينشدها » .

(ز) أن يتعامل مع زملائه الأطباء على أسس من تعاليم الاسلام فيتجنب الغيبة والتجريح واحترام الكبير : « لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا » ولا يتعالى على الصغير : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا » ويقدم النصيح لمن يحتاجه « الدين النصيحة » ، وأن يسعى لتطليم زملائه الأقل خبرة « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » ، « يأتيكم رجال من قبل المشرق يتعلمون ، فإذا جاؤكم فاستوصوا بهم خيرا » .

(ح) أن يفيد بعلمه كل مريض يمكن مساعدته فالرسول يقول : « اللهم انى اعوذ بك من علم لا ينفع » ، « من كتم علمه عن أهله الجسم يوم القيامة لجاما من نار » .

(ط) أن يذيع ما يكشفه من جديد فى العلاج تعميما للفائدة ولا يحتكر طريقة فى العلاج يقصد الكسب منها فالرسول يقول : « لا يحتكر إلا خاطيء » .

(ي) أن يراعى حرمة الميت كما يراعى حرمة الحى ، فالرسول يخاطب الكعبة قائلا : « والمؤمن اعظم حرمة عند الله منك » ، ويقول : « كسر عظم الميت ككسر عظم الحى فى الاثم » .

مراجع الفصل الرابع ومصادره

- (١) ظهير الدين البیهقی : « تاریخ حکماء الاسلام » ، مرجع سابق ، ص ١٥٨ ، ص ١٥٩ .
- (٢) ابن أصیعة : عین الأنباء فی طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ٣٤ — ص ٣٧ .
- (٣) نفس المرجع ، ص ٥٦٥ .
- (٤) محمود صدقی : رسالة عن الطب فی أيام العرب وقوانين الصحة عند المسلمين ، مرجع سابق ، ص ٤٠ ، ص ٤١ .
- (٥) علی بن العباس المجوسی : کامل الصناعة الطبية — مطبوعة بولاق ، القاهرة ، ١٢٩٤ هـ ، ج ١ ، ص ٨ و ص ٩ .
- (٦) الرازی : اخلاق الطیب ، مرجع سابق ، ص ٧٦ ، ص ٧٨ .
- (٧) ابن أصیعة : عین الأنباء فی طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ١٤ .
- (٨) نفس المرجع ، المصنفات ٢٧٧ ، ٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٥٨٠ ، ٦٠١ ، ٦٦٢ ، ٧٢٥ ... الخ .
- (٩) راجع مثلا : احیاء علوم الدین للغزالی ، وتعلیم المتعلم طريقة التعلیم للزرنوجی ، ومفتاح السعادة ومصباح السیادة لطاش کبری زاده ، وغيرها من المراجع التي سبق ذكرها .
- (١٠) الرازی : اخلاق الطیب ، مرجع سابق ، ص ٢٧ ، ص ٣١ .
- (١١) نفس المرجع ، ص ٣٥ ، ص ٣٧ .
- (١٢) نفس المرجع ، ص ٣٨ .
- (١٣) نفس المرجع ، ص ٨٤ ، ص ٨٥ .
- (١٤) نفس المرجع ، ص ٣٨ ، ص ٣٩ .
- (١٥) نفس المرجع ، ص ٦٥ ، ص ٦٦ .

- (١٦) محمود احمد نجيب : الطب الاسلامى شفاء بالهدى القرآنى ، مرجع سابق ، ص ٧٣ .
- (١٧) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ٦٧٣ .
- (١٨) ظهير الدين البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١١٦ .
- (١٩) برهان الاسلام الزرنوجي : تعليم المتعلم طريق التعلم ، مرجع سابق ، ص ٨٢ .
- (٢٠) الرازي : اخلاق الطبيب ، مرجع سابق ، ص ٣١ — ص ٣٥ .
- (٢١) نفس المرجع ، ص ٤٧ ، ص ٦٨ .
- (٢٢) بن اصبيعة : عيون الأطباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ٤٢١ .
- (٢٣) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، مرجع سابق ، ص ٤٨ .
- (٢٤) فرات فائق خطاب : الكحالة عند العرب ، منشورات وزارة الاعلام ، الجمهورية العراقية ، ١٩٧٥ ، ص ١٦ ، رحمة الله مليحة ، الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة ، مطبعة الزهراء ، بغداد ، ١٩٧٠ ، ص ٧٥ .
- (٢٥) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، مرجع سابق ، ص ١٠٧ .
- (٢٦) الرازي : اخلاق الطبيب ، مرجع سابق ، ص ٨١ .
- (٢٧) محمد مؤاد توفيق : المسؤولية القانونية في الشريعة الاسلامية من ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الاول عن الطب الاسلامى ، مرجع سابق ، ص ٥٤٤ — ص ٥٤٩ ، عبد الستار ابو غدة : « المبادئ الشرعية للتطبيق والعلاج » من ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الثانى عن الطب الاسلامى ، مرجع سابق ، ص ٥٩٠ — ص ٦٠٣ .
- (٢٨) الرازي : اخلاق الطبيب ، مرجع سابق ، ص ٤١ .

- (٢٩) ظهير الدين البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١٧٠ .
- (٣٠) ابن ابي عمير : عيون الاثبات في طبقات الاطباء ، مرجع سابق ، ص ٤٧ ، ٤٨ ، ١٢٩ ، ٦٩٦ ، ٦٩٩ وغيرها .
- (٣١) ابن ابي نصر العطار : كتاب منهاج الدكان ودستور الاعيان في اعمال وتركيب الادوية النافعة للبدان ، مرجع سابق ، ص ٥ .
- (٣٢) ابراهيم الصياد : « نظرة الاسلام للطب » ابحاث واعمال المؤتمر العالمي الأول عن الطب الاسلامي ، مرجع سابق ، ص ٦٤ ، ص ٦٥ .

خاتمة البحث : أو دروس مستفادة

حاولنا في الصفحات السابقة أن نعرض للأعداد التربوي والمهني للطبيب ، هذا الأعداد الذي نرى أنه كان من وراء تلك النهضة الطبية التي حققها المسلمون في فترة قصيرة من الزمان . ومن خلال الفصل الأول رأينا أننا لا نستطيع أن نفهم ازدهار الطب الإسلامي إلا إذا عرضنا لتعاليم الإسلام التي تحت على طلب العلم بصفة عامة ، والتعليم الطبي بصفة خاصة . ان الأمة العربية ما كان لها أن تنتقل من البداوة الحضارية الى هذا الازدهار العلمي والتعليمي في شتى المجالات ، دون تلك الدفعة الهائلة التي جاءت بها تعاليم الإسلام ، ولقد كان نصيب التعليم الطبي من تلك التعاليم نصيبا كافيا لازدهار الطب الوقائي ، والطب العلاجي معا ، والانتقال بسرعة من مرحلة الترجمة والاقتباس الى مرحلة الأصالة والتأليف والابداع ، ولعل هذا يوضح لنا قوة استخدام الدافع الديني المقتئدي في بناء الحضارات . لقد كان الدافع الإسلامي قويا وهائلا بحيث استطاع أن يدفع المسلمين الى شتى ميادين العلم والمعرفة ومنها الطب ، اذ وجسد المسلمون أن كل المعارف تزيدهم قربا الى الله ، ومنها آياته ومعرفة به . ولذلك فعندما كان أبو الحسن الانباري الحكيم يدرس بعض الأئسيكال الهندسية من كتاب المجسطي وسأله بعض الفقهاء يوما ما تدرس ؟ رد بكل ثقة واطمئنان « أفسر آية من كتاب الله تعالى . فقال الفقيه : وما تلك الآية ؟ فقال الانباري : قول الله تعالى : « أولم يروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها » فأننا أفسر كيفية بنائها » (١) . والواقع أن العلماء المسلمين قد اتخذوا من القرآن وتعاليمه نقطة انطلاق لهم لارتداد شتى ميادين العلوم والمعارف وكانوا يرون أن آيات القرآن تحثهم على ذلك . (انظر الملحق رقم ٣) ولقد كان ثمرة هذا الربط المحكم بين « القرآن » والعلم ، ومنه الطب ان نمت العلوم الإسلامية في ظلال الايمان ، فلم تعرف الالهاده ، وفساد الأخلاق ، واستغلال العلم من أجل تدمير الانسان والطبيعة واشباع الشهوات الشخصية والقومية (٢) .

ثانيا : أن التعليم المتخصص — ومنه التعليم الطبى لا يتم الا بعد ان ينال الطفل المسلم الجرعة الثقافية الاسلامية الكافية لتشكيل شخصيته الاسلامية . ويثمل « التعليم الابتدائى » الاسلامى مرحلة كافية لاثبات هذه العملية التربوية الهامة : « عملية التطبيع الاسلامى » . ولقد كان المسلمون على مر العصور ، وعلى اختلاف اقليتهم يركزون على أهمية تلك المرحلة . وكان ثمرة ذلك افتتاح أجيال مسلمة من المثقفين ، وعلى اختلاف تخصصاتهم فيما بعد — تجمعهم ثقافة واحدة ، هى الثقافة الاسلامية ، وتوخدمهم قيم واحدة ، هى القيم الاسلامية . ومن هنا لم يعان المثقفون المسلمون على اختلاف تخصصاتهم الشعور « بالغربة الثقافية » وانعزالهم عن العسامة كما يشعر المثقفون المعاصرون ، كذلك لم يعان المثقفون من أى نوع من أنواع الازدواج الثقافى بين المتخصصين فى علوم الدين ، والمتخصصين فى علوم الدنيا كما نعانى اليوم فى ظل غياب عملية التطبيع الاسلامى الشامل (٢) ، بل أن المثقف المسلم لم يشعر بوحدة الثقافة فى داخل اقليته الجغرافى ، بل أحس بها حيثما تنقل فى أنحاء العالم الاسلامى كما تدلنا على ذلك أعمال الرحالة المسلمين وآثارهم الادبية التى دوتوا فيها وقائع تلك الرحلات (٤) . وهذه النقطة بالذات تحتاج الى مزيد من الدراسة والمناقشة .

ثالثا : ان التعليم الطبى الاسلامى قد توافرت له عوامل النجاح ، من حيث اقبال الطلاب على العلم والتعليم ، وتفرغ الأساتذة لحسن أعدادهم نظريا وعمليا ، والعلاقة القوية التى كانت تربط الأستاذ بطلابه والتسهيلات العملية والحياتية التى كان يخطى بها الطلاب والأساتذة والحزبة العلمية والاكاديمية التى تمتعوا بها ، وهى جميعا عوامل يفتقر اليها التعليم الطبى فى أغلب الدول الاسلامية المعاصرة . ان كثيرا من طلابنا لا تتوافر لهم عناصر الحياة الضرورية فضلا عن متطلبات الدراسة الاكاديمية من معامل ومراجع وتسهيلات مكتبية ودراسية ، وكثير من أساتذة الطب عندنا لا يحدون الوقت الكافى الذى يعطونه لطلابهم تفهيمها وتدريبها بسبب انشغالهم بعياداتهم الخاصة ، وسعيهم وراء الرزق حتى برزت الحاجة الى ضرورة تفرغ بعضهم لمزاولة « التعليم الطبى » (٥) .

رابعاً : لقد كان الأطباء المسلمون على مستوى المسؤولية الحضارية عندما نجحوا في تعريب التعليم الطبي ، وعندما أثروا اللغة العربية بالمصطلحات الطبية الجديدة ، والذي يطالع المؤلفات الطبية الإسلامية لا يمكن إلا أن يشعر بالاحترام لهؤلاء الأساتذة الأجلاء . لقد احترمو لغتهم العربية واتقنوها ، وقدموا تعليمهم للعربية على سائر العلوم ، وبذلك كانوا قادرين على الترجمة والاقتباس والنحت والاشتقاق . وكانت من ورائهم حكومات مسلمة قد اتخذت « قرار التعريب » بدون تردد ، وبذلك في سبيله المال ، وأعدت من أجله العدة من مترجمين ودور حكمة . الخ . وشجعت العلماء على التعريب والتأليف بالعربية . ويقارن الباحث بين هذا العزم وتلك الإرادة القوية وبين ما يديه الجيل المعاصر : علماء وحكوماته من تردد في تعريب التعليم الطبي ، واهتمام على اللغات الأجنبية في التدريس والتأليف ، فيدرك الفارق الهائل بين علماء يحترمون لغتهم ولا يرضون باللحن فيها في مجالسهم العلمية ، وبين آخرين لا يكادون يحسنون النطق بها في محاضراتهم « (١) فأنى لهم القدرة بعد ذلك على التدريس أو التأليف بها ؟ . نعم ان قضية تعريب العلوم ومنها الطب ، من القضايا الهامة التي يثرها المفكرون العرب كثيرون ، ويعقدون لها الندوات والحلقات على المستوى المحلي والقومي ، وتتعدد فيها الآراء . ولكن من الواضح أن تلك القضية لن تحسم الا بقرار سياسي على أعلى المستويات التشريعية في البلدان العربية ، مع انشاء مراكز رئيسية للتعريب والترجمة والنشر ، واصدار مجلات ومؤلفات علمية بالعربية لتتابعة حركة التطور العلمي العالمي ، ورصد الميزانيات الكافية لذلك (٧) . وما زالت تجربة المسلمين في هذا الموضوع تجربة تستحق اندراسة والتأمل .

خامساً : لقد استبد الأطباء المسلمون أخلاق مهنتهم من أخلاقيات الاسلام العامة ، وبذلك نجا الطب الاسلامي من كثير من مظاهر انهزام الطب الحديث . فقد نشرت ريدرز دايجست على سبيل المثال في عددها الصادر في فبراير عام ١٩٨٢ : « أنه يمارس الطب في امريكا ٥٤٠٠٠ طبيب وأنه من بين هؤلاء يوجد من ٢٠٠٠ الى ٥٠٠٠ طبيب يجب

الا يسمح لهم بمزاولة المهنة ، وذلك بسبب ايمانهم الخمر أو المخدرات ، أو لاصابتهن بانحرافات جنسية أو اختلال في تفكيرهم وقبواهم العقلية . كذلك نشر الجراح جن كريل كتابا سجل فيه خبرته على مدى أكثر من أربعين عاما في ميدان الطب ، سرد فيه سلسلة من الفضائح والمخازي التي ارتكبها الأطباء مع المرضى ، وكلها أمثلة لفساد الذمة وانعدام الضمير حتى أن بعض هؤلاء الأطباء كانوا يجرون كثيرا من الجراحات ومنها جراحات استئصال اللوز والزائدة الدودية واكياس الثدي والأورام الليفية من الرحم من أجل ابتزاز أموال المرضى . وفي معظم الحالات يدخل الجراح في روع المريض أنه يعاني من مرض خطير وأنه لابد من الجراحة لانقاذ حياته . وينقاد المريض تحت تأثير الخوف من حدوث المضاعفات والأورام السرطانية فيقبل اجراء جراحة هي في الواقع لا مبرر لها . وقد يحدث من هذه الجراحة مضاعفات تؤدي بحياته » (٨) .

سادسهما : في موجة حماسنا للتعليم الاسلامي قد يظن البعض أنه يكفي أن ندرس مادة « الطب الاسلامي » في كليات الطب نتناول فيها تعاليم الاسلام في ميدان الطب والتراث الطبي الاسلامي ، والعلاج الاسلامي . الخ (٩) ، أو أن نصوغ دستوراً لمهنة الطب مستهدداً من تراثنا الثريوى الاسلامي ، يتناول صفة الطبيب ، وعلاقته بالمريض وواجباته ومسئوليته . الخ (١٠) . ورغم أهمية مثل هذه الأمور ، إلا أنها تعيد لنا « الروح الاسلامية » في مؤسسات تعليمنا الطبي ، وفي مناهجه وممارساته . أن ما يحتاجه « التعليم الطبي » في عالمنا الاسلامي أكثر من ذلك بكثير : أكثر من اضافة بعض الموضوعات الطبية الى مناهجه ، أو وضع دستور اسلامي لممارسته . انه يحتاج قبل ذلك كله ومعه الى الطالب المسلم الذي احسننا اعداده اسلاميا من البداية ، ويحتاج الى الأستاذ المسلم العارف بربه ، ويحتاج الى روح اسلامية جديدة تسرى في تعليمنا الطبي أفرادا ومناهج ومؤسسات فتعربه أولا بالكامل ، ثم تسير به السيرة المتميزة ، أن ابداع « طبيب اسلامي معاصر » ، تظله آداب الاسلام وتعاليمه هي مسؤولية هذا الجيل بدون شك ، وهذا الطب الاسلامي المعاصر هو القادر على أن يقدم للانسان المعاصر راحته النفسية

والفكرية ، وطبه الجسماني والروحاني في نفس الوقت . وفي ذلك يقول
أحد الباحثين : « ان الطب المعاصر مهما بلغ من التقدم العلمى والعملى ،
ومهما أنجز من وسائل هائلة في ميادين البحث والوقاية والعلاج ، ومهما
أحرز من نتائج باهرة في ميدان الرعاية الصحية فإنه لم يضمن للانسان
الراحة النفسية والفكرية التى لا زال يبحث عنها بين موجات الاثر وأمواج
البشر . وان الطب المعاصر يشكو من نقائص خطيرة في المفاهيم وفي
السياسة وفي المناهج كما تحكم عنه شهادات اكبر الاختصاصيين في الطب
والاجتماع ، بينما نجد الاسلام طبقا لمبادئه العقيدية يعطى للانسان
ولصحة الانسان معنى اشمل واوسع واعمق من المفاهيم التى سادت
او تسود في المجتمعات السالفة والمعاصرة . ويضئ للعلوم الطبية
ولسياسة الصحة آفاقا خلقية وعملية على قدر ما يطمح اليه الانسان
في هذا العصر » (١١) . وتديما أكد ابن قيم الجوزية هذا المعنى عندما
قارن بين « الطب الاسلامى » وغيره من أنواع الطب في عصره ،
ورأى أن « الطب الاسلامى » اكمل الطب وأصحه وأنفعه ووضح ذلك
بقوله : « ولا يعرف هذا الا من عرف طب الناس سواهم وطبهم ثم قارن
بينهما ، فحينئذ يظهر له التفاوت . وهم أصح الأمم عقولا وفطرا ،
واعظمهم علما ، واقربهم في كل شئ الى الحق ، لأنهم خيرة الله في الأمم
كما أن رسولهم خيرته من الرسل ، والعلم الذى وهبهم اياه ، والحلم
والحكمة أمر لا يدانيهم فيه غيرهم . وقد روى أحمد في مسنده من حديث
بهر بن حكيم عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : « أنتم توفون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على
الله ، » فظهر أثر كرامتها على الله سبحانه : في علومهم وعقولهم وأحلامهم
وفطرتهم ، وهم الذين عرضت عليهم علوم الأمم قبلهم وعقولهم ،
وأعمالهم ، ودرجاتهم ، فازدادوا بذلك علما وحلما ، وعقولا ، الى ما أقام
الله سبحانه وتعالى عليهم من علمه وحلمه (١٢) .

مراجع خاتمة البحث

(١) ظهير الدين البيهقي : « تاريخ حكماء الاسلام » ، مرجع سابق ، ص ١٠٣ ، ص ١٠٤ .

(٢) قارن ذلك بآثار العلم عندما يكون مشبها بالدائع المادى العلمانى فى :

— Seyyed Hossein Nasr : Man And Nature, The Spiritual Crisis of Modern Man, Amandala Books, Unwin LTD, 1976.

— J. Bronowski : Science and Human Values, Harper Torch Books, New York, 1965.

(٣) راجع أسباب تلك الغربة وجذورها وأهم مظاهرها فى :

— Kalim Siddiqui : Functions of International Conflict, Asocio- Economic study of Pakistan, Royal Books Company, Karachi, 1975, PP. 7-37.

(٤) انظر مثلا : رحلة ابن بطوطة ، ورحلة ابن جبير ، ودراسة زكى محمد حسن ، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٤٥ م .

(٥) عز الدين شكاره « نظرات فى تفرغ اساتذة الطب » « مهرجان السبوع العلم الثانى عشر » ، الكتاب الثالث ، المجلس الاعلى للعلوم ، الجمهورية العربية السورية ، ١٩٧١ ، ص ٨٨ — ص ٩٣ .

(٦) عبد الكريم خليفة : « تاهيل أعضاء هيئة التدريس للتدريس بالعربية » مجلة مجمع اللغة العربية الأردنى ، العدد المزدوج ٧ ، ٨ ، السنة الثالثة ، ١٩٨٠ ، ص ٥ — ص ٣١ .

(٧) انظر فى ذلك :

مجمع اللغة العربية الأردنى ، العدد الاول ، السنة الاولى ، ١٩٧٨ ، الثالث والرابع ، السنة الثانية ، ١٩٧٩ ، والسابع والثامن ، السنة

الثالثة ، ١٩٨٠ ، مهرجان اسبوع العلم السابع عشر ، المجلس الأعلى للعلوم ، الجمهورية العربية السورية ، ١٩٧٧ ، وعزة مريدن : تعليم الطب باللغة العربية ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٨ .

(٨) محمود أحمد نجيب : الطب الاسلامى شفاء بالهدى القرآنى ، مرجع سابق ، ص ٧٠ ، ص ٧١ .

(٩) انظر تفصيل هذا المنهج المقترح فى :

أحمد شوقى الفنجري : « الطبيب الاسلامى منهج دراسة فى كليات الطب ؛ مشروع تدريس مادة الطب فى كليات الطب ، أبحاث وأعمال المؤتمر العالمى الثانى عن الطب الاسلامى ، مرجع سابق ، ص ٨٠٣ — ص ٨٠٧ .
(١٠) انظر فى ذلك :

وثيقة الكويت : « الدستور الاسلامى للمهنة الطبية » ، اعداد المنظمة العالمية للطب الاسلامى ، ص ٦٨١ ، ص ٧٠٠ ، محمود ناظم النسيبى : « قواعد وآداب مزاوله الطب الاسلامى فى التراث الاسلامى » ص ٦١٨ — ص ٦٢٢ ، محمد الطيب بسيبى : قواعد وآداب مزاوله مهنة الطب الاسلامى ، كما وردت فى التراث الطبى الاسلامى ، ص ٦٢٣ — ص ٦٢٧ ، أعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى ، مرجع سابق .

(١١) أحمد عروة : « آفاق اسلامية لفلسفة وسياسة الصحة » ، أعمال المؤتمر العالمى الثانى عن الطب الاسلامى ، مرجع سابق ، ص ٩١٦ .

(١٢) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، مرجع سابق ، ص ٣٢٥ .

ملحق رقم (١) *

الدخل العام للطبيب جبرائيل بن يختيشوع طبيب الرشيد

أتول : وكانت مدة خدمة جبرائيل بن يختيشوع للرشيد منذ خدمته والى أن توفي الرشيد ثلاثا وعشرين سنة . ووجد في خزانة يختيشوع ابن جبرائيل مدرج فيه عمل بخط كاتب جبرائيل بن يختيشوع الكبير ، واصطلاحات بخط جبرائيل لما صار اليه في خدمته الرشيد يذكر أن رزقه كان من رسم العامة : في كل شهر من الورق عشرة آلاف درهم ، يكون في السنة مائة وعشرين ألف درهم ، في مدة ثلاث وعشرين سنة ألف ألف وستمائة وستين ألفا ، ونزله في الشهر خمسة آلاف درهم ، يكون في السنة ستين ألف درهم ، في مدة ثلاث وعشرين سنة ألف ألف وثلاثمائة وثمانين ألف درهم . ومن رسم الخاصة في المحرم من كل سنة : من الورق خمسون ألف درهم يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة ألف ألف ومائة وخمسين ألف درهم . ومن الثابت : خمسون ألف درهم ، يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة ألف ألف ومائة وخمسين ألف درهم .

تفصيل ذلك : القصب الخاص الطرازي عشرون شقة . الملحح الطرازي عشرون شقة . الخز المنصوري عشر شقاق . الخز المبسوط عشر شقاق . الوثني اليماني ثلاثة أثواب . الوثني النصيبى ثلاثة أثواب . الطلياسة ثلاثة طيالنس . ومن التسمير (١) والفنسك (٢) والقماقم (٣) والدلق (٤) والسنجاب (٥) للقبطين (٦) .

وكان يدفع اليه في مدخل صوم النصارى في كل سنة من الورق خمسون ألف درهم ، يكون في مدة ثلاثة وعشرين ألف ألف ومائة وخمسين ألف درهم . وفي يوم الثمانين من كل سنة ثياب من وشى وقصب وملحم

* نقلا عن ابن اصبعة : عيون الأنبياء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ١٩٨ — ص ٢٠٠ ، الملحق يعطى صورة عن المستوى المعيشي المرتفع الذى عاشه الأطباء ، وخصوصا المشاهير منهم .

(م ١٤ — الاعداد التريوى للطبيب)

وغيره بقيمة عشرة آلاف درهم ، يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة ، مائتى ألف وثلاثين ألفا ، وفي يوم الفطر في كل سنة من الورق : خمسون ألف درهم ، يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة : ألف ألف ومائة وخمسين ألف درهم ، وثياب بقيمة عشرة آلاف درهم ، على الحكاية ، يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة : مائتى ألف وثلاثين ألف درهم .

ولفصد الرشيد : دفعتان في السنة كل دفعة خمسون ألف درهم من الورق ، مائة ألف درهم يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة ، ألف ألف وثلاثمائة ألف درهم .

ولشراب الدواء دفعتان في السنة ، كل دفعة خمسون ألف درهم ويكون في مدة ثلاث وعشرين سنة ألف ألف وثلاثمائة ألف درهم .

ومن اصحاب الرشيد ، على ما فصل منه مع ما فيه من قيمة الكسوة وثمان الطيب والدواب ، وهو : مائة ألف درهم من الورق ، فيكون اربعمائة ألف درهم ، يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة تسعة آلاف ومائتى ألف درهم ، تفصيل ذلك : عيسى بن جعفر خمسون ألف درهم ، زبيدة أم جعفر خمسون ألف درهم ، العباسة (٧) خمسون ألف درهم ، ابراهيم بن عثمان ثلاثون ألف درهم ، الفضل بن الربيع (٨) خمسون ألف درهم ، عاطمة أم محمد ببيعون ألف درهم ، كسوة وطيب ودواب : مائة ألف درهم .

ومن غلة ضياعه بجند يسابور والنخوس والبصرة والسواد في كل سنة قيمته ، بعد المقاطعة ، ورقائمان مائة ألف درهم ، يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة ثمانية عشر ألف ألف ومائة ألف درهم .

وكان يضر اليه من البرامكة في كل سنة من الورق ألفا ألف وأربعمائة ألف درهم ، وتفصيل ذلك : يحيى (٩) بن خالد ستمائة ألف درهم ، جعفر بن يحيى الوزير ألف ألف ومائتا ألف درهم ، الفضل (١٠) بن يحيى ستمائة ألف درهم ، يكون في مدة ثلاث عشرة سنة : احدا وثلاثين ألف ألف ومائتى ألف درهم .

يكون جميع ذلك مدة أيام خدمته للرئيس ، وهى ثلاث وعشرون سنة ، وخدمته للبرامكة وهى ثلاث عشرة سنة ، سوى الصلوات الجسام فانها لم تذكر فى هذا المدرج من الورق ثمانية وثمانين ألف درهم ، وثمانمائة ألف درهم : ثلاثة آلاف وأربعمائة ألف درهم .

التفكرة : الخراج من ذلك ومن الصلوات التى لم تذكر فى النفقات وغيرها على ما تضمنه المدرج المعمول من العين : تسعمائة ألف دينار ومن الورق : تسعون ألف وستمائة ألف درهم .

تفصيل ذلك ، ما صرفه فى نفقاته وكانت فى السنة : الف الف ومائتى ألف درهم على التقريب . وجمعتها فى السنين المذكورة سبعة وعشرون ألف ألف درهم وستمائة ألف درهم . ثمن دور وبسنتين ومنتزهات ورقيق ودواب والجمازات سبعون ألف ألف درهم ، ثمن آلات وأجر وصناعات وما يجرى هذا المجرى ثمانية آلاف ألف درهم . ما صار فى ثمن ضياع ابتاعها لخاصته اثنا عشر ألف ألف درهم . ثمن جواهر وما أعدده للذخائر عن قيمة خمسمائة ألف دينار خمسون ألف ألف درهم . ما صرفه فى البر والصلوات والمعروف والصدقات ، وما بذل به حفظه فى الكمالات لأصحاب المصادرات ، فى هذه السنين المقدم ذكرها ثلاثة آلاف ألف درهم . ما كابره (١١) عليه أصحاب الودائع وجهدوه ثلاثة آلاف ألف درهم . ثم وصى بعد ذلك كله عند وفاته الى المأمون لابنه بختيشوع ، وجعل المأمون الوصى فيها فسلمها اليه ، ولم يعترض فى شيء منها عليه بتسعمائة ألف دينار .

هوائى الملحق رقم (١) :

- (١) نوع من الفراء يتخذ من جلد السمور وهو حيوان يرى لونه أحمر مائل الى السواد . وقد أطلق على جلده اسمه .
- (٢) فراء أيضا من جلد الحيوان المسمى الفنك وهو من جنس الثعالب وفروته من أحسن الفراء .
- (٣) صغار القردان . ويقتصد هنا بجلودها .
- (٤) حيوان يقرب من السمور وهو أصغر اللون وبطقة وعنته مائلان الى البياض ، ويراد هنا فراؤه .
- (٥) فراء حيوان أكبر من الجرذ له ذنب طويل كثيف الشعر ، لونه أزرق رمادى ومن اللون السنجابى .
- (٦) اظن انها أم جعفر البرمكى زوجة يحيى بن خالد .
- (٧) بنت المهدي وأخت هارون الرشيد . وذهب المؤرخون والشعراء مذهبهم فى الكلام عن علاقتها بجعفر البرمكى وأنها كانت سبب نكبتهم .
- (٨) وزير الأمين فيما بعد ، حسد البرامكة ودس الدسائس عليهم وبغى البغضاء بين الأمين والمأمون . (ن . ر) .
- (٩) والد جعفر البرمكى ومؤدب هارون الرشيد ومستشاره .
- (١٠) تولى الحكم من قبل هارون الرشيد على جرجان وطبرستان والرى وخراسان . ومات سجيناً ، فى الرقة بعد نكبة البرامكة . (ن . ر) .
- (١١) عاتده وغالبه .

ملحق رقم (٢) *

ثبت باعداد الأطباء الذين ترجم لهم ابن أصيعة
منذ أول ظهور الاسلام واختلاف اقاليمهم

العصر والاقاليم والجنس	العدد
١ — طبقات الأطباء الذين كانوا في أول ظهور الاسلام	١٥
٢ — طبقات الأطباء السريانيين الذين كانوا ابتداء ظهور دولة بنى العباس	٣٨
٣ — طبقات الأطباء النقلة الذين نقلوا كتب الطب من اللسان اليوناني الى اللسان العربي	٤٧
٤ — طبقات الأطباء العراقيين وأطباء الجزيرة وديار بكر	٨٣
٥ — طبقات الأطباء الذين ظهوروا في بلاد المعجم	٢٤
٦ — طبقات الأطباء الذين ظهوروا في بلاد المغرب وأقاموا بها	٨٥
٧ — طبقات الأطباء المشهورين من أطباء ديار مصر	٥٨
٨ — طبقات الأطباء المشهورين من أطباء الشام	٥٩
٩ — طبقات الأطباء الذين كانوا من الهند	٦

* عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ص ١٦١ — ص ٧٦٨ ،
وسنلاحظ هنا تعدد مراكز التعليم الطبي في أنحاء العالم الاسلامي ، وكثرة
عدد الأطباء المشهورين ، حيث لم يترجم ابن أصيعة الا لذوى الفعاليات
الطبية ، والدليل على ذلك أن عضد الدولة بعد انشاء البيمارستان في بغداد
طلب مشاهير أطباء بغداد فذكروا له أسماء مائة طبيب في بغداد وحدها ،
ص ٤١٥ ، والمقدر عندما أمر بامتحان الأطباء الممارسين تقدم للامتحان
أكثر من ثمانمائة وستين طبيباً بنوى من اشتهر بالطب ولم يمتحن ،
ص ٣٠٢ ، نفس المرجع .

ملحق رقم (٢) *

التصور الإسلامى للمعرفة

وقد احتوى القرآن أيضا على علوم الأوائل : من الطب والجسد والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والنجابة وغير ذلك .

أما الطب ، فمداره على حفظ الصحة واستحكام القوة واعتدالها ، أورد الصحة بعد اختلالها ، وحدث الشفاء بعد اعتلالها ، وأشار إلى الأول بقوله تعالى : « وكان بين ذلك قواما » (سورة الفرقان : الآية ٦٧) ، ويقول تعالى : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » (سورة الاعراف : الآية ٣١) ، وإلى الثانى بقوله تعالى : « شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » (سورة النحل : الآية ٦٩) .

وأما الهيئة ففى آيات ذكر فيها ملكوت السموات والأرض ، وما بعث فى العالم العلوى والسفلى من مخلوقات ، وأحوال الشمس والقمر ، مثل قوله تعالى : « فمجهونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » (سورة الاسراء : الآية ١٢) ، وقوله تعالى : « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر » (سورة يس : الآية ٤٠) ، وقوله تعالى : « برب المشارق والمغارب » (سورة المعارج : الآية ٤٠) ، إلى غير ذلك ، بحيث لو أحصى لوجد جميع أصول الهيئة وزيادة عليها .

وأما الهندسة ، ففى قوله تعالى : « انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب » (سورة المرسلات : الآية ٣٠) .

وأما الجدل ، فتسد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج

* نقلا عن طائى كبرى زادة : مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم ، مرجع سابق ، ص ٥٢٣ — ص ٥٢٦ ، فبعد أن تحدث عن علوم اللغة وعلوم القرآن ، بدأ الحديث عن علوم الأوائل التى هى أيضا مذكورة فى القرآن .

والقول بالموجب والمعارضة ، وغير ذلك ، شيئا كثيرا . ومناظرة ابراهيم
نمرود ، ومحاجة قومه ، أصل في ذلك .

وأما الجبر والمقابلة ، فقد قيل ان أوائل السور فيها ذكر مدد وأعوام
وأيام لتواريخ أمم سألته وان فيها بقاء هذه الأمة ، وتاريخ مدة الدنيا ،
وما مضى وما بقى ، مضروب بعضها في بعض .

وأما النجاة ، ففي قوله تعالى : « أو أنارة من علم » (سورة
الأحقاف : الآية ٤) ، فقد فسر به بذلك ابن عباس . وفيه أيضا أصول
الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها ، كالخياطة في قوله
تعالى : « وطفقا يخصفان » (سورة الأعراف : الآية ٢٢) .

والحدادة : « آتوني زبر الحديد » (سورة الكهف : الآية ٩٦)
« والنساء له الحديد .. » الآية .

والبناء في عدة آيات .

والنجارة : « واصنع الفلك باعيننا » (سورة هود : الآية ٧٣) .

والفزل : « نقصت شغلها » (سورة النحل : الآية ٩٢) .

والنسيج : « كمثل العنكبوت اتخذت بيتا » (سورة العنكبوت :

الآية ٤١) .

والفلاحة : « أفرأيتم ما تحرثون .. » (سورة الواقعة : الآية ٦٣) .

والصيد : في عدة آيات .

والغوص : « كل بناء وغواص » (سورة ص : الآية ٣٧) ،

و « تسنخرجوا منه حلية » (سورة النحل : الآية ١٤) .

والصياغة : « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا »

(سورة الأعراف : الآية ١٤٨) .

الزجاجة : « صرح ممد من قوارير » (سورة النمل : الآية ٤٤) ،

« المصباح في زجاجة » (سورة الزور : الآية ٣٥) .

والفخارة : « فاوقد لى يا هامان على الطين » (سورة القصص :
الآية ٣٨) .

والملاحة : « اها السفينة . » (سورة الكهف : الآية ٧٩) .

والكتابة : « علم بالقلم » (سورة العلق : الآية ٤) .

والخبز : « احمّل فوق راسى خبزاً » (سورة يوسف : الآية ٣٦) .

والطبخ : « بعجل حنيذ » (سورة هود : الآية ٦٩) .

والفصل والتصار : « وثيابك فطهر » (سورة المدثر : الآية ٤) .

قال الحواريون وهم القصارون .

والجزارة : « الا ما نكيتم » (سورة المائدة : الآية ٣) .

والبيع والشراء فى آيات .

والصبغ : « صبغة الله » (سورة البقرة : الآية ١٣٨) ، « جعد

بيض وهمر » (سورة طاهر : الآية ٢٧) .

والحجارة : « وتنهتون من الجبال بيوتا » (سورة الشجر : الآية ١٤٩) .

والكيالة والوزن فى آيات .

والرمى : « وما رميت اذ رميت » (سورة الانفال : الآية ١٧) ،

« واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » (سورة الانفال : الآية ٦٠) .

وفيه من اسماء الالات وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات

وجميع ما وقع أو يقع فى الكائنات ، وما يحقق معنى قوله تعالى : « ما فرطنا

فى الكتاب من شيء » (سورة الانعام : الآية ٣٨) .

ملحق رقم (٤) *

الطبيب الحاذق صفاته وكيفية ممارسته للمهنة

(فصل) والطبيب الحاذق هو : الذى يراعى فى علاجه عشرين أمرا :
أحدها : النظر فى نوع المرض : من أى الأمراض هو ؟
الثانى : النظر فى سببه : من أى شئ حدث ؟ والمصلحة الفاعلة
التي كانت سبب حدوثه ، ما هى ؟
الثالث : قوة المريض ، وهل هى متاومة للمرض ، أو أضعف منه ؟
فإن كانت متاومة المرض مستظهرة عليه : تركها والمرض ، ولم يحرك
بالدواء ساكنا .

الرابع : مزاج البدن الطبيعى ما هو ؟ .

الخامس : المزاج الحادث على غير المجرى الطبيعى .

السادس : سن المريض .

السابع : عادته .

الثامن : الوقت الحاضر من فصول السنة ، وما يليق به .

التاسع : بلد المريض وتربيته .

العاشر : حال الهواء فى وقت المرض .

الحادى عشر : النظر فى الدواء المختار لتلك العلة .

الثانى عشر : النظر فى قوة الدواء ودرجته ، والموازنة بينها وبين قوة
المريض .

الثالث عشر : أن لا يكون كل قصده إزالة تلك العلة فقط ، بل إزالة
على وجه يأمن معه حدوث أصعب منها . فمتى كان إزالتها لا يؤمن معها
حدوث علة أخرى أصعب منها : إبقاها على حالها ، وتلطيفها هو الواجب .

* نقلا عن : ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، مرجع سابق ، ص ١١٢ -
ص ١١٥ .

وهذا كمرض أفواه العروق ، فإنه متى عولج بقطعة وحبسه ، خيف حدوث ما هو أصعب منه .

الرابع عشر : أن يعالج بالأسهل فالأسهل ، فلا ينتقل من العلاج بالغذاء الى الدواء ، الا عند تعذره ، ولا ينتقل الى الدواء المركب ، الا عند تعذر الدواء البسيط ، فمن سعادة الطبيب : علاجه بالأغذية بدل الادوية ، وبالأدوية البسيطة بدل المركبة .

الخامس عشر : أن ينظر في العلة : هل هي مما يمكن علاجها ، أولا ؟ فإن لم يمكن علاجها : حفظ صناعته وحرمة ، ولا يحمله الطمع على علاج لا يفيد شيئا .

وان أمكن علاجها : نلظر : هل يمكن زوالها ، أم لا ؟ فإن علم أنه لا يمكن زوالها ، فهل يمكن تخفيفها وتقليلها ، أم لا ؟ فإن لم يمكن تقليلها ، ورأى أن غاية الإمكان قطع زيادتها — قصد بالمعالج ذلك ، وأمان القوة ، وأضعف المسادة .

السادس عشر : أن لا يمرض للخلط قبل نضجه باستفراغ ، بل يقصد انضاجه ، فإذا تم نضجه ، بادر الى استفراغه .

السابع عشر : أن يكون له خبرة باعتلال القلوب والأرواح وأدويتها وذلك أصل عظيم في علاج الإبدان ، فإن انفعال البدن وطبيعته عن النفس والقلب أمر مشهود . والطبيب اذا كان عارفاً بأمراض القلب والروح وعلاجها ، كان هو الطبيب الكامل ، والذي لا خبرة له بذلك — وان كان حاذقاً في علاج الطبيعة وأحوال البدن — نصف طبيب . وكل طبيب لا يداوى العليل : يتفقد قلبه وصلاحه ، وتقوية أرواحه وقواه بالصدقة وفعل الخير والاحسان ، والاتصال على الله ، والدار الآخرة — فليس بطبيب ، بل متطبب ، قاصر ، ومن أعظم علاجات المرض : فعل الخير والاحسان ، والذكر والدعاء ، والتضرع بالابتغال الى الله ، والتوبة . ولهذه الأمور تأثير في دفع العلل وحصول الشفاء ، أعظم من الادوية الطبيعية ، ولكن : بحسب استعداد النفس وقبولها ، وعقيدتها في ذلك .

الثامن عشر : التلطف بالمريض والرفق به ، كالتلطف بالصبي .

التاسع عشر : أن يستعمل انواع العلاجات الطبيعية والإلهية والعلاج بالتخييل . فان لحذاق الأطباء في التخييل أمورا عجيبة لا يصل إليها الدواء . فالطبيب الحاذق يستعين على المرض بكل معين .

العشرون : وهو ملاك أمر الطبيب — أن يجعل علاجه وتدبيره دائرا من ستة أركان : حفظ الصحة الموجودة ، ورد الصحة المفقودة ، بحسب الامكان ، وإزالة العلة وتقليلها بحسب الامكان ، واحتمال أدنى المفسدين لازالة أعظمهما ، وتقويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعظمهما ، فعلى هذه الأصول الستة مدار العلاج . وكل طبيب لا تكون هذه أخته (١) التي يرجع إليها فليس بطبيب . والله أعلم .

(فصل) ولما كان للمرض أربعة أحوال : ابتداء وصعود وانقضاء وانحطاط . تعين على الطبيب مراعاة كل حال من أحوال المرض بما يناسبها ويليق بها . ويستعمل في كل حال ما يجب استعماله فيها فإذا رأى في ابتداء المرض أن الطبيعة محتاجة الى ما يحرك الفضلات ويستقرغها لنضجها ، يبادر اليه . فان فاته تحريك الطبيعة في ابتداء المرض — لعائق منع من ذلك ، أو لضعف القوة وعدم احتمالها للاستقراغ ، أو لبرودة الفصل ، أو لتفريط وقع — فينبغي أن يحذر كل الحذر أن يفعل ذلك في صعود المرض ، لأنه ان فعله : تحريت الطبيعة لاستغلالها بالدواء ، وتخلت عن تدبير المرض وتقاومته بالكلية ومثاله : أن يجيء الى باريس مشغول بمواقعة عدوه ، فبشغله عنه بأمر آخر . ولكن الواجب في هذه الحال : أن يعين الطبيعة على حفظ القوة ما أمكنه .

فإذا انتهى المرض ووقف وسكن ، أخذ في استقراغه واستئصال أسبابه ، فإذا أخذ في الانحطاط كان أولى بذلك . ومثال هذا مثل العدو إذا انتهت قوته ، وفمرغ سلاحه ، كان أخذه سهلا ، فإذا ولي وأخذ

(١) الأخية بزنة أبيه : الحرمة والذمة . وهي أيضا مشهورة فيما تربط فيه الدابة . وإرادة الأول أظهر . بل هو المتعين .

في الهرب ، كان أسهل أخذا ، وحدته وشوكته إنما هي في ابتدائه ، وحال استفراغه ، وسعة قوته . وهكذا الداء والدواء سواء .

(فصل) ومن حذق الطبيب : أنه حيث أمكن التدبير بالأسهل فلا يعدل إلى الأصعب ، ويتدرج من الأضعف إلى الأقوى . إلا أن يخاف فوت القوة حينئذ : فيجب أن يبتدىء بالأقوى . ولا يقيم في المعالجة على حال واحدة : فتألفها الطبيعة ويقل انفعالها عنه ، فلا تجسر على الأدوية القوية في الفصول القوية . وقد تقدم أنه إذا أمكنه الصلاح بالغذاء ، فلا يعالج بالدواء . وإذا أشكل عليه المرض : أحر هو ؟ أم بارد ؟ فلا يقدم حتى يتبين له ، ولا يجرّبه بما يخاف عاقبته . ولا بأس بتجربته بما لا يضر أثره .

وإذا اجتمعت أمراض : بدأ بما تخصه واحدة من ثلاث خصال :
أحدها : أن يكون برء الآخر ، موقوفا على برئه ، كالورم والفرخة ، فإنه يبدأ بالورم .

الثانية : أن يكون أحدهما سببا للآخر ، كالسدة والحمى العفنة ، فإنه يبدأ بإزالة السبب .

الثالثة : أن يكون أحدهما أهم من الآخر ، كالحاد والمزمن ، فيبدأ بالحاد ، ومع هذا فلا يغفل عن الآخر .

وإذا اجتمع المرض والغرض ، بدأ بالمرض ، إلا أن يكون الغرض أقوى كالقولنج ، فيسكن الوجع أولا ، ثم يعالج السدة ، وإذا أمكنه أن يعتاض عن المعالجة بالاستفراغ ، بالجوع أو الصوم أو النوم ، لم يستفرغه ، وكل صحة أراد حفظها ، حفظها بالمثل أو الشبه وإن أراد نقلها إلى ما هو أفضل منها ، نقلها بالحد .

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة للبحث	٥
الفصل الأول : دور الاسلام وتعاليمه في ازدهار الطب الاسلامي	١١
اولا : موقف الاسلام وتعاليمه من العلم والتعليم بصفة عامة	١٢
ثانيا : موقف الاسلام وتعاليمه من التعليم الصحي بصفة خاصة	٢٦
— الاسلام والطب الوقائي	٢٧
— الاسلام والطب العلاجي	٣٨
مراجع الفصل الأول ومصادره	٤٣
الفصل الثاني : الاعداد التربوي للطبيب عند المسلمين	٥١
المرحلة الاولى : التعليم الابتدائي	٥٣
Primary Education	
— مؤسسات التعليم الابتدائي	٥٤
— اهداف التعليم الابتدائي	٥٧
— مناهج التعليم الابتدائي	٥٩
— طريقة التدريس	٦٤
— سن التعليم ومدته	٦٨
— المعلم	٧٠
— ادارة التعليم وتنظيمه وتمويله	٧٣
— تقييم التعليم الابتدائي الاسلامي	٧٧
مراجع الفصل الثاني ومصادره	٨٥
الفصل الثالث : الاعداد التربوي والمهني للطبيب : المرحلة الثانية المتخصصة	٩٣
Further Education	

الموضوع	الصفحة
— مقدمة	٩٥
أولا : دوافع ازدهار التعليم الطبى فى المجتمع الاسلامى ...	٩٨
ثانيا : التعليم الطبى بين التخصص العميق والتخصص الضيق ...	١٠٦
ثالثا : مؤسسات التعليم الطبى	١١٠
١ — المساجد	١١٠
٢ — المدارس الطبية	١١٣
٣ — البيمارستانات	١١٧
٤ — منازل الاطباء	١٢٣
٥ — المكتبات المتخصصة للدراسات العليا	١٢٤
Further Education	
رابعا : مناهج التعليم الطبى النظرى	١٢٨
خامسا : طرق الاعداد التربوى والمهنى	١٣٨
١ — الملاحظة السريرية والممارسة	١٣٨
٢ — القراءة الذاتية	١٤١
٣ — الملازمة	١٤٣
٤ — الاملاء	١٤٤
٥ — المناقشات والمناظرات والاستشارات الطبية ...	١٤٥
٦ — المراسلات الطبية	١٤٦
٧ — الرحلة	١٤٧
٨ — الحفظ	١٤٩
سادسا : عدد سنوات التعليم الطبى	١٥٥
سابعا : نظام الامتحانات	١٥٦
ثامنا : اساتذة الطب	١٥٩

الموضوع	الصفحة
تاسعا : المرأة والتعليم الطبي	١٦١
مراجع الفصل الثالث ومصادره	١٦٤
الفصل الرابع : صفات الطبيب وحقوقه وواجباته	١٨٥
أولا : صفات الطبيب	١٨٧
(أ) الصفات الحسية أو الطبيعية	١٨٧
(ب) الصفات العقلية والمهنية	١٨٩
(ج) الصفات الأخلاقية وشرف المهنة	١٩١
ثانيا : حقوق الطبيب وواجباته	١٩٣
حقوق الطبيب	١٩٣
واجبات الطبيب	١٩٤
مراجع الفصل الرابع ومصادره	١٩٨
خاتمة البحث أو الدروس المستفادة	٢٠١
مراجع خاتمة البحث	٢٠٦
ملحق رقم ١ : الدخل العام للطبيب جبرائيل بن بختيشوع طبيب الرشيد	٢٠٩
ملحق رقم ٢ : ثبت باعداد الأطباء الذين ترجم لهم ابن أصيبعة منذ ظهور الاسلام واختلاف أقاليمهم	٢١٣
ملحق رقم ٣ : التصور الاسلامي للمعرفة	٢١٤
ملحق رقم ٤ : الطبيب الحاذق صفاته وكيفية ممارسته للمهنة	٢١٧
المحتسويات	٢٢١

صواب السطر ١٥ صفحة ٩٦ هكذا :

الصبي ممكنة له موأنية ، لكن ما شاكل طبيعه وناسبه ، وانه لو كانت

رقم الايداع بدار الكتب : ١٩٨٤/٤٨١٤
الترقيم الدولي : ٣ - ١٢١ - ١٠ - ٩٧٧

تطلب جميع منشوراتنا من
مؤسسة

دار الكتاب الحديث

للطباعة والنشر والتوزيع

الكويت شارع فهد السالم عمارة السوق الكبير

بجوار المخازن الكبرى محل رقم ٢٥٠ أرضى

ت : ٤٣٦٧٦٥ ص ٠ ب ٢٢٧٥٤